المنظمة العربية للترجمة

ديونوسيوس دي تلمحري

الوقائع التاريخية السريانية

من سنة 587-774م

ترجمة

الشمّاس بطرس قاشا

توزيع: مركز دراسات الوحدة العربية

الوقائع التاريخية السريانية

من سنة 587-774م



لجنة العلوم الإنسانية والاجتماعية

هدى مقنص (منسقةً)

سمية الجرّاح

رجاء مكي

صالح أبو إصبع



المنظمة العربية للترجمة

ديونوسيوس دي تلمحري

الوقائع التاريخية السريانية

من سنة 587-774م

ترجمة

الشمّاس بطرس قاشا

مراجعة وتقديم

الأب سهيل قاشا



الفهرسة أثناء النشر - إعداد المنظمة العربية للترجمة
دي تلمحري، ديونوسيوس
الوقائع التاريخية السريانية من سنة 587-774م/ديونوسيوس دو تلمحري؛ ترجمة بطرس قاشا؛ مراجعة وتقديم سهيل قاشا.
272 ص. - (علوم إنسانية واجتماعية)
يشتمل على فهرس.
ISBN 978-614-434-088-2
1. اللغة السريانية. 2. التاريخ. أ. العنوان. ب. قاشا، بطرس (مترجم). ج. قاشا، سهيل (مراجع). د. السلسلة.
492.3

De Tell-Mahré, Denys
Chronique Syriaque

المنظمة العربية للترجمة

بناية "بيت النهضة"، شارع البصرة، ص. ب: 113-5996
الحمراء - بيروت 2090 1103- لبنان
هاتف: / (9611) 753024 - 753031 فاكس: (9611) 753032
e-mail: info@aot.org.lb - Web Site: http://www.aot.org.lb

توزيع: **مركز دراسات الوحدة العربية**
بناية "بيت النهضة"، شارع البصرة، ص. ب: 113 - 6001
الحمراء - بيروت 2034 2407 - لبنان
تلفون: 750086 - 750085 - 750084 (9611)
برقياً: "مرعربي" - بيروت / فاكس: 750088 (9611)
e-mail: info@caus.org.lb - Web Site: http://www.caus.org.lb

الطبعة الأولى: بيروت، نيسان (أبريل) 2016
يمكنكم شراء هذا الكتاب عبر الموقع الالكتروني: www.caus.org.lb



المحتويات





مقدمة المؤلف

فيما يلي نص المقدمة التي وردت في تاريخ الزوقنيني والتي نشرها شابو في بداية التاريخ المنشور جاء فيها:

كتاب التاريخ

تأليف مار ديونيسيوس التلمحري

الجزء الرابع

يبتدئ هذا التاريخ منذ خلق العالم حتى مولد إبراهيم الخليل وبروز مملكة نينوس. ذلك الملك الذي بنى نينوى وحكم فيها اثنتين وخمسين سنة. وفي السنة الثانية والأربعين من حكمه، ولد إبراهيم أبو الآقباء حسب شهادة أوسابيوس الذي أخذنا عنه مقداراً من سيرته لتاريخنا هذا، وصولاً لسني الملك قوسطنطينوس المؤمن. ومن هذا التاريخ وحتى تيؤوديوسيوس الصغير الذي ملك من سقراطوس الذي ملك من خوفز، ومن تيؤديوسيوس حتى يوسطينينا الملك الذي أعقب القديس يعقوب أسقف آسيا سنة ٨٨٥ وحتى السنة التي نحن فيها اليوم التي هي سنة ألف وست وثمانين للإسكندر، ومائة وثمان وخمسين هجرية، يمكن القول إننا لم نجد مَن أوضع هذا التاريخ من حيث الحقيقة ولا حتى هناك من



ذكر الأزمنة السيئة والمرة التي مرت علينا وعلى آبائنا واجدادنا. فهو تاريخ عن زمن الضيق والمرارة الذي أصابنا بسبب خطايانا، وأصبحنا أسرى بيد الآشوريين والبرابرة. نحن لم نر أحداً يكتب شيئاً عن هذا التاريخ وعليه، فلنترك ذكر زماننا الشرير والضيق الشديد الذي حملته الأرض في أيامنا وزمننا من أيدي الآشوريين. هؤلاء هم الذين يسميهم النبي قائلاً: إن الآشوري هو قضيب غضبي والعصا التي بيدهم ليضربوا ضربتني. وأرسله إلى الشعب الوثني وعلى الشعب الغضبان أمره. هذا هو قضيب الرب وعصاه التي مدّ يده وأعطاها للآشوري يؤدب فيه الناس والأرض. وأيضاً رأوه في السماء إذ صعد وظهر أياماً كثيرة. وكان لنا إرادة، ولعل الذين يأتون بعدنا إلى العالم يسمعون ويفزعون فيخافون من الله. ويسلكون طريقهم نحو الحق لكي لا يكرههم إلهم. كما أنه جعل لنا هذا الأب القاسي. ومكتوب فيه، أوصوا أولادكم واسال والدك أيضاً وهو يخبرك وأجدادك وهم يقولون لك. وكنا قد فتشنا أماكن كثيرة إلا أن الشيء الحقيقي غير مكتوب منه إلا شيئاً قليلاً. والذي سمعناه من الشيوخ القدماء الذين رأواهم ومروا بهم، والذين نحن رأيناهم بأعيننا الذين ممن أسروا بهذه الأعمال، أردنا من خلالها أن نجمعهم ونضعهم في سرديات هذا الكتاب قليلاً. إلا أن كل من يحظى بهؤلاء ويريد أن يلبس الرذيلة أو يرفضها فليعلم أنها لم تحدث ببلد واحد أو مملكة واحدة أو جهة واحدة، فهي لا تتعدى أن تكون أعمالاً متنوعة. وعليه أيضاً الآن إذا صادف تاريخاً لا يطابقه فليعلم القارئ أن الكتّاب القدماء ليسوا مطابقين لبعضهم، إلا أن الواحد منهم يزيد والآخر ينقص. الواحد يكتب عن الكنيسة والآخر



عن أخبار أخرى ولكن هذا لا يضر الحكماء والذين يخافون الله بشيء إذا قدّم سنة أو أخّر سنة أو سنتين، إلا أنه يكفي لمتقي الله أن يعرفوا أعمال وضربات الأجيال القديمة ويتجنبوا الإثم حتى لا تحلّ عليهم هذه الضربات فكونوا إذن على حذر واتقوا الله إلهكم لئلا تأتي عليكم هذه الآثام أيضاً. وإننا نبتدئ في كتابنا هذا من سنة ثمانمائة وثمانية وتسعين سنة 898م.

أيها القارئ اللبيب

أرجو المعذرة والعفو عما ترونه من الأخطاء لأن غايتي من ترجمة هذا التاريخ كان حسب النص السرياني ودون التفات إلى تركيب الجمل بحسب اللغة للإسراع بالترجمة.

المترجم

بطرس متي قاشا 1976




مكتبة
الفكر الجديد

وقائع تاريخية
من سنة 898 إلى سنة 1085 يونانية
الموافقة: سنة 587 – سنة 774 ميلادية

سنة 898 ي

687 م

مات الملك يوسطنينا[1]، وحكم يوسطنينا الرابع[2] وطيبريوس قيصر[3].

---

(1) جاء في المسعودي ذكر «يوسطاناس» وفي بعض النسخ يوسطيانوس، أنه ملك تسع سنين (مروج الذهب، ج 1، ص 360) كما وذكر أنه ملك بعده يوسطانياس، وفي بعض النسخ سطاباس الذي دام ملكه تسعاً وثلاثين سنة وقيل أربعين، وبنى كنائس كثيرة، وشيّد دين النصرانية، وأظهّر مذهب الملكية، وبنى كنيسة الرُّها وهي إحدى عجائب العالم، والهياكل، وقد كان في هذه الكنيسة منديل يعظمه النصارى، وذلك أن يسوع النصاري – حين أُخرج من ماء المعمودية – تنشّف به، فلم يزل هذا المنديل يُتداول إلى أن قرر بكنيسة الرُّها، فلمّا اشتدّ أمر الروم على المسلمين وحاصروا الرُّها في هذه السنة وهي سنة 332 أُعطي هذا المنديل للروم فجنحوا إلى الهدنة، وكان للروم عند تسلّمهم هذا المنديل فرح عظيم. (مروج الذهب، ج 1، ص 361).

(2) لدى المسعودي، ملك نوسطيس أو (فرسطيس) على ما ورد في بعض النسخ (مروج الذهب، ج 1، ص 361).

(3) لدى المسعودي، إنه طباريس الذي ملك أربع سنين وأظهر في ملكه أنواعاً من اللباس والآلات وآنية الذهب والفضة وغير ذلك من آلات الملوك. (مروج الذهب، ج 1، ص 361).



سنة 901 ي

590 م

مات يوسطنينا، واستلم زمام الملك طيبريوس[4].

سنة 902 ي

591 م

مات القدّيس بطرس بطريرك أنطاكيا[5].

سنة 905 ي

594 م

مات كيبريوس. وقام بعده موريس[6]، ثمانِ سنوات.

سنة 912

601م

حدث ظلام قاتم وسط النهار، وظهرت النجوم كما في الليل، دام

---

(4) انظر الحواشي الثلاث السابقات.

(5) هو بطرس الثالث القلنيقي (قلينقس وهي الرقة) كان خبيراً بأصناف العلوم الدينية والمدنية، وله رسائل مبتدعة، تشهد بجدارته وكفاءته ولما كانت الفتن تنمو وتزداد بين السريان اجتمع أساقفة سوريا في دير مار حنانيا بين بالس والرقة وأتوا ببطرس هذا سنة 571 على الأصح ورسّموه بطريركاً بوضع يد يوسف الآمدي مع أن سالفه ظل مختفياً أربع سنوات أي حتى وفاته سنة 575. وكان بطرس هذا خليل مار يعقوب البرادعي الذي عرض عليه البطريركية فرفضها حتى هذه السنة وكانت رئاسته عشرين عاماً ودُفن في دير لجب الخارجي واشتهر في عهده أحودامه (أخوامه) المفريان الأول (559–575) (انظر الزهرة الذكية، ص 33 رقم 58).

(6) جاء في مروج الذهب أنه ملك عشرين سنة ونصر كسرى أبرويز على بهرام جوبين فقتل غيلة وبعث أبرويز غضباً له بجيوش إلى الروم وكانت لهم حروب. (ج1، ص 361).



نحو ثلاث ساعات ثم تلاشى الظلام وظهر النهار كالعادة.

في هذه السنة مات موريس وحكم بعده موريس آخر وساس البلاد اثنتي عشرة سنة.

سنة 914 ي

603 م

استولى على مدينة الرُّها[7] نرساي القائد الفارسي ودخلها وقبض على ساويرا أُسقفها ورجمه بالحجارة فمات.

سنة 915 ي

604 م

أقيم القدّيس أثناسيوس[8] بطريركاً على أنطاكيا[9].

---

(7) الرُّها: بضمّ أول والمد والقصر. مدينة بالجزيرة بين الموصل والشام بينهما ستة فراسخ. سميت باسم الذي استحدثها وهو الرُّهاء بن البلندي بن مالك بن دعر... وقال يحيى بن جرير النصراني (التكريتي): الرُّها اسمها بالرومية أذاسا بنيت في السنة السادسة من موت الإسكندر بناسا الملك سلوقس... (**معجم البلدان**، ج 2، ص 341، الطبعة الأولى، 1962).

(8) هو البطريرك أثناسيوس الأول. ولد في شميشاط، ولبس الأسكيم الرهباني في دير قنسرين. ولما توفي يوليان سالفه اجتمع الأساقفة سنة 595م في أحد أديرة المغرب واعتكفوا ثلاثة أيام وفي الصباح فتحوا باب الدير فألفوا أثناسيوس يقود جملاً محمّلاً ملحاً إلى ديره في شميشاط فأتوا به ورسّموه بطريركاً ولم يبرح يشتغل أشغالاً يدوية متعبة في عهد بطريركيته التي طالت خمساً وأربعين سنة وتوفي سنة 631م ودفن في دير كرومايا. وهو الذي وثّق عرى الاتحاد بين الكرسي الأنطاكي والإسكندري. (انظر **الزهرة الذكية**، ص 34–35، رقم 6) وللتفصيل في سيرته انظر الكتاب الذي وضعه عنه البطريرك مار يعقوب الثالث.

(9) أنطاكيا: بالفتح ثم السكون والياء مخففة... قال الهيثم بن عدي: أول من بنى أنطاكيا أنطيخس وهو الملك الثالث بعد الإسكندر... وذكر يحيى بن جرير المتطبب التكريتي أن أول من بنى أنطاكيا أنطيغنوس في السنة السادسة من موت الإسكندر ولم يتمّها (الحموي، **معجم البلدان**، ج 1، ص 453).



سنة 916 ي

605 م

فتحت الرُّها سنة 920 ي أو سنة 329 ي:

906م أو 612 م:

قتل موريقس وابنه تودسيس وحكم فوقيس ثمان سنوات.

سنة 928 ي

617 م

أمر الملك فوقا[10]، أن يتعمّد جميع اليهود الذين تحت حكمه، فأرسل كيوركي النائب إلى أورشليم وجميع أرض فلسطين لكي يلزموا اليهود بالعماد. فلما وصل النائب إلى أورشليم جمع اليهود الذين فيها ودخل أمامه رؤساؤهم وقال لهم: هل أنتم عبيد الملك؟ قالوا: نعم. قال: إن صاحب الأرض يأمركم بأن تقبلوا المعمودية. فسكتوا ولم يردوا بجواب؛ فسألهم: لماذا أنتم صامتون لا تردون الجواب؟ أجاب أحدهم - وكان من رؤسائهم واسمه يونا - قائلاً: كلّ ما يأمر به صاحب الأرض نصنع وبفرح؛ أما العماد فلا يمكننا الرضوخ له إذ إنه لم يأتِ بعد يوم العماد المقدّس. فلما سمع النائب هذا غضب غضباً شديداً وضرب يونا على خدّه، وقال: إن كنتم عبيداً فيجب أن تطيعوا أوامره، وأمر فعمّدوهم جميعاً شاؤوا أم أبوا.

واشتهر في هذا الزمن يعقوب اليهودي، وأثناسيوس بطريرك أنطاكيا. ويوحنا أسقف العرب، وشمعون في حرّان وموريقا الآمدي.

---

(10) ذكره المسعودي باسم فوقاس الذي ملك ثماني سنين إلى أن قُتل. (مروج الذهب، تدقيق يوسف أسعد داغر، ط 1 (بيروت: دار الأندلس، 1965)، ج 1، ص 361).



سنة 932 ي

621 م

استولى المسلمون على أرض فلسطين[11] وحتى نهر الفرات الكبير أي حرّروها من سيطرة الرومان. وهرب الرومان وعبروا نحو المشرق عبر الفرات. وحكم هذه البلاد المسلمون، وكان أول (ملك)[12] محمد الذي كان نبياً فيهم حيث إنه دبّر شؤونهم وأنقذهم من الجاهلية وجعل الإسلام لهم ديناً، يعبدون الإله الخالق الواحد الأحد، وسّن لهم شريعة بعد أن كانوا يعبدون الأصنام ويسجدون لها وخاصة للأشجار.

سنة 933 ي

622 م

1 هـ

مات فيها فيقوس ملك الروم وحكم بعده هرقل (610م – 641م)[13] واحدة وثلاثين سنة.

سنة 934 ي

623م

---

(11) انظر أخبار فتح فلسطين لدى البلاذري في كتابه فتوح البلدان، ج 1، ص 164 - 171.

(12) استعمل المؤلف هنا كلمة «ملك» متجاهلًا أو جهلًا منه أن محمداً لم يكن ملكاً إنما رسولاً دعا الناس إلى عبادة الله الواحد وأنشأ أسس الدولة العربية الإسلامية الأولى في المدينة المنورة والذين تولّوا الأمر من بعده سُمّوا «خلفاء» واحدها «خليفة».

(13) جاء في المسعودي أن هرقل كان بطريقاً في بعض الجزائر قبل جلوسه على العرش فعمّر بيت المقدّس وذلك بعد انكشاف الفرس عن الشام، وبنى الكنائس. ولسبع سنين من ملكه كانت هجرة النبي (ص) من مكة إلى المدينة شرفها الله تعالى. (مروج الذهب، ج 1، ص 361).



2 هـ

مات مار قوريقا أُسقف آمد. وقام بعده مار توما.

سنة 937 ي

626م

5 هـ

سقطت نجوم من السماء باتجاه الشمال كالنبال؛ وهذه كانت علامة لهزيمة الروم واستيلاء المسلمين على ديارهم.

سنة 938 ي

627 م

6 هـ

توفي النبي محمد (ص) وخلفه أبو بكر خمس سنوات[14].

سنة 940 ي

629م/ 8 هـ

باشر هرقل ملك الروم في بناء الكنيسة الكبرى ببلدة آمد.

سنة 943 ي

632

11 هـ

(14) الصحيح أن محمداً (ص) توفي سنة 11 هـ/ 635 م، وحكم بعده أبو بكر من 11 هـ - 13 هـ.



مات (الخليفة) أبو بكر، خليفة المسلمين وخلفَه عُمر اثنتي عشرة سنة[15].

سنة 944 ي

336 م

12 هـ

نزل هرقل ملك الروم إلى الرُّها ووقعت بينه وبين الفرس معركة هرب على إثرها الفرس وخرجوا من بين النهرين[16].

سنة 948 ي

637م

16 هـ

استولى العرب المسلمون على الجزيرة[17]، وهرب الروم، ودخل عيص[18] الرُّها[19].

---

(15) حكم أبو بكر ثلاث سنوات تقريباً وليس 5 سنوات، وتوفي سنة 13 هـ.

(16) في هذه المعركة استرجع الروم خشبة الصليب المقدّس إلى القدس بعد أن كان الفرس قد نهبوها ومكثت عندهم فترة من الزمن.

(17) كان أبو عبيدة بن الجراح قد وجّه عياض بن غنم إلى الجزيرة فلم يزل يحاصر عليها ثم افتتح الرقة وسَروج والرُّها ونصيبين وسائر مدن الجزيرة وكانت صلحاً كلها ووضع عليها الخراج على الأرضين ورقاب الرجال على كلّ إنسان أربعة وخمسة دنانير وستة في سنة 18 هـ (اليعقوبي، ج 2، ص 150. انظر أيضاً عن **فتوح الجزيرة** للبلاذري، ج 1 ص 204–215).

(18) عيص هذا ليس إلا عياض بن غنم آنف الذكر.

(19) وكتب عياض كتاباً لأهل الرُّها: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من عياض بن غنم ومن معه من المسلمين لأهل الرُّها: إني أمّنتهم على دمائهم وأموالهم وذراريهم ونسائهم ومدينتهم وطواحينهم إذا أدّوا الحقّ الذي عليهم، ولنا عليهم أن يصلحوا جسورنا ويهدوا ضالّنا شهد الله وملائكته والمسلمون». (البلاذري، **فتوح البلدان**، ج 1، ص 207).



سنة 952 ي

641 م

21 هـ

وصل العرب إلى دارا[20] وحاربوها، ووقع بين الطرفين قتلى كثيرون وخاصة من العرب، ومن ثم أعطوهم العهد وفتحوا المدينة صلحاً[21]. وفي هذه السنة هجموا على أربين[22]، ووقع فيها قتلى ما يقارب اثني عشر ألفا من الأرمن[23].

سنة 953 ي

642م

22 هـ

استولى العرب على مدينة قيسارية[24] بفلسطين[25].

---

(20) بلدة في كف جبل بين نصيبين ومارِدِين، وإنها من بلاد الجزيرة ذات بساتين ومياه جارية ومن أعمالها يُجلب المحلب الذي تتطيّب به الأعراب وعندها كان معسكر دار الملك لما لقي الإسكندر (**معجم البلدان**، ج 45، ص 5–6).

(21) البلاذري، **فتوح البلدان**، ج 1، ص 208.

(22) الراجح أنها مدينة أرجيش الأرمنية وتقع قرب مدينة خلاط.

(23) وجه عثمان بن عفان حبيب بن مسلّمة النهري إلى أرمينية وفتحها (اليعقوبي، 168:2).

(24) قَيساريّة، بالفتح ثم السكون وسين مهملة وبعد الألف راء ثم ياء مشددة. بلد على ساحل بحر الشام تعدّ في أعمال فلسطين بينها وبين طبرية ثلاثة أيام وكانت قديماً من أعيان أمهات المدن واسعة الرقعة طيبة البقعة كثيرة الخير والأهل. (**معجم البلدان**، ج 7، ص 195) وأما الآن فليست كذلك وهي بالقرى أشبه منها بالمدن.

(25) فتح قَيسارية معاوية بن أبي سفيان وقد نصّبه عليها عمر بن الخطاب والياً سنة 15 هـ (البلاذري، **فتوح البلدان**، ج 1، ص 166 – 170) و(**تاريخ الأمم والملوك**، ج 4، ص 156).



سنة 955 ي

644 م

24 هـ

قدم قائد جيش الروم النطريق ولنطينا وأعلن الحرب مع العرب، إلّا أنه خاف فهرب من أمامهم تاركاً الغنائم التي استولى عليها العرب.

وفي هذه السنة دخل على قطر سَروج[26] وبغضب عظيم فرّ قوبي وثاودورا ونهبا وسلبا وخرّبا الديار ورجعا إلى موطنهما.

بعد أثناسيوس البطريرك نصّب تلميذه يوحنا[27].

وفي هذه الأثناء اشتهر القدّيس يوحنا البطريرك الأنطاكي[28] ويوحنا أُسقف العرب، وشمعون الرُّهاوي، ومتّى الحلبي من الدير المقدّس دير

(26) سَروج: بفتح أولها من السرج وهي من أبنية المبالغة وهي بلدة قريبة من حرّان من ديار مصر.. غلب عياض بن غنم على أرضها ثم فتحها صلحاً على مثل صلح الرُّها في سنة 17 هـ في أيام عمر بن الخطاب (**معجم البلدان**، 77:5).

(27) هو يوحنا الثالث أبو السدرات أو الحسايات البديعة التي في فرضنا البيعي وهي أنيقة شائقة المعاني كانت بطريركية عام 631 بوضع يد إبراهيم النصيبيني، وبعد ثماني عشرة سنة توفي في دير زعورا بديار بكر في 14 كانون الأول/ ديسمبر 649 وكان منذ نعومة أظفاره ميّالاً إلى مطالعة الكتب كمعلمه وسلفه أثناسيوس البطريرك وإليه طلب عمر بن سعد ترجمة **الإنجيل** إلى العربية وشرط أن لا يرقّم فيها اسم المسيح ابن الله والعماد والصليب، فقال له يوحنا ببسالة: معاذ الله أن أنقض حرفاً واحداً من **إنجيل** ربي ولو كلفني ذلك أمر العذاب، فدهش عمر من شجاعته وأمره بالترجمة كيفما يشاء (**الزهرة الذكية**، ص 36 رقم 61).

(28) اشتهر بوضعه السدرات والحسايات البيعية الطقسية.



زوقنين[29] ومار توما الآمدي من نفس الدير.

سنة 956 ي

645م

25 هـ

مات عمر خليفة العرب[30]، وخلفه عثمان[31] مدة اثنتي عشرة سنة.

سنة 960 ي

649م

29 هـ

دخل معاوية إلى قبرص[32]. وفي نفس السنة استولى على مدينة أرواد[33].

---

(29) دير زوقنين، بظاهر ديار بكر دير عظيم مشهور نشأ منه أيوانيس الأول (+755) وأربعة عشر أسقفاً. (اللؤلؤ المنصور، ص 511).

(30) قتله بضربة خنجر أبو لؤلؤة وهو في الصلاة إذ طعنه بستّ ضربات إحداها تحت سُرّته وهي التي قتلته.. وتُوفي ليلة الأربعاء لثلاث بقين من ذي الحجة سنة 23 هـ، ودفن في بيت عائشة مع النبي (ص)... (**تاريخ الأمم والملوك**، ج 5، ص 12 – 13).

(31) بويع لعثمان بن عفان بالخلافة يوم الاثنين لليلة بقيت من ذي الحجة سنة 23 هـ، فاستقبل بخلافته المحرم سنة 24 هـ وقال آخرون غير ذلك (**تاريخ الأمم والملوك**، ج 5، ص 43) كذلك (اليعقوبي، ج 2، ص 162). في تشرين الثاني/ نوفمبر.

(32) أول من غزا في البحر معاوية بن أبي سفيان زمن عثمان بن عفان وقد كان استأذن عمر فيه فلم يأذن له، وصالح أهلها على جزية سبعة آلاف دينار يؤدّونها للمسلمين. وقال الواقدي إنه غزاها سنة 28 هـ (**تاريخ الأمم والملوك**، ج 5، ص 52– 53).

(33) أَرْواد: بالفتح ثم السكون وواو وألف ودال مهملة. اسم جزيرة في البحر قرب قسطنطينية غزاها المسلمون وفتحوها في سنة 54 هـ مع جنادة بن أبي أمية في أيام معاوية بن أبي سفيان وأسكنها معاوية... (**معجم البلدان**، ج 1، ص 207).



سنة 961 ي

650 م

30 هـ

مات القدّيس مار يوحنا بطريرك أنطاكيا (في 14 كانون الأول/ ديسمبر 649) ودفن في مدينة آمد ووضع في هيكل القدّيس مار زعورا.

وفي نفس السنة مات القدّيس مار يوحنا أُسقف العرب ووضع في هيكل مار يوحنا المعمدان في آمد.

وفي نفس السنة مات القدّيس شمعون الرُّهاوي في آمد ووضع في هيكل مار زعورا.

سنة 962 ي

651م

31 هـ

أقيم مار ثاودورا بطريركاً على أنطاكيا[34]. وفي الرُّها أقيم (قوريقا).

سنة 963 ي

652م

---

(34) ثاودورا، كانت ولادته في برية الصعيد ودرس في دير قنسرين وسنة 649 رقي إلى كرسي أنطاكيا بواسطة إبراهيم أسقف حمص في كنيسة أنطاكيا. وبقي ثماني عشرة سنة كاملة وتوفي سنة 667م ودفن في دير قنسرين حيث تربى (الزهرة الذكية، ص36، رقم 62).



32 هـ

حدثت حرب بين الروم والمسلمين في مدينة طرفوليس.

سنة 964 ي

653 م

33 هـ

دخل حبيب[35] إلى الجزيرة[36]. وجاء فروقوفي ليقيم السلام مع المسلمين.

سنة 965 ي

645 م

34 هـ

مات هرقل ملك الروم (641 م) بعد أن حكم واحدة وثلاثين سنة وحكم بعده قسطنطين الصغير سنة واحدة. (641 قسطنطين الثاني).

سنة 966 ي

655 م

---

(35) هو حبيب بن مسلّمة الفهري فاتح أرمينية والجزيرة.

(36) وجّه عياض صفوان بن المعطل وحبيب بن مسلّمة الفهري إلى سميساط، وغلبا على قرى وحصون من قراها وحصونها، فصالحا أهلها على مثل صلح أهل الرُّها. (البلاذري، فتوح البلدان، 1:207).



35 هـ

مات قسطنطين، وقام قوسطنطينوس آخر سبعاً وعشرين سنة. قسطانز الثاني (642 - 668 م).

سنة 967 ي

656 م

36 هـ

مات عثمان خليفة المسلمين[37]، ووقعت فتنة بين المسلمين، وكثرت الشرور في الأرض وسُفكت دماء كثيرة بين بعضهم البعض، وسبب ذلك عدم اتفاقهم على خلافة أحدهم، وكان الطامعون في الخلافة كُثُر، أحدهم رئيس الجيش الذي بأرض المغرب[38] واسمه معاوية أراد أن يملك، وكان أبناء المغرب يحبّونه، فبايعوه وقدّموا له الطاعة. وفي أرض المشرق[39]، والجزيرة سعى الناس إلى غيره وقدموا الطاعة لقائد الجيش هناك واسمُه عيسى[40] فبايعوه، ولهذا السبب وقعت

---

(37) جاء في مروج الذهب: «وقتل في ليلة الجمعة لثلاث بقين من ذي الحجة. وذكر أن أحد الرجلين كنانة بن بشر التجيبي ضربه بعمود على جبهته والآخر منهما سودان بن حُمْران المرادي ضربه بالسيف على حبل عاتقه فحلّه. وقد قيل إن عمرو بن الحمق طعنه بسهام تسع طعنات وكان فيمن مال عليه عمير بن ضابئ البرجمي التميمي، وخضخض سيفه في بطنه. (ج 2، ص 246)، ولدى اليعقوبي قتل عثمان لاثنتي عشرة ليلة بقين من ذي الحجة (ج 2: 176). وقال الطبري إنه قتل يوم الجمعة لثماني عشرة ليلة مضين من ذي الحجة سنة 35 هـ (122:5).

(38) المقصود بأرض المغرب بلاد الشام الكبرى.

(39) أرض المشرق، العراق وبلاد فارس.

(40) ليس عيسى إنما هو عليّ بن أبي طالب ابن عم الرسول وزوج ابنته فاطمة.



بينهما الحرب وسفكت الدماء لخمس سنوات[41].

سنة 968 ي

657 م

37 هـ

حدثت حرب بين أتباع معاوية وعيسى (علي) وسُفكت دماء كثيرة من الطرفين.

سنة 974 ي

622 م

42 هـ

قُتل عيسى (علي) بالكوفة يوم الجمعة[42] وقت الصلاة وهو راكع يصلي واستلم معاوية زمام الحكم وحده[43]. ودام حكمه واحدةً وعشرين سنة من ضمنها خمس سنوات الفتنة التي حدثت بينه وبين عيسى (علي).

سنة 976 ي

(41) من أهم المعارك بين الطرفين معركة صِفّين التي انتصر فيها معاوية وكانت الفاصلة وأدت إلى تأسيس الدولة الأموية في الشام.

(42) يقول الطبري: يوم الجمعة قتل علي سنة 40 هـ وقتله ابن ملجم وكان من أهل مصر... (**تاريخ الأمم والملوك**، 6 : 83 – 85).

(43) جاء لدى الطبري أنه بويع لمعاوية سنة 41 ه لخمس بقين من شهر ربيع الأول، بعد أن بايعه الحسن بن علي بن أبي طالب. (**تاريخ الأمم والملوك**، 6: 181).



665 م

45 هـ

مات القدّيس مار ثاودورا بطريرك أنطاكيا وقام بعده القدّيس مار ساويرا بن مشقا[44] وفي الرُّها نصب القدّيس يعقوب خلفاً لقوريقا.

وفي هذا الزمن اشتهر هارون الفارسي المترجم.

سنة 988 ي

677 م

58 هـ

مات معاوية خليفة المسلمين[45]، وخلفه يزيد[46] ثلاث سنوات ونصف.

---

(44) هو ساويرا الثاني تربى في دير أسفولس برأس العين وسُقّف على آمد سنة 668. رسم بطريركاً بوضع يد يوحنا الطرطوسي ضد القوانين البيعية ولم يكن محمود السيرة من حيث إنه أوقد نار الشحناء والفتنة في الشعب محاولاً قضاء وطره بواسطة الجنود وثارت خصومة بينه وبين المطارنة سركيس الزاخوني وجبرائيل الراس عيني وحنانيا القرتميني لأنه أنكر عليهم أن يرسموا أساقفة لأبرشياتهم حسب القوانين القديمة وادّعى بأن بطاركة اليعاقبة أبطلوها منذ انفصالهم في المجمع الخلقيدوني ورام عقد مجمع فيه حرمه أساقفته وأسقطوا اسمه من الدبتيخا فقطعهم هو أيضاً. ولبثوا هكذا أربع سنوات ولما احتضر كتب إلى يوحنا المفريان أن «حلّهم متى ارعووا» فصحّ ذلك بعد وفاته سنة 680 وقبلوا الرسامات التي جرت بواسطته. (**الزهرة الذكية**، ص 37، رقم 63).

(45) يذكر الطبري أن معاوية مات ليلة الخميس للنصف من رجب سنة 60 هـ وكانت خلافته تسع عشرة سنة وثلاثة أشهر وسبعة وعشرين يوماً... (**الأمم والملوك**، 6: 180-181).

(46) بويع ليزيد بن معاوية بالخلافة بعد وفاة أبيه للنصف من رجب. وقيل وَلِي يزيد في هلال رجب سنة 60 هـ. (اليعقوبي، 2:241) (**الأمم والملوك**، 6:188).



سنة 990 ي

679 م

60 هـ

في اليوم الثالث من شهر نيسان/ أبريل وصادف نهار الأحد حدث خوف عظيم أجهضت فيه الحوامل في سَروج وتهدمت كنيسة الرُّها الكبرى ومات فيها خلق كثير.

سنة 992 ي

681 م

61 هـ

مات يزيد خليفة العرب[47]، وحكم بعده مروان سنة واحدة[48].

وفي نفس السنة مات الملك قوسطنطينوس ملك الروم. وقام بعده قوسطنطينوس آخر عمره عشر سنوات.

سنة 993 ي

682 م

(47) مات يزيد بقرية من قرى حمص يقال لها حوّارين من أرض الشام لأربع عشرة ليلة خلت من ربيع الأول سنة 64 هـ وهو ابن ثمان وثلاثين سنة... (**الأمم والملوك**، 15:7).

(48) في الحقيقة بعد يزيد بن معاوية ولي الخلافة معاوية بن يزيد الذي بويع له بالخلافة. ولم يمكث إلّا أربعين يوماً ومات، وقيل ثلاثة أشهر (**الأمم والملوك**، 7: 16-17).



62 هـ

مات مروان خليفة العرب[49] وخلفه عبد الملك[50]، وحكم واحدة وعشرين سنة وفي أيامه حدثت فتنة دامت تسع سنين لعدم اتفاق المسلمين على خليفة واحد، وخلال السنوات التسع هذه حدثت الحرب الضروس وكَثُر الشغب[51].

سنة 994 ي

683 م

64 هـ

مات القدّيس مار ساويرا بن مشقا وبقي كرسي البطريركية شاغراً مدة خمس سنين من دون أُسقف (بطريرك).

سنة 999 ي

688 م

69 هـ

نصّب القدّيس أثناسيوس بطريركاً[52].

---

(49) كانت أيام ملكه تسعة أشهر وأياماً قلائل وقيل ثمانية أشهر... ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة (مروج الذهب، 3:89).

(50) بويع لعبد الملك بن مروان ليلة الأحد غرّة شهر رمضان من سنة 65 هـ. (مروج الذهب، 3:91).

(51) حدثت فتن كثيرة منها فتنة مصعب بن الزبير في العراق، وفتنة أخيه عبد الله بن الزبير في الحجاز قضى عليهما قضاء مبرماً.

(52) هو أثناسيوس الثاني. ولد في بلد (وتسمى شهراباذ على دجلة فوق الموصل =



سنة 1002 ي

691 م

72 هـ

حدث السلام وقدم الجميع الطاعة لعبد الملك واستتب له الحكم[53].

سنة 1003 ي

692 م

73 هـ

صنع عبد الملك تعديلاً في نظام الجزية[54] على السريان وأصدر أمراً قطعياً أن يذهب كلّ شخص إلى قريته أو مدينته ومسقط رأسه عند

= بينها سبعة فراسخ وتبعد عن نصيبين 23 فرسخاً) وقرأ العلوم في قنسرين مع زميليه يعقوب الرُّهاوي على ساويهابوخت. وسنة 684 وهي الرابعة لفراغ الكرسي سمي بطريركاً في دير أسفولس برأس العين بوضع يوحنانيا مطران مارِدِين وكفرتوث وكانت مدة رئاسته ثلاث سنوات. وتُوفي عام 688 واشتهر باضطلاعه بأصناف العلوم وفسّر غريغوريوس النازينزي وساويرا الأنطاكي وكتاباً في الفلاسفة ورسائل وصلوات. (**الزهرة الذكية**، ص 38 رقم 64).

(53) قال المسعودي: وسار عبد الملك من دير الجاثليق حتى نزل النخيلة بظهر الكوفة فخرج إليه أهل الكوفة فبايعوه، ووفّى الناس بما كان وعدهم به في مكاتبته إياهم سراً، وخلع، وأجاز، وأقطع، ورتب الناس على قدر مراتبهم، وعمّهم ترغيبه وترهيبه، وولّى على البصرة خالد بن عبد الله بن خالد بن أسد، وعلى الكوفة بشر بن مروان أخاه، وخلف معه جماعة من أهل الرأي والمشورة من أهل الشام منهم روح بن زِنْباع الجُذامي وبعث الحجاج بن يوسف لحرب ابن الزبير في مكة وسار في بقية أهل الشام إلى دار ملكه بدمشق. (**مروج الذهب**، 110:3).

(54) يذكر الطبري أنه في سنة 76 هـ أمر عبد الملك بنقش الدنانير والدراهم.. كما ذكر الواقدي أن عبد الملك هو أوّل من أحدث ضربها... (**الأمم والملوك**، 242:7).



والديه ويكتب كلّ واحد باسمه وابن من هو وما لديه من أملاك من أبناء وكروم وأموال. ومنذئذٍ بدؤوا باستيفاء الجزية على رؤوس الرجال بعد أن كانت تستوفى من الملوك.

سنة 1014

703 م

84 هـ

مات عبد الملك خليفة المسلمين[55]، بعد أن حكم واحدة وعشرين سنة من ضمنها تسع السنوات التي قامت فيها الفتنة.

سنة 1015 ي

704 م

85 هـ

مات القدّيس أثناسيوس بطريرك أنطاكيا وخلفه القدّيس ما يولينا[56].

---

(55) ويقول الطبري: إن عبد الملك بن مروان مات بدمشق يوم الخميس للنصف من شوال سنة 86 هـ فكانت ولايته منذ يوم بويع إلى يوم توفي 21 سنة وشهراً ونصفاً. قاتل في تسع سنين منها عبد الله بن الزبير. (**الأمم والملوك**، 56:7) ويقول المسعودي: توفي عبد الملك بن مروان بدمشق يوم السبت لأربع عشرة يوماً مضت من شوال سنة 86 هـ وكانت ولايته منذ بويع إلى أن توفي 21 سنة وشهراً ونصفاً. (**مروج الذهب**، 91:3).

(56) وعام 688 نصب يوليان الثالث وكان عسكرياً رومياً ولذا يدعى يوليان الرومي، ترهب في دير قنسري ورسم بطريركاً في ديار بكر بواسطة أثناسيوس السَروجي سنة 688 م. وأصابه جنحا المفريان وبعض المطارنة بعظيم أذى فتغلب عليهم ودحض المفريان وسمى باخوس بدله ودبّر الطائفة 21 سنة وتوفي سنة 709. (**الزهرة الذكية**، ص 39 رقم 65).



سنة 1016 ي

705 م

86 هـ

حدث وباء شديد في الأرض، حتى إن الناس لم يكونوا يخرجون الموتى واشتد خاصة في منطقة سَروج. ومات بهذا الوباء من دير مار شيلا اثنان وسبعون شخصاً.

سنة 1008 ي

697 م

78 هـ

مات الملك قوسطنطينوس وخلفه يوسطانينا عشر سنوات.

سنة 1017 ي

706 م

88 هـ

اجتمع المجمع في دير مار شيلا وترأسه يولينا البطريرك وحضره توما الآمدي ويعقوب الرُّهاوي مفسّر الكتب. واشتهر بهذا الزمن مار يعقوب أُسقف الرُّها.

سنة 1018 ي

707 م



89 هـ

مات يوسطانينا ملك الروم وقام بعده لونكينس وحكم أربع سنوات.

سنة 1019 ي

708 م

90 هـ

مات القدّيس مار يولينا بطريرك أنطاكيا وخلف مار إيليا[57].

سنة 1020 ي

709 م

91 هـ

حدث تعديل آخر أضيف على الأول وازداد فيه الشرّ والشغب.

سنة 1021 ي

710 م

92 هـ

(57) هو إيليا الذي تربى في دير الجب الخارجي ثم تسقّف 18 سنة على فامية (أو أفامية مدينة في ما بين النهرين وهي غير أفامية التي أطلقت على حماة) ثم ندب إلى البطريركية سنة 709 وواجه الوليد بن عبد الملك وحظي لديه. وتوجه إلى أنطاكيا بمعية بعض الأكليروس والرهبان ودشن كنيسة كان شيدها بسعيه سنة 722. كرّس كنيسة أخرى في سرمدا بأنطاكيا وطالت مدة رئاسته 14 سنة وتوفي في ديره يوم 3 تشرين الأول/ أكتوبر سنة 723 وعمره اثنتان وثمانون سنة. (الزهرة الذكية، ص 39 رقم 66).



مات القدّيس مار يعقوب أُسقف الرُّها[58]. وقام بعده مار حبيب.

وفي هذا الزمن اشتهر مار توما الأسطواني في تللا.

سنة 1022 ي

711 م

93 هـ

مات لونطينس ملك الروم وخلفه طيبريوس أفسيمروس سبع سنوات.

سنة 1023 ي

712 م

94 هـ

مات الوليد خليفة العرب[59] (المسلمين) وخلفه سليمان وحكم

(58) ولد يعقوب الرُّهاوي قرب أنطاكيا وعُيّن مطراناً للرُّها نحو سنة 684 إلا أنه غضب سنة 687 على الرخاوة التي فسرت بها قوانين الكنيسة فاستقال من منصبه بعد أن أحرق علانية نسخة من الأنظمة الأكليريكية وانعزل إلى حياة الرهينة واستُدعي ثانية إلى كرسي أبرشية الرُّها سنة 708 ولكنه تُوفي بعد أربعة أشهر فقط من رجوعه. (سيغال، **الرُّها**، ترجمة يوسف إبراهيم جبرا، ص 260).

(59) بويع الوليد بن عبد الملك بدمشق في اليوم الذي تُوفي فيه عبد الملك، وتوفي بدمشق للنصف من جمادى الآخرة من سنة 96 هـ فكانت ولايته تسع سنين وثمانية أشهر وليلتين. وهلك وهو ابن 43 سنة. (**مروج الذهب**، 156:3) وذكر الطبري أن وفاة الوليد يوم السبت في النصف من جمادى الآخرة سنة 96 هـ. وقيل غير ذلك. وقال إن ولاية الوليد استمرت تسع سنين وسبعة أشهر.. وغير ذلك من الآراء. (**الأمم والملوك**، 97:7).



سنتين ونصف[60].

سنة 1024 ي

713 م

95 هـ

مات القدّيس مار توما أُسقف آمد وخلفه مار ثاودوطا.

بعد أفسيمورس ملك الروم حكم يوسطنينا ستّ سنوات، وبعده حكم فيلفيقوس ثلاث سنوات، وبعد هذا حكم أنسطوس سنتين، وبعده حكم ثاودسيس قوسطنطينوس سنة واحدة، وهو الذي كان حاكماً لدى دخول مسلّمة بيت رومايا. هذه السنوات الاثنتا عشرة من سنيّ ملوك الروم هي التي قيل فيها إن واحداً كان يزيد والآخر ينقص. كما أن المسلمين أيضاً لم يكونوا يؤرّخون إلّا الأشهر القمرية، وليس كالسريان الذين كانوا يؤرّخون بالأشهر الشمسية. وحاول بعض المؤرّخين تسجيل أخطاء حساب الأيام التي جلس فيها الملوك على العروش إذ كانوا يعتبرونها أوّل التقويم لتلك السنين؛ ولهذا حدثت اضطرابات عديدة في التاريخ ليس عندي فقط إنما عند الآخرين ولهذا لا أريد أن أقلق فكر القارئ، في هذا الفصل، بهذه السنين.

---

(60) بويع سليمان بن عبد الملك بدمشق في اليوم الذي كانت فيه وفاة الوليد وذلك يوم السبت للنصف من جمادى الآخرة سنة 96 هـ، وتوفي سليمان بمرج دابق من أعمال جند قنسرين يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة تسع وتسعين فكانت ولايته سنتين وثمانية أشهر وخمس ليال. وهلك وهو ابن تسع وثلاثين سنة (**مرج الذهب**، 173:3). ويقول الطبري: توفي سليمان بدابق من أرض قنسرين يوم الجمعة لعشر ليال بقين من صفر، وقيل: كانت خلافته سنتين وتسعة أشهر وقيل سنتين وثمانية أشهر وخمسة أيام... (**الأمم والملوك**، 126:7).



سنة 1028 ي

717 م

99 هـ

دخل مسلّمة[61] إلى بيت روما يا[62]، وكانت عندئذ جيوش كثيرة من المسلمين قد تجمعت فيها واستعدوا لدخول أرض الروم فهرب سكان جميع بلاد آسيا وقفادوقيا[63] من أمامهم نحو البحر الأسود ولبنان حتى ملطية[64]. وعلى نهر أرسينس[65]، حتى أرمينية الداخلية. وكانت هذه البلاد آهلة بالسكان وكثيفة بالزروع والكروم والأشجار المثمرة فخربت كلّها ولم يعد يسكنها أحد.

---

(61) مسلّمة هذا هو ابن عبد الملك بن مروان (البلاذري، **فتوح البلدان**، 1:178).

(62) بيت روما يا هي بلاد الروم وهي بلاد واسعة في شمال الشام وهي تركيا اليوم. (انظر عن فتوحها في البلاذري، **فتوح البلدان**، 1:27، 127 – 284). ويذكر أنه لما كان مسلّمة غازياً للروم من نحو الثغور الجزرية، عسكر ببالس فأتاه أهلها وأهل بدليس وقاصرين وعابدين وصفين وهي قرى منسوبة إليها. (البلاذري، **فتوح البلدان**، 1:178).

(63) قبدوقيا، اسم أطلق قديماً على البلاد الواقعة غربي تركيا الآسيوية (الأناضول) قاعدتها قيسارية.

(64) مَلَطْيَة: بفتح أوّلها وثانيها وسكون الطاء وتخفيف الياء، والعامة تقولها بتشديد الياء وكسر الطاء، هي من بناء الإسكندر وجامعها من بناء الصحابة. بلدة من بلاد الروم مشهورة تتاخم الشام وهي للمسلمين. قال خليفة بن خياط في سنة 140 هـ وجّه أبو جعفر المنصور عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام لبناء ملطية فأقام عليها سنة حتى بناها وأسكنها الناس وغزا الصائفة (ذكرها المتنبي وأبو فراس الحمداني في قصائدهما). (**معجم البلدان**، 8:150).

(65) في المعجم أَرْسَناس: بالفتح ثم السكون وفتح السين المهملة ونون وألف وسين أخرى، اسم نهر في بلاد الروم يوصف ببرودة مائه عبره سيف الدولة الحمداني ليغزو، فقال المتنبي يمدح سيف الدولة ويصف خيله:

حتّى عبرنَ بأرناس سوابحاً ينشرنَ فيه عمائمَ الفرسان

(انظر **معجم البلدان**، ج 1، ص 192)



أما الملك فعندما شاهد كلّ هذا الخراب، وأن قائد جيوشه قد استسلم للأعداء خاف قلبه وارتجفت مفاصله فتنازل عن العرش وألقى تاج المملكة عن رأسه وحلقه - إذ كانت العادة عند ملوك الروم إذا تنازلوا عن الملوكية حلقوا رؤوسهم وجلسوا في بيوتهم - وهكذا أصبح وحيداً لا أحد معه رغم أن لاون قائد الجيش شجع نفس الملك قائلاً له: لا تخف، إلّا أنه لم يسمعه، بل أصرّ، وتنازل عن المملكة.

وأما عن لاون فإنه كان رجلاً شجاعاً ومقاتلاً بطلاً، ومن أصل سرياني من هذه الديار، ولأجل شجاعته أقيم قائداً لجيوش الروم، ومن فرط حكمته لم يرضَ أن تشرب الأرض دماء الأبرياء، إذ اتفق مع مسلّمة وأخذ منه عهداً بأن يتركه يدخل القسطنطينية من دون قتال. ولما كان واثقاً من العهد لم يقاتل ولم ينهب أحداً، إلّا أنه سار بقوة واستقامة نحو القسطنطينية وضرب خيامه حولها.

إلّا أن لاون لما دخل القسطنطينية ورأى خوف الروم والملك قد تنازل عن العرش شجّعهم وقال لهم: لا تخافوا ولا تيأسوا، ولما رأى الشعب شجاعته أقاموه ملكاً فلمّا لبس التاج، لبس معه ثوب القوة والشجاعة، فجدد بناء سور المدينة وأرسل عساكر وقطع الطريق المؤدية إلى العساكر القادمة من سورية وكذلك قطع معابر السفن وكسرها فأصبح المسلمون وجيوشهم بشبه سجن مطوّقين من كلّ جانب. فأمر مسلّمة بفرس الكروم إذ وقع فيهم جوع عظيم من جراء نفاد الميرة معهم فأكلوا حيواناتهم ومواشيهم، وكان مسلّمة يسأل لاون دائماً كيف أن عناية الله شاءت أن يدخل القسطنطينية ويصبح ملكاً من دون قتال، فيجيبه لاون وبكلّ لطافة: انتظر بضعة أيام حتى يقدم لي الطاعة جميع أكابر المملكة وعظماؤها.



وكان مسلّمة يطالب لاون يومياً أن أعطني ما وعدتني به أو القتال بيننا. في هذه الأثناء ورد الخبر بموت سليمان الخليفة بن عبد الملك وحكم بعده عمر[66]. الذي أرسل رسالة مفادها أن فُكّوا الحصار وارجعوا من هناك لئلا يفنيكم الجوع. حينئذ طلب مسلّمة من لاون أن يسمح له بدخول القسطنطينية ويرى معالمها فدخلها ومعه ثلاثون فارساً، ومكثوا فيها ثلاثة أيام يتجوّلون في شوارعها وأسواقها وبعد هذا تركوها آمنين.

وإذ اقتربوا من إحدى المدن المسمّاة طُوانة[67]، ورآهم واليها أنهم منهكون من الجوع والتعب شرع يهزأ بهم وأرسل إلى لاون أن أرسل إلي عساكر لأقاتلهم خفية، غير أن هذا التدبير لم يخفَ على المسلمين الذين شعروا بالجيش الذي يسير وراءهم، فطلب واحد من قادة الجيش أمراً من رئيسه مسلّمة واسمه عيسى وكان من مشاهير الفرسان قائلاً: أعطني جيشاً لأقاتلهم قبل أن يلحقوا بنا ويقضوا علينا فتكون آخرتنا أسوأ ما حدث لنا في هذه الطريق، فأخذ جيشاً وخرج للقائهم، فبينما هم سائرون من غير استعداد للقتال فاجأهم عيسى بجيشه إذ نزل على مرج واسع

---

(66) يقصد به الخليفة عمر بن عبد العزيز.

(67) في معجم البلدان طُوانة بضم أوله وبعد الألف نون. بلد بثغور المصيصة. قال يزيد بن معاوية:

وما أبالي بما لاقت جموعهم ... يوم الطُّوانة من حمّى ومن موم
وإذا اتكأْتُ على الأنماط مرتفقاً ... بدير مرّان عندي أم كلثوم

وكان المأمون لما قدم الثغر غازياً أمر أن يسوّر على الطوانة قدر ميل في ميل وعينه مدينة وهيأ له الرجال والمال فما تبعد شروعه بقليل فبطلّه المعتصم.

قال الزبير، كتب مسلّمة بن عبد الملك وهو غاز بقسطنطينية إلى أخيه الوليد:

أرقت وصحراء الطوانة بيننا ... لبرق تلألأ نحو غمرة يلمحُ
أزاول أمراً لم يكن ليطقيه ... من القوم إلا اللوذعي الصحصحُ

(**معجم البلدان**، 6: 56-66).

ولقد غزا الطُوانة مسلّمة بن عبد الملك ومعه ميمون الجرجماني وهو على ألف من أهل أنطاكيا فاستشهد بعد بلاء حسن وموقف مشهود. (البلاذري، **فتوح البلدان**، 1: 190).



ووضع الجيش في كمائن حول المرج، فلمّا قدم جيش الروم وجلس بالمرج للراحة من عناء الطريق وأطلقوا مواشيهم للرعي كما هي العادة، خرج المسلمون من كمائنهم وأحاطوا بالمرج وهجموا عليهم بحسب الاتفاق الذي كان كلمة السر بينهم وقتلوهم على بكرة أبيهم بحد السيف وكان عددهم ما يقارب الستين ألفاً. ومن ثم غنموا عتاد المقتولين ورجعوا إلى رفاقهم منتصرين.

كما وإن جيشاً آخر للروم كان وراء الجيش الأول لما سمع بما حلّ فيه رجع إلى الوراء خائفاً خائباً. أما المسلمون فكانوا يغنمون كلّ ما رأوه في طريقهم من عتاد وميرة حتى وصولهم إلى سورية مقرّهم.

سنة 1032 ي

721 م

103 هـ

وكانت السنة الأولى لخلافة عمر خليفة المسلمين[68]، والسنة الرابعة للاون ملك الروم، خرج مسلّمة[69] من بيت روما يا وكان قد خرّب الأرض التي بين الحدود بكاملها حتى إنه أرغم سكانها على الهجرة منها

---

(68) استُخلف عمر بن عبد العزيز يوم الجمعة لعشر بقين من صفر سنة 99، وهو اليوم الذي مات فيه سليمان، وتوفي بدير سمعان من أعمال حمص مما يلي بلاد قنسرين يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة 101 هـ فكانت خلافته سنتين وخمسة أشهر وخمسة أيام وقبض وهو ابن 39 سنة وقبره مشهور في هذا الموضع لم يتعرض لنبشه فيما سلف من الزمان كما تعرضت قبور غيره من بني أمية. (**مروج الذهب**، 3: 182. الأردي، **تاريخ الموصل**، ص 54). ويقول الطبري: «استخلف عمر بن عبد العزيز بدابق يوم الجمعة لعشر مضين من صفر سنة 99هـ». (**الأمم والملوك**، 8: 128، اليعقوبي، 2: 301).

(69) يقصد مسلّمة بن عبد الملك الآنف الذكر.



وجعلها كبرّيّة جرداء. ولئلا نطيل الكلام؛ تركت كثيراً من الحوادث التي جرت في طريق الحملة[70].

وفي هذا الزمن اشتهر إيليا البطريرك ومار حبيب الرُّهاوي وشمعون الحرّاني، وثاوديطا الآمدي.

«خبر المعجزة التي حدثت بيد القدّيس مار حبيب أُسقف الرُّها».

في هذا الزمن الذي يُقضى فيه كتمان أسرار الملوك، ينبغي عن معجزات الله أن يُنادى بها والإعلان عنها في كلّ ساعة ولجميع الناس، وهذا ليس بغريب أو ثقيل لدى القارئ أو السامع، والمعجزة التي صنعها الله في أيامنا هي: إن رجلاً من المسلمين أراد الدخول إلى أرض الروم فنزل بدير مار هابيل في الرُّها، ولما رأى بوّاب الدير متواضعاً حليماً يتقي الله ومزيناً بالفضائل، سلّم له ذهباً كثيراً قائلاً: احفظ لي هذا، فإن رجعتُ حياً أخذته، وإن علمت أنني متّ ففرقه على المحتاجين وسافر من هناك. أما الراهب العفيف فلما استلم الذهب قام لوقته وحفر في الأرض وطمره ولم يشعر بذلك أحداً.

وبعد ثلاث سنوات شرع المسلمون بالخروج من بيت روميا (الأناضول) وكذلك البوّاب خرج من الدنيا الفانية إلى الباقية ولم يخبر بالسرّ الذي بينه وبين المسلم المؤمن. وتكاملت الأيام فقدم ذلك

---

(70) وبلغ عمر ما فيه مَن في بلاد الروم مع مسلّمة من الضرر والفاقة، فوجَّه عمرو بن قيس على الصائفة، ووجه معه الكساء والطعام والأعطية لمن كان مع مسلّمة من المسلمين، ووجّه حاتم بن النعمان الباهلي، فأوقع بالترك، فلم يفلت منهم إلا الشريد، وقدم على عمر منهم بخمسين أسيراً، فقال رجل من المسلمين لعُمر في أسير منهم: لو رأيت هذا، يا أمير المؤمنين، يقتل المسلمين، لرأيت قتالاً ذريعاً فقال: قم فاضرب عنقه. (اليعقوبي، 2: 302).



الإنسان إلى الدير وسأل عن الراهب فقالوا له إنه قد مات. أما هو فطالب الرهبان بالمال الذي تركه عنده. فأجابوه: إننا لا نعلم بهذا الأمر، ولا ندري أين وضعه إذ لم يخبرنا به وبسرّه. أما الرجل، وكان من سَراة القوم، فهدد الرهبان بتخريب الدير وتدميره إن لم يعطوه المال، ورفع الأمر إلى الحاكم. فدعا الحاكم الرهبان وقضى عليهم بأن يبيعوا كلّ شيء في الدير ويدفعوا ما بذمة الراهب المُتوفّى حتى إن اقتضى الأمر بيع عدد من الرهبان بسوق النخاسة. فلما استمع الشعب هذا الحكم القاسي الذي صدر على الرهبان الأتقياء استحوذ عليهم حزن شديد من أن يباع إخوتهم أو بنوهم للعبودية لدى الغرباء. إلّا أن الأُسقف الوقور مار حبيب (أُسقف الرُّها) لما رأى إخوته سيباعون حزن حزناً شديداً وقصد الدير متضرعاً لدى الرجل أن يمهله بعض الوقت ريثما يجمع المال من الكورة كلّها. وكان بمعيّته خلق كثير من سكان المدينة ورؤسائها. غير أن الرجل رفض وأبى إلّا أن يأخذ ماله وإلا فسوف يسلّمهم للعبودية غير ملتفت لتضرعاتهم وتذللهم. ولما ضاقت السبل بالقدّيس مار حبيب، لبس سلاح الإيمان الحقيقي الذي قال عنه سيده وسار على خطواته، ومثلما سأل في بيت عنيا أين هو لعازر؟ وأين هو موضوع؟ أخذ المبخرة والبخور وذهب إلى قبر ذلك الراهب ولم يدع أحداً أن يرافقه. ولما وقف إزاء القبر ركع وصلّى وقدّم البخور ومن ثم بكى بكاء مرّاً أمام مخلّصه، ووقف على باب القبر وبإيمان ثابت صرخ قائلاً: فلان قم باسم الربّ. ومع لفظته هذه وقف الراهب أمامه وكأنه لم يدخل القبر لحظة واحدة. ثم قال له: يا بني قل لي هل ترك السيد فلان أمانة عندك عندما كان ذاهباً إلى بيت رومايا؟ أجاب الراهب: نعم يا سيدي. قال: كم مقداره؟ قال: كذا ألف من الأمنان. قال: وأين هو؟ أجابه: إنه مطمور عند باب الدير تحت المصطبة الفلانية، فإذا أُمرت اذهب وأعطه له. وسأله أيضاً هل أنت في هذا الدير حتى تعرف ما به، وإلّا أين أنت؟ قال: لا يا سيدي الطاهر.



قال له: لم تصل بعد قيامة الموتى فاسترح الآن حتى يرمز عليك سيدك فتقوم مع الطاهرين. ومن ساعته رجع إلى قبره. أما الأُسقف القدّيس لما عرف كلّ شيء من الراهب الميت رجع وأمر بأن يأتوا بفأس وحفر في المكان الذي أشار إليه الراهب بعد أن هدم المصطبة، وما هي إلّا برهة حتى عثروا على الذهب بأكمله، كما سلّمه صاحبه أولاً، فأعطوه لصاحبه وصار فرح بالكورة كلّها ومجّدوا اسم الربّ إذ خلّص الدير من الهلاك.

سنة 1034 ي

723 م

105 هـ

مات عمر بن عبد العزيز خليفة المسلمين بعد أن حكم سنتين وأربعة أشهر. وخلفه يزيد أربع سنوات[71].

سنة 1035 ي

724 م

106 هـ

أمر يزيد أن تمزّق جميع الصور أينما وجدت في الكنائس والأديرة

(71) وملك يزيد بن عبد الملك في اليوم الذي توفي فيه عمر بن عبد العزيز وهو يوم الجمعة لخمس بقين من رجب سنة 101 هـ ويكنّى أبا خالد وأمه عاتكة بنت يزيد بن معاوية بن أبي سفيان. وتوفي يزيد بن عبد الملك بإربد من أرض البلقاء من أعمال دمشق يوم الجمعة لخمس بقين من شعبان سنة خمس ومائة وهو ابن سبع وثلاثين سنة. فكانت ولايته أربع سنين وشهراً ويومين. (**مروج الذهب**، 3: 195) وكان يلقب بيزيد الفتى. وكانت بيعته يوم مات عمر بن عبد العزيز. (الأزدي، **تاريخ الموصل**، ص 5).



والمعابد وحتى في البيوت الخاصة[72]، وهكذا خرج عمّاله وكسروا جميع الصور حيثما وجدوها من دون تمييز.

سنة 1036 ي

725 م

107 هـ

أمر يزيد بقتل الكلاب البيضاء، والحمام، وديوك الدجاج البيضاء أيضاً، ثم أصدر أمراً شديداً على الحيوانات الصامتة وهو القتل، حتى أنتنت الجثث في شوارع وأسواق المدن والقرى. وكانت هذه الشريعة، عكس شريعة الخالق الذي قال: «أُنموا وأكثروا واملؤوا الأرض بركة». أما هم فأرادوا القضاء عليها قاصدين مقاومة الخالق الذي صوّرها بإرادته، وترك العالم يسير بحسب مشيئته... ثم أمر يزيد بقتل جميع الناس الاسمانجونيين (السمر وعوج العيون) غير أن هذا الأمر لم يُنفّذ إذ تدخل أناس أتقياء بالقضية وحسموها بالتي هي أحسن؛ ثم أصدر أمراً بأن لا تُسمع شهادة النصراني على المسلم، ثم جعل فدية الرجل المسلم (ديّته) اثني عشر ألفاً، وديّة الرجل النصراني ستة آلاف، ومنذئذ أخذت تلك الأوامر تسري في الشعب، بعد أن استعيض عن قطع يد السارق بقطع فديته، وهذه ذمها المسلمون كثيراً وذموا واضعيها[73].

---

(72) وكان يزيد مولعاً بالنساء والغناء واللهو والشرب. فقال يوماً: وقد طرب وعنده حبابة وسلامة – دعوني أطير. فقالت حبابة، لمن تدع الأمة. (الأزدي، **تاريخ الموصل**، ص 18 – 20).

(73) كتب يزيد إلى عمر بن هبيرة، وهو عامل على العراق، يأمره أن يمسح السواد فمسحه سنة 105 هـ ولم يُمسح السواد منذ مسحه عثمان بن حنيف في زمن عمر بن الخطاب حتى مسحه عمر بن هبيرة، فوضع الخراج على النخل والشجر، وأعاد السُّخر والهدايا وما كان يؤخذ في النيروز والمهرجان والمساحة التي يؤخذ بها مساحة ابن هبيرة. (اليعقوبي، 2: 313).



سنة 1038 ي

727 م

109 هـ

مات يزيد[74]، وكان له أمراء في الجزيرة، الأول أبو زين وأُقصي هذا فجاء مرداس، ثم أُقصي مرداس وأُعيد أبو زين.

سنة 1039 ي

729 م

110 هـ

حكّم المسلمون خليفة عليهم هشام بن عبد الملك، وحكم تسع عشرة سنة وأربعة أشهر[75].

سنة 1040 ي

729 م

111 هـ

(74) توفي يزيد بن عبد الملك لخمس بقين من شعبان وكانت وفاته بإربد من الأردن، وكان منزله بالبلقاء من دمشق. وكان تأميره أربع سنين ويوماً. وكان عمره ثمانية وثلاثين عاماً (الأزدي، **تاريخ الموصل**، ص 18).

(75) بويع هشام بن عبد الملك في اليوم الذي توفي فيه أخوه يزيد بن عبد الملك وهو يوم الجمعة لخمس بقين من شوال سنة خمس ومائة وقبض يزيد وله يومئذ ثمان وثلاثون سنة وقيل أربعون سنة، وتوفي هشام بن عبد الملك بالرُّصافة من أرض قنسرين يوم الأربعاء لستٍّ خلين من شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة، وهو ابن ثلاث وخمسين سنة فكانت ولايته تسع عشرة سنة وسبعة أشهر وإحدى عشرة ليلة (**مروج الذهب**، 3: 205) يقول الطبري: «استخلف هشام بن عبد الملك لليال بقين من شعبان منها وهو يوم استُخلف ابن أربع وثلاثين سنة وأشهر. (**تاريخ الأمم والملوك**، ج 8، ص 180).



مات القدّيس مار حبيب أُسقف الرُّها وخلفه قوسطنيطينا. وفي هذا الزمن اشتهر القدّيس مار إيليا البطريرك وشمعون الحرّاني. وقوسطنطينا الرُّهاوي وثادوطا الآمدي، وكان القدّيس ثادوطا أُسقف آمد هذا قد نشأ في مسكن الفضائل الرهبانية؛ فاشتاقت نفسه إليها، وكان رجلاً لطيفاً وهادئاً ذا أخلاق وطباع مستقيمة، فتنازل عن الأسقفية وترك كرسيّه وخرج من آمد قاصداً إقليم دارا فأقام بينها وبين آمد على الحدود. وبنى عموداً له وصعد فوقه شبه توما الذي في تللا، كما بنى هناك ديراً (قائماً حتى الآن) بجانب قرية تدعى قلّوق وهناك أكمل حياته، وخلفه الأُسقف القدّيس مار قوسما. ثم إن القدّيس مار قوسما هذا، كان راهباً غيوراً متحلياً بجميع الفضائل، وصانع المعجزات كإيليا الذي من تشبي (السبا) وكالرسل الأوائل، يوبخ الكبير كالصغير؛ لذا لم يكن محبوباً لدى رؤساء المدينة إذ كان يوبخهم جهراً من دون مراعاة بسبب الأعمال التي كانوا يقترفونها، فلم يكونوا يجرؤون على الوقوف أمامه ويخشون أن يلعنهم، فافتعل هؤلاء إضراباً بينهم وبين القرويين بأن لا يقبلوه، ولما كان قد خرج للزيارة الرعوية شرعوا يشتمونه ويسبونه. ولما وصل – وهو لا يدري بالمكيدة التي نصبت للإيقاع به – إلى قرية تل أسود (تللا دكوم) قُرع الناقوس كالعادة فاجتمع الناس لكن هذه المرة ليس لاستقباله بل لطرده. وقبل أن يدركهم أرسلوا عجوزاً لتقول له حافظ على كرامتك واعبر الطريق إلى إقليم آخر لئلا تهان وتحتقر. (إن هؤلاء الأشقياء لا يعلمون أنهم في الظلام كانوا يسيرون. ولكي تتحقق كلمة المُخلّص لتلاميذه: من قبلكم قبلني ومن رفضكم رفضني، ومن لم يقبلكم فانفضوا غبار أرجلكم عليه ليكون شاهداً عليه في يوم الدين



ويكون راحة لسدوم وعامورة وليس لتلك المدينة). ولما علم الموقّر بنيّتهم من تلك العجوز، أمر تلميذه أن يغيّر اتجاه العجلة ويعبر الطريق إلى نحو جنوب القرية. أما أولئك الأشقياء - الذين تمت فيهم كلمة النبي القائل: «إن السفيه لا يعلم والجاهل لا يفهم» - فلم يكتفوا بخطيئة طرد الأُسقف من قريتهم، بل صعدوا على باب كنيستهم المبنيّة على علوّ واضح وشرعوا يستهزئون بالأُسقف، ينظرون إليه بسخرية بالغة. غير أن الأُسقف المؤمن عندما رأى وقاحتهم؛ عبر قريتهم نحو الجهة الشرقية، وأوقف العجلة هناك، ونزع حذاءه واتجه نحو القرية ونفضه عليهم قائلاً: يا أيّها الصنم سيحلّ عليك غضب الربّ إذا لم تقبل أُسقفك. ثم مشى بسرعة بالغة عبر القرية الشرقية المسماة "طرمل الكبير" وكان قادماً من الجهة الغربية في أوان موسم حصاد الشعير والسماء صافية خالية من أي قطعة غيم. إلّا أن القرية السيئة الحظ والتي صارت بساط إثم لأكابر تلك المدينة أدركها غضب الله لكي تبقى عبرة لكلّ الكورة يتذكرها الأجيال. فما إن دخل الأُسقف قرية طرمل، إذ تكاثفت الغيوم فوقها، وعقدت السحب القاسية في سمائها، وعصفتها رياح عاتية تُشقق الجبال، وهطل البَرَد عليها كالحجارة الصماء فقصف بيوتهم وكرومهم حتى كسَّر الأشجار، وأباد كلّ نبات أخضر، وجعل زروعهم كالغبار تتطاير، ولم يسلم حتى ما كدسوه من البذور والإثمار المحصودة ففقدوا رجاءهم بالحياة. فلما أبصر أولئك المستهزئون ما حدث جراء فعلتهم الذميمة انتهبوا إلى أنفسهم كمن أفاق من سبات عميق، وكالسكران الذي صحا من سكرته تذكروا ما فعلوه بحقّ أُسقفهم البار، وتحقق لديهم أن غضب الله عاجلهم فخرجوا كباراً وصغاراً وذهبوا حفاة عراة وبالبكاء والنحيب



المرير إلى القرية الأخرى التي نزل فيها الأُسقف فلما رآهم (شبه اليشاع مع الطفل) زحف إلى أطفال الفرات وتأثر من منظرهم الأليم خاصة وقد فقدوا جميع أملاكهم، فتحنن عليهم وصلّى لأجلهم طالباً لهم المغفرة والرحمة. ومنذئذ ألقى الله الخوف والفزع في جميع الإقليم وخاصة على أكابر المدينة البائسة. كما أنه من ذلك اليوم شرع الناس يخرجون لاستقباله بالدعاء والنشيد والفرح والغبطة.

بعد القدّيس مار إيليا البطريرك الأنطاكي خلفه القدّيس أثناسيوس[76].

سنة 1042 ي

731 م

113 هـ

دخل مسلّمة على باب بيت تركيا، وخرج أيضاً الهونيون مع الأتراك وصنعوا شروراً في أرض أرمينية وأراضي الشمال. فدخل عليها مسلّمة، بقوات عظيمة لا تحصى، فلما التقى الجمعان حدث بينهما قتال عنيف

(76) هو أثناسيوس الثالث، تربى في دير الجب الخارجي أيضاً عام 724م، خلف إيليا في دير قرتمين بوضع يد ثاودوسيوس الراسعيني وقيل بل تربى في دير مربازوارشم في الرّها بوضع يد جبرائيل مطرانها. وهو الذي هادن يوحنا جاثليق الأرمن الغريغوريين بعدما حصلت بينهما في ميافرقين وغيرها مجادلات سريانية وكان الفوز للسريان فذهب ستة أساقفة سريانيون عند يوحنا الجاثليق فقدّسوا وقرّبوا الأمن وعلى ذلك المنوال فعل الأرمن وقربوا السريان وكتب كلا الفريقين صكّاً بلغته فأودع الصّكّ السرياني لدى الأرمن والصّكّ الأرمني لدى السريان عربوناً للاتحاد وتمّ ذلك سنة 726م وهي سنة 135 للأرمن وخدم أثناسيوس خمس عشرة سنة وتوفي عام 740م. (الزهرة الذكية، ص 40 رقم 67).



سقط من الهون والأتراك على إثره خلق كثير ففزعوا ووقعوا عند قدمي مسلّمة فطلبوا منه السلام فأعطاهم وهو لا يدري مراوغتهم بذلك[77].

وفي هذه السنة هدم مسلّمة باب الأبواب[78] حيث وقع القتال مع الهون والأتراك وفيها سُجن أسراهم، ولئلا يهربوا في الأرض التزم بهدم الباب الذي هو في بيت تركيا الذي بناه الإسكندر المقدوني[79]، فأطلق أولاً أصحاب الجمال ثم بعدهم أصحاب الحمير وبعدهم الراجلين وكانوا يلقون ورائهم على طول الطريق الحسك والأشواك.

سنة 1043 ي

7312 ي

114 هـ

---

(77) ورد لدى الطبري أنه في سنة 110 هـ وقعت غزوة مسلّمة بن عبد الملك مع الترك إذ سار إليهم نحو باب اللان حتى لقي خاقان في جموعه فاقتتلوا قريباً من شهر وأصابهم مطر شديد فهزم الله خاقان فانصرف فرجع مسلّمة فسلك على مسجد ذي القرنين... (انظر **تاريخ الأمم والملوك**، ج 8، ص 196).

(78) سنة 109 هـ غزا مسلّمة الترك فأخذ عليهم باب اللان ولقي خاقان. (اليعقوبي، 2: 329) ويقول البلاذري: إن مسلّمة صالح أهل جيزان وأمر بحصنها فهدم... وصمد لمدينة الباب ففتحها، وكان في قلعتها أهل ألف بيت من الخزر فحاصرهم ورماهم بالحجارة ثم بحديد اتخذه على هيئة الحجارة فلم ينتفع بذلك... ثم فتحها بحيلة دبرها فهرب سكان القلعة، وأسكن مسلّمة بن عبد الملك مدينة الباب أربعةً وعشرين ألفاً من أهل الشام على العطاء... (البلاذري، **فتوح البلدان**، ج 1، ص 244).

(79) الإسكندر الكبير (356 - 324 ق. م) الملقب بذي القرنين، ولد في مقدونية وتوفي في بابل. تعلم على أرسطو. خلف أباه فيلبس، وعزم على فتح أمبراطورية الفرس فانتصر عليهم في إيسوس (333 ق. م) ثم في سواحل فينيقيا (بعد أن حاصر صور سبعة أشهر) ثم في مصر وأسس الإسكندرية أخيراً تتبع داريوس في العراق وانتصر عليه في كوكاميلا بالقرب من اربيل (331 ق. م) وتابع زحفه إلى أطراف فارس وتجاوزها إلى ضفاف نهر السند. وذو القرنين من أعظم الغزاة وأشجعهم.



جمع مسلّمة خلقاً كثيراً من الحدادين والنجارين وأصحاب المهن وكل صنع ما يحتاج إليه للبناء وذهب وبنى ذلك الباب الذي هدمه في بيت تركيا[80]. ولما بناه وضع عهداً مع الأتراك أن لا يعبر منه أحد إلى حدود الآخر، وتركه ورجع. أما الأتراك من حيث هم مجوس لا يعرفون الله ولا يؤمنون بشرائعه أهانوا الله واحتقروا كلمته وداسوا على العهد الموضوع معهم وخردوا إلى خارج حدودهم وصنعوا الشرور الكثيرة مع المجاورين لهم مع المسلمين وكان موسم الحصاد فأرسل الخليفة هشام جيشاً بقيادة الجرّاح[81]، في مقدمته الفرسان الشجعان ودخل بيت تركيا فقتل منهم العدد الكثير وأباد زروعهم فكان الفلاحون يولولون عند قدميه وهو لا يصغي إليهم بل يشدّ عليهم الخناق مما أثار غضب الشعب بأسره عليه وعلى عساكره فهاجموه هجمة واحدة وقتلوا من جنده عدداً لا يحصى[82]، فأرسل هشام مسلّمة لنجدته، وما أن دخل مسلّمة الأرض إلّا وانسحب الأتراك خوفاً من اسمه وهربوا إلى الجبال فلحقهم وقتلهم بحد السيف انتقاماً لوقعة الجرّاح الذي قتلوه، ولم ينج منهم أحد فسفك دمهم كالمياه تجري على الأرض حتى إن طيور السماء ووحوش البرية

---

(80) يقول الطبري، في سنة 114 هـ قفل مسلّمة بن عبد الملك على الباب بعدما هزم خاقان وبنى الباب فأحكم ما هنالك. (**تاريخ الأمم والملوك**، ج 8، ص 217).

(81) هو الجرّاح بن عبد الله الحكمي الذي غزا اللان سنة 106 هـ في بلاد الترك (انظر اليعقوبي، ج 2، ص 328). وفي سنة 112 هـ صار الترك إلى أرض أردبيل فغزاهم الجراح بن عبد الله الحكمي فلقي ملك الروم فقتله (اليعقوبي، 2: 329).
وغزا سنة 107 مادور من ملطية وأناخ على قسرية فافتتحها عنوة. (الأزدي، ص 26).

(82) وولّى الجراح بن عبد الله الحكمي من مذحج أرمينية... وصار إلى الخزر فقتل منهم مقتلة عظيمة ... إلّا أن الخزر جاشت وعبرت الرسّ فحاربهم في صحراء ورثان ثم انحازوا إلى ناحية أردبيل فواقعهم على أربعة فراسخ مما يلي أرمينية فاقتتلوا ثلاثة أيام، فاستشهد ومن معه فسمي ذلك النهر، نهر الجرّاح ونسب جسر عليه إلى الجراح أيضاً. ثم إن هشام بن عبد الملك ولّى مسلّمة بن عبد الملك أرمينية (البلاذري، **فتوح البلدان**، ج 1، ص 243).



شبعت من لحومهم[83].

ولما انتهت الحرب نصب مروان بن محمد[84] والياً على المنطقة (منطقة أرمينية وما حولها)[85]. وترك مسلّمة عنده قوة كبيرة، ومروان هذا شدّد عليهم الخناق أكثر من الذين سبقوه[86].

سنة 1029 ي

---

(83) يسرد لنا اليعقوبي هذه الأمور بما نوجزه: «وولّى هشام مسلّمة بن عبد الملك أرمينية وأذربيجان سنة 107 هـ فوجه سعيد بن عمرو الحرشي على مقدمته فلقي عسكراً للخزر، ومعه عشرة آلاف من أسرى المسلمين فحاربهم فهزمهم وقتل عامتهم واستنقذ الأسرى منهم، وفعل ذلك مرة بعد مرة أخرى، وقتل ابن خاقان وفتح عدة مدائن ووجه برأس ابن خاقان إلى هشام من غير أن يوافق مسلّمة فأغضبه ذلك. وكتب إليه يلومه وصيّر مكانه عبد الملك بن مسلم العقيلي، وأمره أن يقيّد سعيد بن عمرو الحرشي ويحبسه بمدينة يقال لها قَبَلَه. وقدّم مسلم البلد وأحضر الحرضي فأغلظ له ودق لواءه، وبعث به إلى سجن برذعة، فكتب إليه هشام يلومه على ذلك ووجه برسل من قبله حتى أخرجوا الحرشي من السجن وحملوه إليه. وسار مسلّمة في بلاد التي للخزر حتى صار إلى جرزان، فافتتحها وقتل أهلها ثم صار إلى شروان فسالمه أهلها ثم أتى مَسْقَط فصالحه أهلها ووجه خيله إلى أرض اللكز فصالحه أهلها وبعث إلى طبرسان فصالحه أهلها، فسار في البلاد لا يلقاه أحد حتى بلغ أرض ورثان فلقيه خاقان ملك الخزر، وكان مع مسلّمة جماعة من ملوك البلدان التي فتحها فجعل مروان بن محمد على مقدمته فلقي القوم فأقام يقاتلهم أياماً، وربما فُقد، فيقال لمسلّمة: قتل مروان، فيقول: أما والله دون أن يسلّم عليه بالخلافة فلا! ففتح عامة البلدان. (اليعقوبي، ج 2، ص 317-318).

(84) هو الذي ولي الخلافة بعد ذلك سنة 127 هـ وقتل في الفسطاط بمضر سنة 132 هـ وبمقتله انتهت الدولة الأموية في الشام.

(85) عزل هشام مسلّمة وولّى مروان بن محمد. (اليعقوبي، ج 2، ص 318).

(86) يقول الطبري في سنة 117 هـ بعث مروان بن محمد وهو على أرمينية بعثين فافتتحت إحداهما حصوناً ثلاثة من اللان ونزلت الآخرى على تومنشاه فنزل أهلها على الصلح. (**تاريخ الأمم والملوك**، ج 8، ص 222). ويقول أيضاً إنه في سنة 121 غزا مروان بن محمد بلاد صاحب سرير الذهب فافتتح قلاعه وخرّب أرضه وأذعن له بالجزية في كلّ سنة ألف رأس يؤديه إليه وأخذ منه بذلك الرهن وملكه على أرضه (**الأمم والملوك**، ج 8، ص 260).



718 م

100 هـ

حدثت هزّة عظيمة ومخيفة. وأماكن كثيرة تهدمت من بينها الهياكل والكنائس ومنها الكنيسة القديمة في الرُّها، وأيضاً عمارات كبيرة وأبنية شاهقة سقطت على سكانها، والتي لم تسقط صارت فيها علامة، كلّما نظر إليها المرء تذكر هول الهزة وعنفها، حتى إن بساتين كثيرة خربت وأشجار الفاكهة فسدت.

وفي هذا الزمن فتح هشام نهر زيتون وبنى عليه المدن والحصون وقرى كثيرة وغرس على شاطئيه أشجاراً كثيرة متنوعة. كما فتح نهر بيت باش وبنى عليها حصناً وغرس حوله حدائق من كلّ جنس، ثم فتح نهر هاني وأقام عليه حصوناً كثيرة وحدائق من كلّ نوع.

وكذلك ظهر مسلّمة آخر[87] فتح بيت بليش، وهذا أيضاً بنى على النهر حصوناً وقرى وغرس عنده جميع أنواع الشجر المثمرة.

سنة 1040 ي

729 م

111 هـ

استولى مسلّمة[88] على مدينة نقسريا وسبى جميع سكانها وباعهم

---

(87) هو مسلّمة بن هشام بن عبد الملك، جاء في الطبري أنه غزا بلاد الروم فافتتح بها مطامير. (**تاريخ الأمم والملوك**، ج 8، ص 260). وسنة 121 هـ بلغ مسلّمة بن هشام ملطية. (اليعقوبي، ج 2، ص 329).

(88) جاء في الطبري أنه في سنة 108 ه كانت غزوة مسلّمة بن عبد الملك حتى بلغ =



كالعبيد عدا اليهود الذين سلموا المدينة له إذ فتحوا أبوابها خفية وأخذوا منه عهداً بالسلام، إلّا أنه سباهم ولم يبعهم وأخرجهم معه.

سنة 1045 ي

734 م

116 هـ

دخل سليمان[89]، على بيت رومايا واستولى على مدينة فلوزيثا وسبى جميع سكانها لأن أرطبوس صهر قوسطنطينوس ملك الروم كان متمرداً سيطر مدينة قسطنطينة، وأخذ تاج الملوكية بتمرده، إذ إن الملك قوسطنطينوس وجميع عسكره كانوا مشتبكين بالحرب مع المسلمين وقد ترك في المدينة أرطبوس الطاغي محافظاً لها مع عساكر كثيرة من فلوزينا، فلما قبض هذا على زمام الأمور دبّر مكيدة للاستيلاء على الحكم ناسياً العهد الذي قطعه مع لاون أمام الله. وبينما كان الملك لاون مع الجيش خارج المدينة يقاتل مع قوات فلوزينا الذين بالداخل، قدم سليمان وحاصر قوات لاون من الخارج أيضاً، فأرسل الملك إليه رسالة أن اذهب إلى داخل المدينة وأحرز نصراً على المتمرد أرطبوس وانهبْ واسلُبْ المدينة كما تشاء فتجعل لنفسك هيبة وليس من أحد يقف ضدك بهذا الخصوص. وهكذا قصد مسلّمة المدينة وفتحها وسلب سكانها ونهب مسيرتها واستولى على أموال لم يرها أحد قبله. وأما لاون الملك فألقى القبض على المتمرد أرطبوس الطاغي وقلع عينيه والقوات

= قيسارية مدينة الروم مما يلي الجزيرة ففتحها على يديه (**الأمم والملوك**، ج 8: 190).

(89) هو سليمان بن هشام الذي لقي ليون طاغية الروم وارطباس في سنة 124 ، إلا أنه لم يكن بينهم حرب... (اليعقوبي، 2/ 329).



التي معه جعلهم في الجزية والأسر.

سنة 1046 ي

735 م

117 هـ

دخل مليك بن شبيب أمير ملاطية وعبد الله البطل وضربا سوندا، وإذ كانا في مرج المدينة اجتمعت عليهما عساكر كثيرة وانتقموا منهما على فعل المسلمين قبل سنة في فلوزينا. ولما كان المسلمون من دون سلاح وعددهم لا يتجاوز الخمسين ألفاً، أحاط بهم الروم فجأة وقتلوا كلّ من وقع بيدهم بحدّ السيف ولم ينج إلّا القليل إذ كان النهار قد مال للغروب وادلّهمَ الظلام، حتى إن الذين بقَوا أحياء كانوا مصابين من طعن السيوف والرماح وقوس النشاب فهربوا بالليل الدامس وكان عددهم ما يقارب خمسة آلاف رجل، وهؤلاء أيضاً التفتوا على رؤسائهم وقُتلوا ثأراً لأصدقائهم الذين صُرعوا بيد الروم. وهذه نكبة لم يحدثنا التاريخ الإسلامي بمثلها، حلت بالمسلمين في تلك الفترة العصيبة من الزمن.

في هذا الزمان ظهر واحد من المضللين في أرض الغرب وأضلّ كثيراً من اليهود، كما أهلك الكثير منهم. وقصته كانت كما يلي: إن رجلاً اسمه مردا من قرية فلحت، عبر إلى أرض الغرب في منطقة السامريين وجرى له معهم صداقات ومعاملات وخاصة مع شخص من اليهود الكبار فكان يتردد على داره كثيراً وذات يوم أتى المنكر مع ابنته – ابنة ذاك اليهودي – فلما شعر سكان المدينة اليهود بذلك ضربوه وعذبوه بشتى العذابات وخاصة أنه كان نصرانياً، ولما سنحت له فرصة الهرب هرب من أيديهم مصمماً على الرجوع إليهم لينزل فيهم سائر الشرور



والمصائب فقصد أرض الآراميين وكانوا أيامئذ يشتغلون بالسحر فتعلم منهم أصوله وأسراره وأنواع حيل الشيطان أتقنها، ومن ثم رجع إلى تلك الأرض مدعياً أنه موسى ذاك الذي أخرج إسرائيل من مصر في العهد القديم وقال لهم: الآن جئت لأخرج إسرائيل إلى البرية وأخلصهم من أيدي أعدائهم وأدخلهم من جديد ليرثوا أرض الميعاد، وبهذه العبارات المغرية ومن أعماله السحرية التي كان يقوم بها أمامهم جعلهم يتعجبون من قوته وقدرته فالتفوا حوله فكان تارة يتركهم يمشون فوق الجبال على قممها العالية وأخرى يأمرهم فيطيرون كالطيور فيسقطون من عليائهم ويموتون، وأحياناً كان يسجنهم في شقوق الأرض ومغائرها حتى يهلكوا وجعل عليهم البلايا والرزايا، فقتل منهم خلقاً كثيراً بواسطة سحره وضلالاته. ولما شبع من عذاباتهم استحوذ على كل الذهب والأموال والعبيد التي لديهم وهرب منهم وجاء إلى داره. أما هم فلما رأوا شروره وما حلّ بهم من الهوان رجعوا إلى أنفسهم وخرجوا يبحثون عنه في أربعة أقطار المسكونة ولما وجدوه قبضوا عليه وسلموه للخليفة هشام، فسلّمهم إياه وسمح لهم بأن يعذبوه كيفما شاؤوا، فأنزلوا فيه صنوف أنواع العذاب وأخيراً شنقوه على الصليب أي صلبوه فاستحق جزاء شرّه ميتته الشنيعة هذه.

سنة 1047 ي

736 م

118 هـ

تمرّد عتيق وخرج بشيعته التي تدعى الحرورية[90] بالقرب من

---

(90) جاء في اليعقوبي أن الخوارج بعد حرب صفين جاؤوا إلى قرية يقال لها حروراء=



سنجار ومعه عشرون تابعاً. ولما أعلن خروجه على الإسلام وطلق أتباعه نساءهم وتركوا كل ما يملكونه، علم الخليفة هشام بأمره فأرسل قلبو وزهيراً اللذين كانا رئيسين على عساكر سنجار ليحارباه. ولما استلما الأمر جمعا لهما جيشاً عظيماً وخرجا يطلبانه فأدركاه في البرية قرب سنجار. فطلب عتيق أن يمهلاه حتى الفجر وعندئذ يحاربانه، وهذان القائدان إذ كانا مغروان بنفسيهما وبكثرة عديد جيشهما صدقاه... حتى إذا صار النهار مائلاً للغروب أمرا العساكر بالراحة هناك. إلّا أن عتيقاً كان رجلاً ذكياً وقوياً والذين معه أكثر منه تحمساً لدعوته. فلما أظلمت أكل أولئك الجهال وشربوا وناموا من دون تدبير. أما عتيق ورفاقه فإنهم قاموا إلى السلاح في الهجعة الأولى من الليل وقتلوا جميع الذين مع زهير وقلبو. وكان أصحاب عتيق يمرون بينهم وهم بزي النقارين والفلاحين ويقتلون بحد السيف كلّ من مروا عليه وقُتل كذلك القائدان زهير وقلبو ولم ينج من جيشهما إلّا القليل.

سنة 1052 ي

741 م

124 هـ

مات لاون ملك الروم وحكم خمساً وعشرين سنة وخلفه في الحكم ابنه قوسطنطينوس خمساً وثلاثين سنة.

وفي هذا الزمان أقام الخليفة هشام جسراً مقابل قلنيقوس على نهر

= بينها وبين الكوفة نصف فرسخ، وبها سموا الحرورية ورئيسهم عبد الله بن وهب الراسي وابن الكوا وشبّث بن ربعي فجعلوا يقولون لا حكم إلا لله... (اليعقوبي، ج 2، ص 191).



الفرات.

سنة 1053 ي

742 م

125 هـ

حدثت هزة قوية جداً يوم الأحد، وكانت الأرض طيل الليل تتنهد بصوت شبيه بصوت خوار الثور وسمع ذلك الصوت كثيرون. ولما حان وقت القداس في الصباح دخل الشعب كلّه إلى الكنيسة إلّا أن الكنيسة سقطت على من فيها وقضت على الجميع لقوة الهزة التي حدثت فجأة ولم ينج من الموت المحتم أحد، إلّا الكاهن الذي كان يقدم الذبيحة وقتئذ. كما أن التل الذي كانت بُنيت الكنيسة عليه كان يهدر هديراً قوياً استمر حوالي ثلاثين يوماً.

سنة 1054 ي

743 م

126 هـ

انكسر الجسر المنشأ فوق دجلة عند آمد لشدة قسوة الشتاء ولثقل الثلوج التي تراكمت لأيام كثيرة حتى هلكت الحيوانات والطيور من شدة الجوع والبرد، وعصفت رياح شديدة وهطلت أمطار قوية غزيرة فازدادت مناسيب الأنهر كلها خاصة في دجلة الذي فاض فيضاناً عظيماً فخرّب كثيراً من القرى والمدن وجرفت مياهه أمامها أخشاباً ضخمة ما أدى إلى انكسار الجسر الكبير عند آمد وتراكمت أخشابه الكبيرة بعضها فوق بعض مسافة خمسة أو ستة أميال. ولم يُبنَ الجسر بعدئذ لأن



الخليفة هشام الذي كان قد جمع الكثير من المهنيين لإعادة بناء الجسر وافاه الأجل وتُرِك أمر الجسر.

وفي هذا الزمن نُهبت مدينة الرُّها. وإن النهر العظيم الذي يسمى «ويصان» والذي يمر وسط الرُّها تحوّل إلى سيل عظيم حتى إن المياه الفائضة سدت منافذ المياه الموجودة في السور من الجهة الشرقية فخربته، وصعدت السيول في أسواق المدينة. ولأن ذلك وقع نهاراً لم يهلك أحد إنما خربت الحوانيت ووقعت دور كثيرة في المدينة. وهرب الكثير من السكان وتركوا بيوتهم. ثم إن المياه صنعت لها منفذاً إلى برية الرُّها وحرّان وأوقعت الخراب الكبير والعظيم فيها.

سنة 1055 ي

744 م

127 هـ

مات الخليفة هشام بن عبد الملك[91] وحكم بعده الخليفة وليد ثمانية أشهر[92]، ولأجل هذا قام القاسي يزيد وعيسى وإبراهيم الأخوة

(91) يقول اليعقوبي إنه توفي يوم الأربعاء لتسع خلين من شهر ربيع الأول سنة 125 هـ وكانت ولايته 20 سنة إلّا خمسة أشهر (2: 328). ويقول الطبري إنه مات سنة 125هـ لست ليال خلين من شهر ربيع الآخر يوم الأربعاء، وكانت خلافته تسع عشرة سنة وسبعة أشهر وواحداً وعشرين يوماً. (8: 283). يقول الأزدي: «مات هشام بن عبد الملك بالرصافة ورصافته من حد قنسرين، (ص 50) ويقول ياقوت في معجم البلدان 2: 784 «إن رصافته هشام في غربي الرقة على طريق البرية» ويقول الأزدي: مات يوم الأربعاء لست ليال خلين من شهر ربيع الآخر سنة 125 هـ وكانت خلافته 19 سنة وسبعة أشهر ونصف. وكان عمره أربعاً وخمسين سنة وكان مولده بالمدينة (ص 50-51).

(92) بويع الوليد بن يزيد في اليوم الذي توفي فيه هشام وهو يوم الأربعاء لست خلين =



مع عبد العزيز أولاد حشش بجانب مدينة قوري وقتلوه بحرية. وحكم بعده يزيد[93] ستة أشهر[94] حيث مات ولم يمهله الأجل أن يقوم بالأعمال واستلم مكانه إبراهيم أخوه[95].

وفي هذه السنة أيضاً حدثت فتنة كبيرة في جميع الأرض من جراء الفعلة التي فعلها عيسى وأخوه على وليد الذي قتلاه بحربة وحكما، إلّا أنهما لم يمكثا في الحكم كثيراً إذ لم يطعهم المسلمون وخاصة أبناء الجزيرة. واهتم كلّ بنفسه ينهب ويسلب بالجهة التي يريدها ولم يعد المرء يطمئنّ على نفسه خارج داره[96].

= من شهر ربيع الآخر سنة 125، ثم قتل البخراء يوم الخميس لليلتين من شهر جمادى الآخرة سنة 126 فكانت ولايته سنة وشهرين واثنين وعشرين يوماً. وقتل وهو ابن أربعين سنة والموضع الذي قتل فيه دفن فيه وهي قرية من قرى دمشق تعرف بالبخراء. (انظر مروج الذهب، ج 3، ص 212). وللتفصيل في أخباره انظر الأزدي ص 51 وما بعدها.

(93) ولي يزيد بن الوليد بدمشق ليلة الجمعة لسبع بقين من جمادى الآخرة فبايعه الناس بعد قتل الوليد بن يزيد، وتوفي يزيد بن الوليد بدمشق يوم الأحد هلال ذي الحجة سنة 126 فكانت ولايته من مقتل الوليد بن يزيد إلى أن مات خمسة أشهر وليلتين. وقد كان إبراهيم بن الوليد أخوه قام بالأمر من بعده، فبايعه الناس بدمشق أربعة أشهر وقيل شهرين ثم خلِع وكانت أيامه عجيبة الشأن من كثرة الهرج والاختلاط واختلاف الكلمة وسقوط الهيبة، وفيه يقول بعض أهلِ ذلك العصر:

نبايع إبراهيم في كلّ جمعة   إلّا أن أمراً أنت واليه ضائع

ودفن يزيد بن الوليد بدمشق بين باب الجابية وباب الصغير وهو ابن سبع وثلاثين سنة ويقال ابن ست وأربعين سنة. (**مروج الذهب**، ج 3، ص 220).

(94) يقول الطبري، مات يزيد في سلخ ذي الحجة من سنة 126 هـ بعد الأضحى وكانت خلافته في قول جميع من ذكرنا ستة أشهر (**الأمم والملوك**، ج 9، ص 45).

(95) يقول الطبري، استخلف يزيد بن الوليد أبا إسحق إبراهيم بن الوليد فمكث أربعة أشهر ثم خلع في شهر ربيع الآخر من سنة 126 ثم لم يزل حياً حتى أصيب سنة 132 هـ. (انظر **تاريخ الأمم والملوك**، ج 9، ص 46).

(96) تفاصيل هذه الحوادث والاضطرابات يسردها لنا الطبري في تاريخه الجزء التاسع ص 36–52.



في هذا الزمن أيضاً حدث جوع وعطش عظيمان في الأرض كلها إذ إن الله أرسل علينا البلايا والكآبة من جراء خطايانا وما اقترفنا من آثام...

وهنا يسرد فصلاً كاملاً من النبوات وأقوال من الكتاب المقدّس أهملنا ذكرها هنا...

وفي هذه الأثناء وقعت حرب بين المسلمين بعضهم مع بعض[97]، ارتوت الأرض من دمائهم، وشبعت طيور السماء والحيوانات البرية من لحومهم. ونهب الناس بعضهم بعضاً وحلّ فيهم الوباء حيث إن المرء الذي لم يأخذه السيف جرفه الجوع[98]، إذ حلّ بالأرض قحط وبيل فالمطر لم يسقط بأوانه والزروع كلها يبست حتى إن البذور لم تنبت، وارتفعت الأسعار فبلغ سعر كلّ ثمانية أو سبعة أقفزة من الحنطة ديناراً كاملاً مع ندرتها. وأرسل الحكام عمّالاً لحجز الحنطة أينما وجدوها. فضاقت الأرض بالناس وصار الأغنياء كالفقراء من الجوع حتى إن الحيوانات وآكلات العشب هكلت لعدم وجوده. وكان الضيق شديداً على جميع المخلوقات، ولم يحدث قبله في أيامنا وأيام آبائنا حتى إن العيون والينابيع قلّ ماؤها وبعض الأنهار يبست مجاريها. كذلك فإن موت الخليفة هشام سبّب ضيقاً على الأرض. وهذا بسبب خطايانا وآثامنا... (وهنا يسرد فصلاً آخر من النبوات وأقوال من الكتاب المقدّس أهملنا ذكرها لتكرارها).

سنة 1057 ي

---

(97) يقصد بها ربما الحروب التي دارت بين الأمويين والعباسيين والتي انتهت بسقوط الدولة الأموية سنة 132 هـ ونشوء الدولة العباسية في العراق

(98) انظر التفاصيل في تاريخ **الطبري**، الجزء التاسع ص 48-51.



مع عبد العزيز أولاد حشش بجانب مدينة قوري وقتلوه بحرية. وحكم بعده يزيد[93] ستة أشهر[94] حيث مات ولم يمهله الأجل أن يقوم بالأعمال واستلم مكانه إبراهيم أخوه[95].

وفي هذه السنة أيضاً حدثت فتنة كبيرة في جميع الأرض من جراء الفعلة التي فعلها عيسى وأخوه على وليد الذي قتلاه بحربة وحكما، إلّا أنهما لم يمكثا في الحكم كثيراً إذ لم يطعهم المسلمون وخاصة أبناء الجزيرة. واهتم كلّ بنفسه ينهب ويسلب بالجهة التي يريدها ولم يعد المرء يطمئنّ على نفسه خارج داره[96].

= من شهر ربيع الآخر سنة 125، ثم قتل البخراء يوم الخميس لليلتين من شهر جمادى الآخرة سنة 126 فكانت ولايته سنة وشهرين واثنين وعشرين يوماً. وقتل وهو ابن أربعين سنة والموضع الذي قتل فيه دفن فيه وهي قرية من قرى دمشق تعرف بالبخراء. (انظر **مروج الذهب**، ج 3، ص 212). وللتفصيل في أخباره انظر الأزدي ص 51 وما بعدها.

(93) ولي يزيد بن الوليد بدمشق ليلة الجمعة لسبع بقين من جمادى الآخرة فبايعه الناس بعد قتل الوليد بن يزيد، وتوفي يزيد بن الوليد بدمشق يوم الأحد هلال ذي الحجة سنة 126 فكانت ولايته من مقتل الوليد بن يزيد إلى أن مات خمسة أشهر وليلتين. وقد كان إبراهيم بن الوليد أخوه قام بالأمر من بعده، فبايعه الناس بدمشق أربعة أشهر وقيل شهرين ثم خلِع وكانت أيامه عجيبة الشأن من كثرة الهرج والاختلاط واختلاف الكلمة وسقوط الهيبة، وفيه يقول بعض أهلِ ذلك العصر:

نبايع إبراهيم في كلّ جمعة   إلّا أن أمراً أنت واليه ضائع

ودفن يزيد بن الوليد بدمشق بين باب الجابية وباب الصغير وهو ابن سبع وثلاثين سنة ويقال ابن ست وأربعين سنة. (**مروج الذهب**، ج 3، ص 220).

(94) يقول الطبري، مات يزيد في سلخ ذي الحجة من سنة 126 هـ بعد الأضحى وكانت خلافته في قول جميع من ذكرنا ستة أشهر (**الأمم والملوك**، ج 9، ص 45).

(95) يقول الطبري، استخلف يزيد بن الوليد أبا إسحق إبراهيم بن الوليد فمكث أربعة أشهر ثم خلع في شهر ربيع الآخر من سنة 126 ثم لم يزل حياً حتى أصيب سنة 132 هـ. (انظر **تاريخ الأمم والملوك**، ج 9، ص 46).

(96) تفاصيل هذه الحوادث والاضطرابات يسردها لنا الطبري في تاريخه الجزء التاسع ص 36–52.



في هذا الزمن أيضاً حدث جوع وعطش عظيمان في الأرض كلها إذ إن الله أرسل علينا البلايا والكآبة من جراء خطايانا وما اقترفنا من آثام...

وهنا يسرد فصلاً كاملاً من النبوات وأقوال من **الكتاب المقدّس** أهملنا ذكرها هنا...

وفي هذه الأثناء وقعت حرب بين المسلمين بعضهم مع بعض[97]، ارتوت الأرض من دمائهم، وشبعت طيور السماء والحيوانات البرية من لحومهم. ونهب الناس بعضهم بعضاً وحلّ فيهم الوباء حيث إن المرء الذي لم يأخذه السيف جرفه الجوع[98]، إذ حلّ بالأرض قحط وبيل فالمطر لم يسقط بأوانه والزروع كلها يبست حتى إن البذور لم تنبت، وارتفعت الأسعار فبلغ سعر كلّ ثمانية أو سبعة أقفزة من الحنطة ديناراً كاملاً مع ندرتها. وأرسل الحكام عمّالاً لحجز الحنطة أينما وجدوها. فضاقت الأرض بالناس وصار الأغنياء كالفقراء من الجوع حتى إن الحيوانات وآكلات العشب هكلت لعدم وجوده. وكان الضيق شديداً على جميع المخلوقات، ولم يحدث قبله في أيامنا وأيام آبائنا حتى إن العيون والينابيع قلّ ماؤها وبعض الأنهار يبست مجاريها. كذلك فإن موت الخليفة هشام سبّب ضيقاً على الأرض. وهذا بسبب خطايانا وآثامنا... (وهنا يسرد فصلاً آخر من النبوات وأقوال من **الكتاب المقدّس** أهملنا ذكرها لتكرارها).

سنة 1057 ي

---

(97) يقصد بها ربما الحروب التي دارت بين الأمويين والعباسيين والتي انتهت بسقوط الدولة الأموية سنة 132 هـ ونشوء الدولة العباسية في العراق.

(98) انظر التفاصيل في **تاريخ الطبري**، الجزء التاسع ص 48–51.



746 م

129 هـ

خرج مروان[99] من أرض الأتراك[100]... فلما خرج إلى الجزيرة استسلمت له، ونصّب عليها عمالاً أشداء وكذلك في جميع المدن[101]. وفي الموصل جمع عساكر كثيرة وفرقها في الجهات[102]. كما جمع أصحاب المهن من الحدادين وغيرهم لكي يذهبوا ويعبروا إلى جهة الغرب عند أصحاب عيسى.

قلنا إن الذي قتل الوليد حكم بعده مدة ستة أشهر ومات واستلم الحكم خلفاً له إبراهيم أخوه. وهذا لما علم أن مروان عبر نهر الفرات ومعه جيش عظيم والجزيرة فتحت له أقاليمها خاف وهرب من أمامه

---

(99) المقصود به هنا مروان الثاني الخليفة الأموي بن محمد بن مروان بن الحكم وهو الجعدي. بويع بدمشق يوم الاثنين لأربع عشرة ليلة خلت من صفر سنة 127 وقيل: إنما دعا إلى نفسه بمدينة حرّان من ديار مضر وبويع له بها وأمه أم ولد يقال لها ريا وقيل طرونة... فكانت أيامه منذ بويع بمدينة دمشق إلى مقتله خمس سنين وعشرة أيام... وكان مقتله في أول سنة 132 هـ وقتل في بوصير قرية من قرى الفيّوم بصعيد مصر... (مروج الذهب، ج 3، ص 232–233).

(100) هنا يذكر المؤلف نبوات من سفر أرميا النبي أهملنا تدوينها لتكرارها في المتن.

(101) انظر تفاصيل هذه الأحداث في تاريخ الموصل للأزدي ص 61، 68–70.

(102) يقول الأزدي ص 75: «... فعبأ مروان خيله كما كان يعبئها لقتال شيبان وأهل الموصل وبكروا إلى الحرب فلم يروا أحداً فأتوا مروان بالخبر وقطع أهل الموصل الجسر لئلاً يعبر ويدخل المدينة فرحل مروان حتى أتى موضعاً من جدلة أسفل الموصل فعبر فيه إلى ناحية وأحاط بالمدينة فصبّح أهلها ونزل مروان وأمّن أهل الموصل ودخل حماماً يعرف بالجدّالين وبأمير المؤمنين وذكروا أنه تغدّى عند جد أبان بن شين المحدّث التغلبي بالموصل وقال: مدينة بناها أبي ما كنت لأوذي أهلها. ففتحوا له أبواب المدينة فدخلها مروان وأصحابه والألفاظ مختلفة في الخبر والمعنى واحد». (ص 75–76).



وأرسل إليه أولاً نعيم بن ثابت[103]، ومعه عساكر جرارة. وكان يقال إن لنعيم هذا سبعين ولداً، فلما التقى الجيشان وقامت الحرب بينهما انتصر مروان وسحق جيش ابن ثابت الذي انهزم أمام مروان. فلما رأى أعوان نعيم أنهم قد غلبوا بالحرب الأولى خافوا جداً وجمعوا عساكر كثيرة لا تحصى حتى أبناء القرى والفلاحين ليضربوا بالمقاليع. ولما التقى الجمعان وتناوشوا بالنبال ونشب القتال سقط عدد لا يحصى من القتلى من الطرفين. وانتصر أيضاً مروان وانهزم إبراهيم وأخوه وكذلك سليمان بن هشام[104]، ولم يحدث في العالم مثل هذا القتال ولم يسمع قط بما سفك من الدماء، حتى إنه قتل من القرويين أكثر من خمسة آلاف فلاح.

ولما انتصر مروان، مرّ على حمص[105] واستولى عليها وهدم سورها وأخرج يزيد من قبره وعلقه على خشبة إلى أسفل (وكانت الجثة من دون رأس) وأخذ من أحد اليهود فيها أربعمائة ألف من الذهب.

---

(103) ورد في تاريخ الطبري أنه ثابت بن نعيم الجذامي. (**الأمم والملوك**، ج 9، ص 45). الذي كان قد أخرجه من السجن، سجن هشام، وغدر به بأرمينية. وكذلك عند اليعقوبي أنه ثابت بن نعيم الجذامي الذي خرج على مروان بناحية الأردن فوجه إليه مروان بن عبد العزيز. (انظر **اليعقوبي**، في تاريخه الجزء الثاني، ص 339).

(104) وصار سليمان بن هشام بن عبد الملك ومن هرب من اليمانية من أصحاب يزيد ابن خالد بن عبد الله معهم، وسار سليمان بن هشام بن عبد الملك يريد الشام فلقيه مروان بخساف، فهزمه... (اليعقوبي، ج 2، ص 339).

(105) لم يمض على انتصاره ثلاثة أشهر حتى خالفه أهل الشام وانتفضوا عليه وكان الذي دعاهم إلى ذلك ثابت بن نعيم ... فسار إليهم بنفسه وأرسل أهل حمص إلى تدمر وغيرهم كثيرون ودخلوا مدينة حمص ليلة الفطر من سنة 127هـ... وحاصر مروان حمص ثم فتحها وقتل من سكانها أكثر من ثلاثة آلاف... ثم أمر مروان بجمع قتلى المتآمرين وهم خمسمائة أو ستمائة فصلبوا حول المدينة وهدم من سورها نحو علوه... (انظر **تاريخ الأمم والملوك** للبطري، ج 9، ص 55، وأيضاً **تاريخ اليعقوبي**، ج 2، ص 340).



فصل في رؤساء الكنائس الذين عرفوا بهذا الزمن

بعد القدّيس أثناسيوس بطريرك أنطاكيا جلس على الكرسي القدّيس مار يهونيس[106]. وفي الرُّها عرف القدّيس قوسطنطينا الأُسقف. وفي حرّان القدّيس مار شمعون من دير قرتمين[107]. وفي شميشاط[108] قوسطنطينا أيضاً. وفي ميافرقين: بفتح أوله وتشديد ثانيه ثم فاء وبعد الألف راء وقاف مكسورة وياء ونون. أشهر مدينة بديار بكر. (معجم البلدان 8: 214 – 218)، القدّيس أثناسيوس المكنى باللقب سندليا، وبعدئذ ارتقى إلى البطريركية (وهو نفسه مار أيونيس يوحنا الآنف الذكر) وفي آمد بعد القدّيس مار قوزما قام فيها مار سابا من دير زوقنينمن الكورة نفسها ولما تمت له عشرون سنة مات وبعده قام ساويرا من نفس

---

(106) هو أيونيس أو يوحنا الرابع، انتخب بقرعة جرت بخديعة أثناسوس السندي مطران ميفرقين وكانت تربيته في دير زقنين بآمر وتسقف على حرّان. وبعد أن أقيم بطريركاً قدم مروان الخليفة إلى حرّان فحمل إليه الهدايا فأنعم عليه بفرمان مشهور وبما أنه فصل مرعيث ديار بكر خبثت عليه نية أثناسيوس السندلي فوشى به لدى مروان فحسبه في حرّان وغرّمه أربعة عشر ألف دينار وبعد انكسار مروان في الحرب خرج البطريرك وانزوى في ديره. وكان السندلي متفرداً برأيه مستبداً بفعله وكان يرسّم أساقفة من دون رضى البطريرك ولما حرم إيليا أسقف سنجار الحلفان الخبير مفسراً الجزء الأول من النازينزي قام داود مطرن دارا وحرم السندلي. واغتالت المنية أيونيس البطريرك في تشرين الأول/ أكتوبر سنة 755م وخدم سنة 16 ودفن في البادية على ضفة الفرات. وسنة 745 أباح مروان للملكيين فنصبوا ثاوفليط بن قنبرة بطريركاً وكان ذلك بعد أربعين سنة لفراغ الكرسي. (**المهرة الذكية**، ص 40–41).

(107) دير قرتمين: شرقي مذيات مسيرة أربع ساعات عنها، أشهر أديار طورعبدين بناه الناسكان مار صموئيل ومار شمعون عام 397 ثم أطلق عليه اسم رئيسه وأسقفه مار جبرائيل 667 صار كرسياً لمطارنة طور عبدين سنة 615 حتى 1049 ثم انفرد مطرانه برئاسة قسم واسع من الجبل ثم انحصر بأبرشية خاصة به حتى سنة 1915. تخرّج فيه أربعة بطاركة ومغريان وتسعة وسبعون أسقفاً. لا يزال عامراً آهلاً. (انظر **اللؤلؤ المنثور**، ط 3، ص 512).

(108) شميشاط، بكسر أوله وسكون ثانيه وشين مثل الأولى وآخره طاء مهملة، مدينة على شاطئ الفرات شرقيها بالوية وغربيها خرتبرت وهي محسوبة من أعمال خرتبرت. (**معجم البلدان**، 5: 291–292).



الدير وهذا توفي بعد سنة من رسامته في زمن الوباء المار ذكره. وقام من نفس الدير ساويرا آخر.

وفي هذا الزمن حصل اضطراب قليل في الكنيسة بسبب القدّيس مار يهونيس (الآنف الذكر) ولم يوافق على رسامته الجميع.

فصل في نقل خزينة الملوك من المغرب إلى الجزيرة

لما علم مروان بخبث جميع المغربيين الذين يخدمون في جيشه أراد أن ينقل خزينة الملوك إلى الجزيرة[109]، فقام ضده كلّ المغربيين وشرعوا يطعنون بسمعته، فلما أحسّ بذلك احتال عليهم قائلاً لهم: إني أرغب أن أذهب بها إلى مدينة دمسقس[110] وليس إلى الجزيرة لأن هناك مقام الخلفاء. فلما سمعوا هذا وافقوا على نقلها إلى دمسقس وجاؤوا معه وأدخلوها هناك ثم قصد كلّ داره. وبعد أيام قلائل أي بعد مدة شهرين أو ثلاثة، ودون علم المغربيين نقلها إلى حرّان وأقام فيها سكناه ومع ذلك لم يطمئن من جهة المغربيين جميع أيام حكمه.

سنة 1058 ي

747 م

130 هـ

خرج دحق[111] (الضحاك) بشيعة من الحارورية (الخوارج) من

---

(109) في سنة 128 هـ نقل مروان بن محمد خزائن الملك وبيت المال إلى الجزيرة ونزل جرارة. (موضع من نواحي قنسرين) (**تاريخ الأزدي**، ص 68).

(110) يقصد بها دمشق عاصمة الدولة الأموية آنذاك.

(111) ورد في اليعقوبي: وافت الحرورية، ومعهم أبو حمزة المختار بن عوف الحروري الأزدي وكان أبو حمزة من قبل عبد الله بن يحيى الكندي الذي يسمى



مدينة الجزيرة. ولما أتى مروان إلى الجزيرة "كزيرا" لم يرتح فيها من البلايا والرزايا إذ خرج عليه شوك حاد (حسك) من أرض الجزيرة[112] وفي الوقت نفسه ظهر من جبل أزيل دحق (الضحاك) ويعقوب خيبري[113] وسفسي أيضاً، هؤلاء خرجوا ونشب قتال بينهم وبين مروان فقتل من جماعته خلق كثير. وقد أعلنوا هذه الحرب في أقاليم متفرقة. وأخيراً نشب بينهم قتال ضارٍ في تلّ مشريثا (تل العسكر) فقتل دحق (الضحاك) وجميع أتباعه وفرّ الباقون.

سنة 1059 ي

748

131 هـ

حدثت هزّة عنيفة وقوية في أرض الغرب، وكما قيل خوفاً تخاف الأرض وتتحرك كما تتحرك العرزالة. ومثل هذه وأكثر تجني الأرض من جراء الآثام والشرور والخطايا التي يصنعها العالم يومياً. أما عن أسباب الهزة الأرضية فمن أين آتي بشرح عنها، هل تضعف الأرض ولهذا تتحرك أو تهتز فتصرخ إلى باريها ليأتي ويجدد قواها؟ لا أظن! ولكنها تشتكي إذ تخاف من الأثمة الذين فوق سطحها كما فعلت جهراً منذ

طالب الحق... وخرجوا من المدينة وساروا يريدون الشام ولقيهم خيل لمروان عليهم عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي، فأوقعوا بها بوادي القرى فزحف الحرورية منهزمين إلى المدينة فقتلوا منهم مقتلة عظيمة... (اليعقوبي، ج 2، ص 339–340).

(112) لما ورد مروان الرقة يريد الضحاك، التقيا بموضع يقال له العدّ من أرض كفرتوتا فقاتله يومه... وفيها قتل الضحاك وبعث برأسه مروان إلى مدن الجزيرة يطاف به فيها. (الأزدي، تاريخ الموصل، ص 70–71).

(113) لما قتل الضحاك بايع عسكره الخيبري الذي شرع بقتال مروان ولكن عليه دارت الدوائر فقتل هو الآخر (انظر أخباره في الأزدي ص 71–76).



القدم، إذ حدث صوت مرعب ليلاً كصوت الثور حينما يصرخ ويسمع خواره من بعيد. ولما كان الفجر أمر الأُسقف بأن يجتمع الناس جميعهم ويخرجون للدعاء فخرجوا جميعهم إلى خارج المدينة إلى الهيكل الموجود هناك والمعروف باسم والدة الله في مدينة صبوغ بأرض الغرب وكانوا خلقيدونيين أيضاً لأن الأُسقف كان يقول إن السبب هو من جراء الخطايا وكان قد خرج معهم ماشياً أمامهم فلما وصلوا إلى الهيكل دخلوا جميعهم إلى داخله كالمعز في الحظيرة يصرخون ويصلون وفجأة حدث اهتزاز عظيم وسقط ذلك الهيكل عليهم وعصرهم جميعاً في معصرة واحدة وهكذا هلك الصالح مع الخاطئ.

سنة 1060 ي

749 م

132 هـ

صعدت شعوب فارس[114] إلى أرض سوريا واصطدموا مع جيش المسلمين[115]، عند عاقولا ولم يصمدوا أمامهم من حيث إنهم أقوى منهم فقتل منهم كثيرون والبقية هربوا وتفرقوا في الأرض وسلبوا منهم الأسلحة والأموال والخيول إذ كانوا راجلين (مشاة) ولم يكن بأيديهم إلّا العصي التي حاربوا بها[116].

---

(114) يقصد بهذه الشعوب جموع العباسيين العربية التي خرجت من فارس حيث إن الفرس كانوا الساعد الأيمن للعباسيين في هذه الحرب ضد الأمويين بقيادة أبو مسلم الخرساني نكاية بالعرب وللقضاء على الأمويين أصحاب الدولة العربية الصرفة.

(115) يذكر هنا نبوءات من سفر أشعيا النبي أهملناها لعدم تتطابقها والأحداث.

(116) وهنا يستشهد بفصل كامل من نبوءات يوئيل النبي وناحوم وغيرهما قاصداً القول إن تلك النبوءات هي رمز لهذه الأحداث مما لا تتطابق والتاريخ، إلّا أنه أوردها هناك لمجرد إخافة القارئ والسامع.



ولما استولى على الأرض الداخلية أرسل مروان عليهم ابن هبيرة إلى نصيبين[117]. وهذا أيضاً لم تكن له قدرة على مجابهتهم وهزموه شر هزيمة. ثم أرسل إليهم عبد الله بن مروان فقهروه أيضاً، فأدركهم مروان ونشب بين الطرفين قتال مروّع وقع على إثره قتلى كثيرون فارتوت الأرض من الدماء الغزيرة بين الزابين وهرب مروان وتبددت عساكره وفرّ هو عبر الفرات فأغلقت جميع المدن أبوابها بوجهه حتى إن المغربيين أرادوا محاربته وبهذا فقد كلّ أعوانه حتى أقاربه الذين لم يقتلوا وضعوا في السجون[118].

إن الفرس لما هزموا مروان تفرقوا في الأرض كذئاب الماء والبواشق الجائعة التي تنبأ عنها حبقوق وقال: ها إني أحرك الكلدانيين الشعب الجسور والقاسي... إلخ[119].

---

(117) وجّه مروان يزيد بن عمر بن هبيرة إلى العراق لحرب من بها من الخوارج. (انظر اليعقوبي، ج 2، ص 341. والطبري، ج 9، ص 78).

(118) يورد المسعودي وصفاً لهذه الحرب بقوله: «وسار مروان حتى نزل على الزاب الصغير وعقد عليه الجسر وأتاه عبد الله بن علي في عساكر أهل خراسان وقوادهم وذلك لليلتين خلتا من جمادى الآخرة من سنة 132هـ فالتقى مروان وعبد الله بن علي وقد كردس مروان خيله كراديس ألفاً وألفين، فكانت على مروان، فانهزم وقتل وغرق من أصحابه خلق عظيم بينهم ثلاثمائة رجل من بني أمية، وكان فيمن غرق في ذلك اليوم من بني أمية إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك المخلوع، وهو أخو يزيد الناقص وقد قيل في رواية أخرى: إن مروان كان قد قتل إبراهيم بن الوليد قبل هذا الوقت وصلبه وكانت هزيمة مروان على الزاب في يوم السبت لإحدى عشرة ليلة خلت من جمادى الآخرة في سنة 132هـ. (**مروج الذهب**، ج 3، ص 245). أيضاً انظر الطبري **تاريخ الأمم**، ج 9، ص 130–131 والأزدي في **تاريخ الموصل** ص 132–137).

(119) حبقوق.



ووُلّي عكي[120] (علي) عاملاً على الجزيرة وأصدر قانوناً بأن يلبس جميع المسلمين الثياب السوداء[121].

سنة 1054 ي

741 م

124 هـ

يوم الجمعة أول كانون الثاني/ يناير تساقطت النجوم من السماء شبه كرات من النار، وإلى جميع الجهات، وكانت علامة للخوف والضيق الذي سيحلّ بالأرض بعد الحرب الضروس والأوبئة التي وقعت.

سنة 1061 ي

750 م

133 هـ

لبس المسلمون الثياب البيضاء[122]، عندما رأوا البلايا تحلّ بهم من قبل الفرس الذين شرعوا يعاملونهم بالقسوة ويقتلونهم كالغنم وينهبون كلّ ما بأيديهم من أموال فلم يتحملوا كلّ هذا الهوان فبدلوا لباسهم إلى الأبيض، وقيل إنهم كانوا يستهزئون بالخلفاء والحكام، والعبد يحكم السيد، ويذلّ الأعزاء وراحوا يحتلون أراضي المسلمين ويطردونهم منها ويحلّون فيها، وإذ لم يحكم سنة كاملة حصلت فتنة عظيمة تمرد على

---

(120) يقصد هناك أول عامل في الجزيرة على عهد العباسيين.

(121) جعل العباسيون شعارهم السواد حينما رفعوا الرايات السود ضد الأمويين ولقد أسهب المسعودي في سرد هذه الحوادث (مروج الذهب، ج 3، ص 245–250).

(122) كانت هذه الثياب دلالة على الحزن العميق. انظر خبر هذا التبييض في الطبري، **تاريخ الأمم والملوك**، ج 9، ص 137–140.



إثرها بوريكا (نوركا) في شيعة حروريوثا (الحرورية)[123].

سنة 1062 ي

751 م

134 هـ

وسّع المسلمون الذين في ميافرقط[124] رقعة ديارهم وباشروا يسلبون وينهبون أهالي ذلك الإقليم وخاصة سكان الجبل، وصعد على إقليم قولب قورا (قره) بن ثابت وقبض على رؤساء الإقليم وقتل منهم سبعة. فلما سمع السكان ذلك ضبطوا أنفسهم وكانوا من سكان مدينة (فيس) لئلا تأتيهم البلايا الأكبر ونسوا قتلاهم... وإن شخصاً عاقلاً لبيباً مؤمناً بالله اسمه يوحنان بن ددي (ووب) من أهالي فيس، جمع جميع سكان الإقليم المسمى (إقليم فيس) وخاطبهم قائلاً: إنكم تعلمون أنه لا يوجد لنا ملك حتى يأخذ بثأر دمائنا، وإذا ما تركنا الحبل على الغارب ستسوء حالتنا وفي النهاية يطردوننا ويحتلون أرضنا ويسلبون أموالنا فما علينا إلّا بالاتحاد... أما الأهالي فلم يسمعوا له، إلّا نفر القليل تبعوه وأقاموه رئيساً لهم وقائداً، فدخل بهم الهيكل وأقسموا بالأسرار الإلهية أن يطيعوه بكل ما يأمرهم به ولا يعصون له أمراً وأن لا يتآمروا عليه أو يخونوه، فتشجع يوحنان وجعل المدبّر له الله عزّ وجلّ وأخذ جماعته وجعل منهم رؤساء عساكر، رؤساء الألف والمئة والخمسين، ورؤساء العشرة، وأقام منهم حراساً على الأبواب التي هي في مدخل الجبال.

---

(123) النص مبهم وغير مترابط، ثم لم نعثر على أثر لهذا التمرد بقيادة نوريكا هذا إذ لم نجد من بين زعماء الحرورية (الخوارج) واحداً بهذا الاسم في هذا الوقت.

(124) ميافريقين، بفتح أوله وتشديد ثانيه ثم فاء وبعد الألف راء وقاف مكسورة وياء ونون. أشهر مدينة بديار بكر... (**معجم البلدان**، ج 8، ص 214–218).



وفي هذه الأثناء برز رجل اسمه سودا قطع على نفسه عهداً مع رعاياه المسلمين الذين في ميافرقط أن يقضي على كلّ العصاة ويقطع رؤوس رؤسائهم، ويرمي الآخرين في قعر السجن المظلم. فلما تعاهد بهذا الوعد أخذ معه جيشاً جراراً وصعد إلى الجبل كمن يطلب معاهدة الصلح والسلام، إلّا أن يوحنان وجماعته كشفوا حيلته وهجموا عليه فجأة وقتلوا من عساكره الكثير، وهرب الباقون حفاة عراة ودخلوا مدينتهم بخجل عظيم ومنذئذ صارت بين الطرفين فتنة كبرى.

أما العامل الذي كان مقيماً ومنذ سنتين في حصن قولب، اتفق مع المسلمين والمسيحيين أن يترك يوحنان الجبل، غير أن هذا لم يأتمر بأوامره فحدثت بينهما فتنة عظيمة، والمسلمون كانوا يريدون أن يترك الجبل لئلا يتمرد معه الجبليون وتزداد قوته والمسيحيون كانوا يرغبون بنزوله لئلا يحتال عليهم وتنزل فيهم الكوارث، إلّا أنه عصى أمر الطرفين وأظهر عصيانه في الحصن وجمع له كثيراً من الأشقياء وشرع يسلب القرى وينهبها ويصعد بالغنائم إلى حصنه، ولقد هجم على غفلة من سكانها على آلول وفشفشط وفعل بسكانها سائر الشرور وأسر جميع السكان بعد أن نهب كلّ مقتنياتهم، وإذ كان الأتباع يسلبون ويقتلون، أرسلوا خبراً بالخفية إلى يوحنان أن أدركنا لئلا نُقهر ونُسبى، فلما سمع يوحنان بضيق إخوته خاف وجهز جيشاً كبيراً وبالسرعة الممكنة قصد ساحة القتال وإذا كان الليل قد أرخى سدوله، حاصر القرية ولم يدخلها وأرسل جنداً يأمرون السكان بالهرب من القرية قبل تدميرها فلم يطع السكان الأوامر، فهجم يوحنان بجنده وكانت نهايته في ذلك الهجوم إذ قتل في أثناء القتال ونال جزاء أفعاله الشريرة.

بعد هذه الواقعة برز رجل آخر من أتباع يوحنان اسمه سطفنا بن فولوس، وكان رجلاً شريراً قاسي القلب غليظ الرقبة، هذا الذي كان قد أقسم بالأسرار الإلهية بطاعة يوحنان، إلّا أن قلبه كان يميل دوماً نحو



المسلمين ويتعاطف معهم ضد المسيحيين، وذات مرة أرسل في طلب جيش من المسلمين ليغزو به بعض القرى المسيحية، ولما وصل عند إحدى القرى التي تدعى "حزرو" أعطى لهم كلمة السر وعلامة لتسليم يوحنان لما ينزل من الجبل إليهم، إلّا أن تدبيره هذا كان نقمة عليه إذ هو الذي وقع في الحفرة التي حفرها لسيده، والخطة كانت كما يلي: دخل القائد عوف واثنان آخران إلى دار واختبؤوا فيها وأعطاهم علامة أنه لما يدخل يوحنان هذه الدار فسوف يصفق فينهضوا من مخبئهم ويقتلوه وكان قد أقام جنوداً في كمين آخر على قرية حزرو. وأرسل مسرعاً إلى يوحنان رسولاً ليقول له: تعال وأسرع ولا تتهاون لنرى ماذا نفعل لأن العساكر قد أحاطت بنا من كل جانب. ولما كان يوحنان سليم القلب، أسرع إلى المجزرة كالخروف وهو لا يدري شيئاً حتى إذا اقترب من الدار، حضر إليه حسب إرادة الله رجل مؤمن يخاف الله وأطلعه على السر وأخبره بالحيلة. فرجع إلى الوراء قليلاً، وبينما كان أولئك ينتظرون فريستهم، أرسل هو عسكراً وهم لا يدرون أنه على الباغي تدور الدوائر وأحاطوا بالدار من كلّ جانب وهجموا عليها ولم ينج منهم أحد، وأتوا بالخوازيق ووضعوهم عليها. ولما شعر سطفنا بالأمر ركب هو وأتباعه الخيول مسرعين إلى الخارج إلّا أن الجند تبعوهم وأدركوهم وقتلوهم، غير أن سطفنا نجا بنفسه وقصد المدينة ولم يعد يتجاسر بالظهور خارجها أو أن يقصد الجبل، فازدادت المصائب والنكبات بين سكان الجبال والمسلمين ولا يمر يوم واحد من دون قتال، لا بل إن أهل الجبليين ضبطوا الأبواب وأوصدوها في وجه المسلمين حتى لم يعد في كلّ الجبال مسلم واحد، إلى أن ظهر لهم ممهد آخر أورطي الأصل اسمه غريغور، خرج على قومه في أتباع كثيرين وقاتل مع أبناء نهر حرّا (ابن حرّا) وقتل منهم خلقاً كثيراً والبقية قطع أيديهم وأوصالهم وعذّب أجسامهم، فمنهم من قطع آذانهم وآخرون أنوفهم وغيرهم كوى عيونهم



بالنار وسحلها، والأسرى والغنائم سلمها ليوحنان.

وفي بلاد الشرق خرج يوركا بأتباعه الحرورية.

وفي بلاد الرُّها خرج عبيد الله بن بوختري فارتكب بالناس بلايا كبيرة وخاصة في بيت معدا إذ قبض على وجهائها وشواهم كالسمك على النار وقتل غيرهم بحد السيف ونهب أموالهم وذهبهم. والديورة التي في أرض الرُّها وحرّان وتلّلا فجميعها قد خرّبها مع قرىً كثيرة مثل، دير قوبا[125]، ودير مار لعازر وبيت معدا ودير مار هابيل[126]، ودير مار ميكس ودير سنين[127] مع قرى أخرى. وهكذا هذا المنافق صبّ جام غضبه على الديورة والكنائس وكان دائماً يهدد الديورة الشرقية والشمالية بالخراب ليصنع فيها نقمة أبيه الشيطان.

عن الشتاء القارس

حلّ بالأرض شتاء قارس، وتلاه اثنان آخران تساقط الثلج فيهما حتى هلكت المواشي والحيوانات والطيور من شدة البرد، وتراكم الثلج فوق الأرض خمسة أشبار ودام على وجه التراب تسعين يوماً، وفي السهول سبعين يوماً، حتى كاد كلّ ذي جسد أن يفنى. وأخرج الناس

---

(125) دير قوبا: أو دير القبب في لحق جبل الرُّها في جنوب بيعه مار قزما، أُنشئ في أوائل القرن الخامس ودمره ابن البختري عام 751. وأعيد بناؤه فخرج ثلاثة أساقفة حتى سنة 873. (**اللؤلؤ المنثور**، ص 513).

(126) لم نجد ديراً بهذا الاسم، إنما هنالك دير باسم مار إبراهيم وهابيل بالقرب من بلدة مذيات وهو دير قديم عامر بُني هيكله حول سنة 761 ونشأ منه ثلاثة أساقفة. (**اللؤلؤ المنثور**، ص 508). وقرية بهذا الاسم «دير هابيل» في كورة سعرد. (**اللؤلؤ المنثور**، ص 516).

(127) دير سنين وقيل أيضاً سنون، بالقرب من الرُّها ذكر سنة 512 وسنة 565، وخرّبه الغاشم عبدالله ابن البختري سنة 751 م. (**اللؤلؤ المنثور**، ص 511).



ما اقتنوه من حنطة ومؤونة وقدموه علفاً للدواب لئلا تموت من الجوع، ولما انتهت الحنطة هلكت الحيوانات هي الأخرى كالجراد، حتى إن لحومها لم تعد تؤكل. كان البرد شديداً والجليد قاسياً وهطل على الأرض بَرَد عظيم الحجم وتراكم الثلج على أشجار الزيتون والكروم فيبست ولم يبق شيء إلّا وهلك. وأظلمت الأرض أياماً عديدة حتى إن المرء كان بالكاد يبصر أثر أقدامه. وتجمدت الأنهار، حتى صار البشر والدواب يعبرون فوقها ولا يخشون السقوط في الماء. كما جمدت مياه دجلة حتى قيل إن قافلة من الجمال عبرت فوقه ولم يتأثر تحت أرجلها، ودام الأمر هكذا بالفتن والأوبئة الفتاكة ثلاث سنوات متتالية حتى كادت الحياة أن تفنى في أراضي الشمال.

فصل عن الجوع الذي حصل في هذه السنين وعن الشعب الأرمني والأورطناوي إذ خرجا إلى سوريا

لما كان الثلج قد تراكم فوق الأرض أياماً كثيرة، فإن الزروع التي نبتت تحت الثلج تعفنت ويبست، وعندما ذاب الثلج نبت الشوك والأدغال وتمت فينا كلمة النبي القائل: ملعونة الأرض من سببك فإنها تنبت لك الشوك والحسك. وإن حرثتها لا تعطي لك الثمر... وقال آخر: أزرعُ حنطة وأحصدُ شوكاً، عوض الحنطة نبت القرطمان، وعوض الشعير نبت الحسك، وعوض العدس والباقلاء والحمص نبتت لنا الأدغال، والزرع الذي نبت وارتفع قليلاً سقطت عليه آفة اليرقان والهواء السام فأهلكاه، وعندما ذاب الجليد أصابه المنّ والدودة فأماتاه، وكنا نأخذ عشر سنابل ونفركها فلا نجد فيها حبة واحدة سليمة بسبب السموم، والحقول كلها يبست، وبدت حمراء إذ كان الداء الذي أصابها أحمر اللون... ولأجل هذا كان عاموس النبي يصرخ: إني ضربتكم بهواء



السموم واليرقان والبرد، وأكثر جنائنكم وكرومكم وتينكم وزيتونكم أكلته آفة الماشوط (دودة تفسد الزرع) ولم ترجعوا عليّ يقول الربّ: وأرسلت عليكم الموت وقتلت بالسيف شبّانكم وشيوخكم، أصعدت رائحة جيفتكم في وجوهكم.

بيعت الحنطة في هذه السنة المكيال بدينار، ثم ارتفع حتى صارت كلّ سبع حفنات بدينار واحد.

فصل عن المنّ والدودة التي صارت بالأرض بهذه السنوات

عندما حلّ أوان الحصاد والناس ينتظرون شمالات الزرع (باقة من الزرع) ظهر في الأرض دود كثير صعد على سنابل الحنطة والشعير وكل نبات أخضر وكان يمصها فتذبل الزروع وتيبس، حتى إن الحنطة التي كانت سنابلها سمينة كانت فجأة تيبس وخاصة التي لم يكن فيها قشرة ويتبدل لونها فدعاها الناس المنّ والدودة حيث لم تكن نوعاً واحداً ولا شكلاً واحداً بل كانت منها طويلة ومنها صغيرة ومنها خفية وملونة بألوان كثيرة. وكان الحكماء يقولون: إن هذا كان كالغضب الذي أرسله الله على المصريين أيام موسى.

كما أنه كثر الماشوط (الجندب) فأمات الكروم وأكل الأشجار المثمرة حتى إنه لم يكن يُمشى على الأرض لكثرته، بل كان كالبساط مفروشاً على كلّ الأرض.

أما الجراد فحدّث عنه ولا حرج إذ أتى وأكل كلّ الحقول فأباد أكداس الحنطة وكان بلاؤه أكثر من بلاء المنّ والدودة، فكان إذا دخل الحقل الجيّد والسمين أذابه وكأنه لم يكن. وكان المرء يأخذ سنبلة يظنها سمينة فإذا فركها وجدها كالطحين. وإن زُرعت لا تنبت لفسادها حتى



إن الآفة اخترقت باطن الأرض. وهكذا أباد الجراد كلّ الجنائن والحقول وكل نبات أخضر فتمت كلمة النبي يوئيل: انصتوا يا سكان الأرض... ازداد الجوع ولم توجد حنطة.

فصل عن الشعب الأرمني والأورطي

الذي خرج إلى سوريا بسبب الجوع في البلاد

لما أرسل الله تجارب كثيرة في نذير الحنطة والشعير والكروم بسبب خطايانا وآثامنا التي نفعلها كلّ يوم، واشتد الجوع في بلاد أرمينية وبلاد الأورطيين بسبب هلاك مزروعاتهم إذ لم يبق لديهم شيء لمعيشتهم والذي لا يرضى بالبر فيأتيه السموم، وإذا شتل المرج في الحر فإنه في البرد ييبس... هاجر جميع سكان أرمينية إلى سوريا خوف الجوع، وإن كانوا قد نجوا من أمام الغضب سقاهم الربّ المياه المرّة وأطعمهم الخبز بمرارة وعرق الجبين وفرقهم بين الشعوب التي لا تعرفهم، وأرسل وراءهم السيف والسموم والجوع والموت حتى كملت فيهم كلمة الربّ... حلّت بنا كلّ هذه الهموم فخرجوا وملؤوا الأرض، المدن والقرى والأديرة، وباعوا كلّ ما يملكونه ليشتروا لهم خبزاً، وسُلّط عليهم الوباء وداء الطلوع (القروح) ومرض البطن، فمات أكثرهم حتى إنه لم يكن بينهم مَن يتمكّن مِن دفن الموتى وأينما ذهبوا كانت يد الله عليهم بالسوء، إذ سلط عليهم كلّ الضيقات والنكبات وأبادهم عن وجه الأرض.

مات في هذه السنة نفسها من ديرنا المسمى دير زوقنين اثنان وأربعون شخصاً، عدا الغرباء نتيجة الوباء الذي حلّ في كورتنا.

سنة 1063 ي

752 م



135 هـ

عاد الفرس[128] في عساكر كثيرة إلى الأرمن وقاتلوهم وانتصروا عليهم، كما خاضوا القتال الشديد مع مسلمي الموصل[129]، وعاكولا (الكوفة) وقتلوا الكبار والصغار. وصعد عبد الله بن محمد[130] أخو ملك الفرس[131] وقاتل بوريكا عند مدينة دارا وهزمه، ففرّ بوريكا من أمامه. ولما سمع عبد الله بكل ما فعله مسلمو ميافرقط بمسيحيي بلادهم وما فعله أيضاً المسيحيون بالمسلمين أرسل رسلاً إلى يوحنا ونزل إليه إلى حرّان فاستقبله بكل فرح وعظمة وأكرمه بهدايا جزيلة وأقامه رئيساً على إقليمه وأرسله إلى هناك.

وكان صالح من صبيح قد صعد ودخل أرمينية وأخذ رهائن من سكان الجبل وجعلهم في ميافرقط، وحدث هذا قبل أن يصعد يوحنا من حرّان من عند عبد الله وأخذ منه كتاباً لكي يعطوا له كلّ رهائنه. فلما صعد بيّن كلّ المشاحنات التي كانت بينهما إذ إن مسلمي ميافرقط كانوا

(128) استعماله لمصطلح الفرس هنا خطأ، إذ إن دولة الفرس كانت قد زالت وقامت الدولة العباسية بعد سقوط الدولة الأموية، فالمقصود هنا هم «العباسيون».

(129) يقول الأزدي: إن سبب قتل أهل الموصل، أن أبا العباس عبد الله بن محمد بن علي قلّد الموصل رجلاً يقال له محمد بن صول (مولى لخثعم) فلم يقبل أهل الموصل ولاية ابن صول وقالوا: ما نرضى أن يكون أميرنا مولى لخثعم ومنعوه من الدخول إلى الموصل (ص 145-146) فأقام شهراً لا يظهر لأهل الموصل شيئاً ينكرونه، ولا يعتب عليهم فيما فعلوه ثم دعاهم دعوة فقتل منهم اثني عشر رجلاً فنفر أهل الموصل وخرجوا بالسلاح فأعطاهم الأمان، ونادى مناديه: من دخل المسجد الجامع فهو آمن فأتى الناس يهرعون فأقام الرجال على أبواب المسجد فقتل الناس قتلاً ذريعاً أسرف فيه. وهناك رواية أخرى يرويها الأزدي أيضاً. وعن هذه المذبحة طالع عنها بالتفصيل (الأزدي ص 145-154).

(130) كان الوالي على الموصل وأعمالها يحيى بن محمد أخا أبي العباس (الأزدي، ص 154).

(131) يقصد به أخا الخليفة العباسي.



قد أعطوا الرّهائن لصالح بمثابة رشوة حتى يشعل الحرب مع يوحنا. ولما طالب يوحنا برهائنه كان صالح يماطل، كلّ يوم يؤجله إلى الغد وهكذا بقي زمناً طويلاً فانتشرت فيهم الأمراض المختلفة ومات كثير منهم في السجون. وسبب المماطلة، أن صالحاً كان يبتغي أن يحصل على حجة ليعلن معه الحرب فيتخلص من سيطرة مسلمي ميافرقط. الآن يوحنا أرسل رسلاً إلى عبد الله إذ كان أميراً على الجزيرة. وفي اليوم الذي كان يستعد فيه صالح لأن يشنق يوحنا على المشنقة - إذ كان قد قبض عليه - دخل إليه رسول وأخرجه من السجن وقصد حرّان هو وسطفنا بن فولوس إذ كان مقيماً فيها. وسطفنا هذا ضربه الله هناك بنقمته فمات. أما يوحنا فأرسل كتاباً وأخرج جميع الرّهائن من سجون صالح[132].

سنة 1064 ي

753 م

136 هـ

خرّب الفرس (العباسيون) المدن، ولما عادوا ثانية كانوا قد استولوا على كلّ الحصون، فأمر الملك بنقض أسوار جميع المدن في سوريا وجمع لهذه الغاية كلّ الحدادين والمهنيين ونقضوا جميع الأسوار، وأحرقوا كلّ أبوابها - تلك التي صرف الملوك القدماء المبالغ الطائلة لبنائها - ثم أخذوا النحاس والحديد الذي فيها. أما الآن فنقضت

---

(132) حرّان بتشديد الراء وآخره نون يجوز أن يكون فعالاً... مدينة عظيمة مشهورة من جزيرة أقور وهي قصبة ديار مضر، بينها وبين الرُّها يوم وبين الرقة يومان وهي على طريق الموصل والشام والروم... وفتحت في أيام عمر بن الخطاب على يد عياض بن غنم. نزل عليها قبل الرُّها. (معجم البلدان، ج 3، ص 241-243).



من أساساتها. فكملت نبوءة النبي القائل: إن الأسوار العظام سينقضونها ويخرّبونها... إلخ. وكذلك قال عزرا القارئ عن هدم الأسوار، وعن الحية المعوجة التي نقضتهم... إلخ.

سنة 1065 ي

754 م

137 هـ

نهب كوشن الأراضي الشمالية. وكوشن هذا كان رجلاً أرمنياً من أرمينية الرابعة[133]. فلما انهزم مروان وفرّ هارباً، أخذ جميع أهل بيته وما يملكه ودخل بيت رومايا[134]. ولما كان كوشن رجلاً عاقلاً، أقامه قوسطنطينوس قائداً للجيش. وفي هذه السنة خرج كوشن أيضاً بقوة كبيرة وغزا طوراصهيا (الجبل العطشان) ونهب وسبى جميع القرى في واديه ولم يترك شيئاً إلّا وأخذه سوى أنفس الناس بقيت لدى أصحابها، ومضى بالغنائم كلها إلى بيت رومايا[135].

(133) يقول البلاذري عن قوم من أهل العلم بأمور أرمينية، ورددت من بعضه على بعض قالوا: كانت شميشاط وقاليقلا وخلاط وأرجيش وباجنيس تدعى أرمينية الرابعة (فتوح البلدان، ج 1، ص 231).

(134) أظن أنه يقصد بعبارة «بيت رومايا» أرض الروم (أرضروم) أو الأناضول.

(135) ورد عن مشايخ أهل قاليقلا قولهم: لم تزل مدينة قاليقلا منذ فتحت ممتنعة بمن فيها من أهلها حتى خرج الطاغية في سنة 133 هجرية فحصر أهل ملطية وهدم حائطها وأجلى من بها من المسلمين إلى الجزيرة. ثم نزل مرج الحصى فوجه كوسان (كوشن) الأرمني حتى أناخ على قاليقلا، فحاصرها، وأهلها يومئذ قليل وعاملها أبو كريمة. فنقب أخوان من الأرمن من أهل المدينة أي مدينة قاليقلا ردماً كان في سورها وخرجا إلى كوسان (كوشن) فأدخلاه المدينة فغلب عليها فقتل وسبى وهدمها وساق ما حوى إلى الطاغية وفرّق السبي على أصحابه. (البلاذري، فتوح البلدان، ج 1، ص 236). وأظن أنه يقصد بلفظة قاليقلا اسم مدينة قيليقية أو كيليكية القائمة حتى الآن.



سنة 1066 ي

755 م

138 هـ

خرج أيضاً كوشن الرمني على أرض هنزيط بعساكر كثيرة رومان وأورطيين فلما سمع عكي الذي كان أميراً على الجزيرة في هذه الفترة جمع للقائه عساكر كثيرة من الفرس والمسلمين (العباسيين) وأقام قائداً عليها ابنه وأرسله لمحاربة كوشن. وإذ كان هذا الصبي يفتخر متكبراً بقوة جيشه التقى الجمعان، ودارت دوائر الحرب، فكان الصبي يذمّهم لأن الطفولة قريبة من عدم تطبيق الأصول فلم يكن يميّز بين الخير والشر، إلّا أن الشيوخ الذين كانوا معه قد دربتهم الحياة واختبرتهم الحروب فيعلمون أحوال القتال وفنونه أشار على القائد الصبي لا تغرّنك العجالة، ولا تستعجل الأمور لأن عدوّنا رجل مرّنته الحروب وهو بطل لا يعرف الارتداد إلى الوراء حتى إن حركات الأرض ومخابئها يعرفها بكل أسرارها حيث إنه ولد فيها ونشأ بين ظهرانيها. أما الصبي فرفض مشورة الشيوخ – كرحبعام الولد الجاهل – إنما أخذ برأي الجهال الذين تربوا معه. ولما كان يرغب في أن يصنع له اسماً وشهرة بالانتصار، راح يسرع بإعلان الحرب والاصطدام، إلّا أنه عوض أن يصنع له شهرة، صنع له اسماً مذموماً مغلفاً بالخجل والعار على مرّ الأجيال، حيث إنه لما اصطدم بجيش كوشن والقتلى يتساقطون من الطرفين، هجم كوشن على الفرس الذين شرعوا بالهرب والهزيمة أمامه عدا الذين قتلوا بحد السيف وهرب ابن عكي القائد الصبي عارياً على ظهر فرسٍ عار اندفع كالريح لشدة خوفه، هرب تاركاً وراءه الغنائم لقمة سائغة بأيدي الروم، هكذا حلّ بالذي أراد الشرف والانتصار، لبس ثوب الخزي والعار له ولآل بيته



وعوض من أن ينهب ويسلب ويأسر، نُهب هو وسُبي وأُسِر الكثيرون من أتباعه.

واشتهر في هذا الزمن آباء ورعاة للأرثوذكس، كالقدّيس مار يهونيس بطريرك أنطاكيا، والقدّيس مار ميخائيل بطريرك الإسكندرية الكبرى، والقدّيس مار طيمثاوس أُسقف الرُّها وقوسطنطينا أُسقف ماردِين، وداويذ أُسقف دارا الذي ارتقى أخيراً إلى البطريركية. كما اشتهر في ميافرقط أثناسيوس الملقب سندليا[136]. وهذا بنى ديراً معروفاً في جبل تلبشمن ويعرف أيضاً بدير أثناسي وأخيراً بقي أيضاً بطريركاً. واشتهر في آمد مار أبي من دير مار حبيب الأرزوني والقدّيس ساورا الذي ذكرناه سابقاً من دير زوقنين، وكان قد بطل عن إدارة المدينة وهو حي بسبب ثقل بصره ولم يتمكن أن يرى جيداً وأقيم مكانه مار آبي. واشتهر مار يوحنا أُسقف قلنقوس وهذا أشعل في الكنيسة اضطرابات كانوا يتكلمون عنها في زمنهم. وبعد القدّيس مار يهونيس بطريرك أنطاكيا، قام واحد من الرهبان اسمه إسحق[137] من دير قرتمين، وهذا

(136) هو أثناسيوس الرابع السندلي الذي أوردنا ذكره في ترجمة أيونيس الرابع وكان هو مطران ميافارقي وتهذب في دير قرتمين وتقلد زمام البطريركية بأمر أبي جعفر كسالفه (إسحق) ولما حظي بالفرمان ورجع إلى حرّان، همَّ أن يرسم عبدني تلميذ إسحق سالفه مطراناً للحرّانيين فأبوا ودخلوا عليه ليلاً وخنقوه سنة 758 م، فأتى رهبان دير قرتمين وأخذوه ودفنوه لديهم. وقال ابن العبري: «لا يجمل أن نذكر هذين البطريركين إسحق وأثناسيوس الرابع في السلسلة لاختراقهما حرمة النواميس البيعية وارتسامها غير الشرعي» وإنما أدرجناهما نحن لأنه لم يكن بطريرك غيرها في عهدهما. (**الزهرة الذكية**، ص 41، رقم 70).

(137) هو إسحق الذي لم يدرجه ميخائيل الكبير في السلسلة كونه تقلد البطريركية في رأس العين بأمر أبي جعفر ووضع عليه السيد يعقوب الضرير أُسقف راس كيفا. وكان إسحق من دير قرتمين وسُقّف على حرّان بيد أبونيس سالفه وسكن زماناً في دير البروج بالرُّها ويروي أنه فتك غيلة براهب غريب وزجّه في بئر عميقة ولم تمر على بطريركيته سنة حتى أمر به أبو جعفر فخنق وألقي في الفرات فحقّ فيه المثل «ردّ كيده في نحره» (**الزهرة الذكية**، ص41، رقم 69).



جعل مقر إقامته في الرُّها بسبب شغله بعلم الكيمياء في الذهب والفضة، فأحبه الأمير عبد الله[138]، والي الجزيرة الذي أصبح فيما بعد خليفة، ومن فرط محبته ساعده أن يعتلي كرسي بطريركية أنطاكيا بعد مار يهونيس. (تعليق: إن الدرجات التي تؤخذ من غير استحقاق تكون عاقبتها سيئة، حيث اعتلى سريعاً خشبة المشنقة كيهوذا، إذ لم يكن مقبولاً لدى الناس، ولذا لم تطل مدة رئاسته والذي أكرمه هو الذي احتقره وأهلكه، حتى إن مصير جثته لم يعرف، إذ لم يستحق أن يدفن من قبل الشعب، وهذا هو جزاء المنافقين فالشيطان مستعد أن يعطي أتباعه كلّ شيء وفي النهاية يستحقون الهلاك والاحتقار).

وخلفه الطاهر مار أثناسيوس سندلي (الآنف الذكر) أُسقف ميافرقط الذي لم تطل أيامه فعاجلته المنية وآخرون غير ذلك. ونحن لا نتمكن أن نقول ما هو خفي عنا إلّا أن ذلك سنتركه لله لأنه هو الذي يعلم الخفايا، فأخذوا جثته ونقلوها من حرّان إلى جيره ودفن هناك. وخلفه القدّيس مار كيوركي من دير قنشرا[139].

---

(138) ولّى أبو العباس أبا جعفر أخاه الجزيرة والموصل والثغور وأرمينية وأذربيجان. (انظر **تاريخ اليعقوبي**، ج 2، ص 358).

(139) دير قنشرا أو دير قنسرى أو دير قنسرين: باسم توما الرسول على شاطئ الفرات مقابل بلدة جرابلس. أُنشئ حوالي سنة 530 واستفاضت شهرته وكانت له أيامٌ غرٌّ زهر إلى القرن التاسع، وحوى أيام عمارته ثلاثمائة وسبعين راهباً، أحرقه بعض الخوارج فرمّمه ديونوسيوس الأول وأعاده إلى سيرته الأولى سنة 822. عضد الكنيسة بسبعة بطاركة وخمسة عشر أسقفاً حتى سنة 930 وأُلحق بأبرشية سميساط حول سنة 1025 والأظهر أنه ظل عامراً حتى صدّر المئة الثالثة عشرة ثم عصف الدهر بأهله وتنكرت معارف أطلاله. (**اللؤلؤ المنثور**، ص 513).
وورد عنه في معجم البلدان للحموي: «دير قنسرى على شاطئ الفرات من الجانب الشرقي في نواحي الجزيرة وديار مضر مقابل جرباس. وجرباس شامية وبين هذا الدير =



صل عن المجمع الذي عقد يوم ارتقاء كيوركي بطريرك أنطاكيا في مدينة مبوغ على الفرات

ثار قلق وشغب كثير يوم ارتقاء إسحق البطريركية، وكذلك يوم اعتلى الكرسي أثناسيوس سندليا وراح الناس يطعنون فيهما وبالكنيسة وخاصة أن ارتقاءهما كان بأمر الحاكم القاسي مع أسباب أخرى لا تسمح لنا العدالة بأن نسردها في هذا الكتاب ولا في غيره. فبعد وفاة أثناسيوس الطاهر رغب جميع رعاة الكنيسة أن يقيموا لهم رئيساً قبل أن يبذر الشيطان بذور الانشقاق والأنانية أو يقعوا بيد حاكم ظالم فتكون العاقبة أسوأ من البداية فيكثر الاضطراب والاضطهاد في الكنيسة كتلك التي حصلت فيها. وقد قيل عن بعض الصدّيقين أن الفخ الذي كانوا يخافون الوقوع فيه، وقعوا فيه شرّ وقعة، ولم يرتاحوا ويهدؤوا حتى اضطربت أحوال الكنيسة إذ أراد جميع الرعاة أن يجتمعوا من الموصلين والجزيرة والمغرب، فاجتمعوا برأي واحد ونفس واحدة وباتفاق كلي. كما رغب الرعاة أن يجتمع الناس الفاضلون والمؤمنون في مدينة مبوغ في هيكل مار توما. وبعد مباشرة الاجتماع بيوم واحد أو يومين وبعد أن ناقشوا كثيراً من القضايا، حتى إن الواحد كان يشيد بفضل رفيقه - ظهر رجل من دير قنسرين مزين بالحياء والأخلاق الحسنة تقي مؤمن، عالم فاضل اسمه كيوركي[140] في رتبة الشماسية منذ قيامه بالدير، وعليه قرّ رأيهم

=ومنبج أربعة فراسخ وبينه وبين سَروج سبعة فراسخ فهو دير كبير كان في أيام عمارته فيه ثلاثمائة وسبعون راهباً، ووجد في هيكله مكتوباً:

أيا دير قنسرى كفى بك نزهة	لمن كان بالدنيا يلذّ ويرطب
فلا زلت معموراً ولا زلت آهلاً	ولا زلت مخضراً تزار وتعجب

(**معجم البلدان**، ج 4، ص 165)

(140) هو جورجي أو جرجس الأول. ولد في بعلتان بحمص وقرأ العلوم في دير قنسرين وارتسم شماساً وفي كانون سنة 758 اجتمع الأساقفة في منبج ورسموه =



واتفقوا بطيبة نفس واحدة وقلب واحد - وكان بعيداً عنهم - فانتخبوه من هناك وأرسلوا في طلبه أناساً فاضلين وجاؤوا به إليهم - إلى المجمع - وأكدوا بأن الجميع متفقون عليه وقدموا له رقة مختومة بأختامهم وخط أيديهم، وكان الأساقفة المجتمعون في مجمع الانتخاب هم:

يوحنا أُسقف قلينقوس، طيمثاوس الرُّهاوي، داويذ أُسقف دارا، أبي أُسقف أمد، سركونا أُسقف مردين، سطفنا أُسقف حبورا، قوسطنيطنا أُسقف شميشاط، قوريقا من طور عبدين، ديونسي من حرذان، إيليا أُسقف سنجار، ومن الموصل فلوس التكريتي، وزكى من كرمى، يونان من نوهدرا، مع آخرين كثيرين من المغرب.

ولما كمل ختم الكتاب واستعدوا لوضع اليد عليه كما هي العادة في الكنيسة لم يهدأ الشيطان ليتمّ السلام في الكنيسة إنما زرع بذرة الشرّ في قلب أحد الرهبان وحلّ فيه، وراح هذا بدوره يلقي الشغب والانشقاق بين الرعاة والشعب، وكان اسم هذا الراهب يوحنا الذي أصبح كحيّة حواء، ينفّذ إبليس من خلاله كلّ مقاصده إذ جعل نفسه شحاذاً يدور على الدور يطلب الصدقة والمساعدة حتى استطاع أن يتعرّف على كيوركي

= بطريركاً. فضغن عليه الأسقفان داود الداري ويوحنا الرَّقِّي لخبث طويّتهما وأغريا بعض أساقفة ما بين النهرين فرسّموا أحدهما، أي يوحنا، بطريركاً وأقام أربع سنوات ومات فخلفه زميله داود الداري بطريركاً وتوجه إلى الخليفة أبي جعفر وشنّع على جورجي البطريرك الشرعي ودبّر على هلاكه. فأمر أبو جعفر بضربه فضرب ثلاثاً وكان يستمنح القوة من العذراء. وعلى إثر ذلك أقام ثلاثة أيام صائماً في دار الخليفة ثم سرّحه وأمر بالمناداة باسم داود بطريركاً. أما اليعاقبة فدحضوه ورفضوه خفية. وجورجي هذا حبس تسع سنوات مع يعقوب جاثليق النساطرة وثاودريط بطريرك أنطاكيا الملكي وبواسطة مطران نصيبين النسطوري فك المنصور الخليفة أسرهم وكتب جورجي في حبسه ميامر ومداريش بديعة. ولما أطلق توجه إلى تكريت وجال في ما بين النهرين ووصل إلى أنطاكيا ورسم فيها عشرة أساقفة ثم رحل إلى دير برصوماه بملطية وفيه زايل الدنيا سنة 790 وله تفسير متّى الرسول (**الزهرة الذكية**، ص 42 رقم 71).



المنتخب معرفة تامة فزامله وصادقه، ومن ثم تقرّب وتودّد إلى الأساقفة الذين من الجزيرة وخاصة الذين هم من دير قرتمين وقال لهم: كيف تنتخبون، وتقيمون عليكم بطريركاً يحقد على ديركم وقد سمعته يقول: لو كنت مسؤولاً لكنت قد محوت اسم دير قرتمين ودير أثناس من وجه الأرض. وهكذا كان هذا الراهب المشاغب يثير القلق ويحرّض الآباء الأساقفة على نبذ كيوركي المنتخب. ولما كان هؤلاء الأساقفة لا يعرفون كيوركي المعرفة الكاملة صدّقوا أقوال الراهب ولم يميزوا أن أعماله أعمال شيطان فقاموا مسرعين وركبوا عجلاتهم، وبالخفية سحبوا أنفسهم من الاجتماع وعادوا كلّ إلى أبرشيته. أما الذين مكثوا فلما علموا أن رفاقهم سافروا، خافوا جداً وفزعوا، أولاً، خوف إثارة الاضطراب والفتن في الكنيسة إذا ما نصّبوا المنتخب من دون حضور رفاقهم. وثانياً أنهم قد دعوا الرجل وقرّبوه إليهم، وكان من المؤمل أن يحدث الاضطراب في الكنيسة لأنه لم يكن لدى المعارضين حجج كافية يستندون إليها إلّا بعدهم عن مكان الانتخاب والمنتخب. وأما الذين بقوا، الصالحون والطالحون منهم، فقام بهم صوت الضمير في أمر هذا الشماس المنتخب ولذا قاموا ورسموه بطريركاً وكان المشهور فيهم هو طيمثاوس الذي من الجزيرة من الرُّها، وآبي من آمد، وقوسطنطينا من شميشاط ويوحنا من قيليقوس مع بقية الموصليين وأساقفة الغرب جميعهم. أما الذين سافروا منذ أول الاضطراب فكانوا كمن يحرك الحجر ولذا قصد كلّ بلده. إلّا أن الشيطان لم يكتف بهذا إنما راح يزرع الفساد بينهم، وهكذا انقسموا ثانية حيث إن أساقفة الجزيرة أقاموا لهم بطريركاً يوحنا أُسقف قلنيقوس من دير قرقفته[141] (الجمجمة) الذي نقض العهد ورفض الطاعة التي قدمها للمنتخب حيث وقع في حب

---

(141) دير قرقفتا: بين رأس العين والمجدل في الجزيرة العليا، بناه مار شمعون واشتهر أمره في غرة القرن الثامن ودعم الكنيسة بستة أساقفة حتى منتصف القرن العاشر وقد دثرت معالمه منذ عهد عهيد.



الرئاسة، لذا سعى أن ينصب بطريركاً وأفلح فيما سعى إليه، ومن هنا شرع يسمع الشتم والسب والاحتقار من جميع أبناء الأديرة وكثير منهم حرّموه وحرّموا كلّ من يقدّم الطاعة له فأصبح سبباً للاستهزاء والاضطراب في الكنيسة إلى اليوم حتى وصل بهم الأمر إلى السجون والمرافعات أمام الحكّام.

فتصور أيّها التلميذ أيّ بلايا حلّت بالكنيسة ورؤسائها من جراء ذلك الراهب الشرير الذي كمّل عمل الحية الخبيثة، وأدخل القلق في الكنيسة بمشورته الملتوية.

سنة 1065 ي

754

137 هـ

مات عبد الله بن محمد[142] ملك الفرس (خليفة العباسيين)،

---

(142) هو أبو العباس السفاح عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب بويع له بالخلافة ليلة الجمعة لثلاث عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الآخر من سنة اثنتين وثلاثين ومائة... وكانت خلافته أربع سنين وتسعة أشهر وعشرين يوماً، مات بالأنبار في مدينته التي بناها وذلك يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ستة وثلاثين ومائة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة... (**مروج الذهب**، 3/ 251) وهنا يدعوه المؤلف خطأً بلقب ملك الفرس وذلك لأن الثورة العباسية انطلقت من خراسان واشترك فيها وبدور مميز الفرس بقيادة أبو مسلم الخراساني والتفوا حول هذه الدولة الفتية فظنها أنها دولة الفرس وهذا ما شيّعه الفرس أنفسهم طمساً لدور العرب المميّز بطابعهم العربي.



وطلب الرئاسة عبد الله أخوه[143]، وعبد آخر ابن عمه علي[144]. وبهذا اصطدموا فسقط كثير من القتلى لأن المسلمين وأهل الغرب (الجزيرة) كلهم كانوا يتبعون ابن علي ويقدمون له الطاعة ويريدون أن يجعلوه ملكاً عليهم، فلبس جميعهم البياض وخرجوا وراءه. لكن أهل فارس والخراسانيين مالوا إلى عبد الله بن محمد فنشبت الحروب في كلّ مكان وسفكت الدماء الكثيرة من جراء ذلك وأخيراً اصطدموا بالقرب من نهر حَشَا بالقرب من مدينة نصيبين، فدام القتال بينهم أياماً كثيرة، وقع فيه قتلى كثيرون من الطرفين وبالنهاية انتصر أبو مسلم الخراساني[145] (الفارسي) على عبد الله بن علي وفرّ الأخير هارباً وأخيراً هلك واستولى على المملكة عبد الله بن محمد[146] سنة...

وفي أواخر أيام ابن علي، صنع الله معجزة عظيمة، إذ إن كوكباً عظيماً ومفزعاً ومخيفاً سار خارقاً الفضاء، ثم خرّ في نصف النهار وسط عساكر ابن علي شبه قرص من نار. فلما رأى المسلمون هذا فقدوا أملهم

---

(143) هو أبو جعفر المنصور عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب. بويع له بالخلافة يوم الأحد لاثنتي عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة ستّ وثلاثين ومائة هجرية.... وكانت وفاته يوم السبت لستٍّ خلين من ذي الحجة سنة ثمان وخمسين ومائة هجرية فكانت ولايته اثنتين وعشرين سنة إلا تسعة أيام... ومات وهو ابن ثلاث وستين سنة ودفن بمكة... (مروج الذهب، ج 3، ص 281).

(144) هو عبد الله بن علي، عم المنصور الذي قام بثورة ضد المنصور في الجزيرة الفراتية، ثم ألقى المنصور القبض عليه وسجنه وطال حبسه تسع سنين... ولما أراد المنصور الحج في سنة تسع وأربعين ومائة هجرية حوله من عنده إلى عيسى بن موسى وأمره بقتله، وأن لا يُعلم بذلك أحداً... (مروج الذهب، ج 3، ص 305).

(145) أبو مسلم الخراساني، قائد وداعٍ فارسي. كان أحد أقطاب الحركة الدينية السياسية التي أدت إلى انهيار الدولة الأموّية وقيام الدولة العباسية. حارب تحت راية العباسيين فاحتل مرو سنة 747 والكوفة سنة 749. كان تأثيره الروحي على أتباعه في خراسان كبيراً. قتله المنصور الخليفة العباسي الثاني (754-775).

(146) يقصد به أبو جعفر المنصور... سنة 754 م.



بالانتصار، فأظلمت عيونهم ولم يتمكنوا من الصمود إذ ظنوا أن ذلك علامة من الله فلم يثبتوا بساحة القتال.

سنة 1066 ي

755 م

138 هـ

أعطت أشجار التفاح وغيرها من الأشجار المثمرة ثمارها في تشرين، كما في نيسان/ أبريل وأيار/ مايو. وكانت زروع هذه السنة خصبة في كلّ الأرض.

سنة 1067 ي

756 م

139 هـ

يوم الثلاثاء الثالث من آذار/ مارس، وقعت هزّة عظيمة. وفي منتصف الليل بأرض الجزيرة، غارت في باطن الأرض ثلاث قرى وحدث من جراء ذلك شبه عمود كثيف من الدخان، وجميع السكان الذين كانوا بتلك الكورة عُصروا كالعنب في المعصرة. وذكر أن أماكن أخرى ضربتها الهزة لكثرة الخطايا (فخراباً تخرب الأرض وذوباناً تذوب وترتجف كالغزالة من جراء خطايانا...)

سنة 1070 ي

759 م

142 هـ



اختلف الشرقيون في مبدأ الصوم، فمنهم جعلوه في الثامن عشر من شهر شباط/ فبراير والنهاية في اليوم السادس من شهر نيسان/ أبريل. وآخرون جعلوا مدخل الصوم في اليوم الخامس والعشرين من شهر شباط/ فبراير وانتهى في اليوم الثالث عشر من شهر نيسان/ أبر يل. وهكذا اختلف جميع المسيحيين علماً أنهم عيّدوا عيد القيامة في وقت واحد ومكان واحد، فكانوا يصنعون الشعانين معاً وبالأحرى يفرحون معاً، وفي هيكل واحد يصنعون الفصح والشعانين، وكثير من هؤلاء كانوا يميلون إلى القسوة ولا يصومون سوى ستة أسابيع، وقد دخلوا مع الآخرين وبدؤوا مع الأولين وكثيرون آخرون توسطوا وخلصوا من الاختلاف الذي حدث حيث باشروا مع الأولين وانتهوا مع الآخرين[147].

سنة 1071 ي

760 م

143 هـ

في شهر آذار/ مارس وفي الثاني والعشرين من الشهر شوهدت علامة بيضاء في السماء قبل الفجر من جهة الشمال الشرقي من برج الحمل. وفي الشمال من هذه الكواكب الثلاثة التي هي رمز الأقوياء. وكانت العلامة تشبه بشكلها المكنسة، وكان الحمل برأسه بالدرجة الأولى، ويليه النجوم السيارة قرونس وآريس عجّلت سيرها إلى الجنوب، ودامت العلامة خمس عشرة ليلة حتى فجر عيد العنصرة، كان رأسها الكبير كثير الضوء، وكان يُرى في رأسه كوكباً ماثلاً طرف الشمال،

(147) مازالت مسألة الاختلاف بالصوم وعيد القيامة قائمة حتى اليوم بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية.



أما الطرف الثاني كان عريضاً ومظلماً جداً وكان يميل نحو الجنوب، وكانت تسير رويداً رويداً إلى جهة الشرق الشمالي وهذا هو شكلها:

وصباح اليوم الثالث بعد العنصرة ظهرت في المساء من جهة الشمال الغربي ودامت مدة خمسة وعشرين مساءً وكانت تسير قليلاً قليلاً نحو الجنوب ثم غابت ثم شوهدت في الجهة الجنوبية الغربية، وهكذا دامت أياماً كثيرة وغابت.

في هذا الزمن حدث في الكنيسة انشقاق كبير من جراء الرئاسة إذ إن الديورة الشرقية أقاموا لهم بطريركاً اسمه يوحنا، إلّا أن مدن الجزيرة لم يوافقوا عليه ولم يقدموا له الطاعة مع جميع الأديرة الأخرى. أما الأساقفة الغربيون والموصليون فاتفقوا على تنصيب كيوركي بطريركاً، ولهذا السبب اضطربت الكنيسة كلها(148).

سنة 1072 ي

761 م

144 هـ

مات القدّيس مار طيمثاوس أُسقف الرُّها... وخلفه أحد الرهبان الحبساء الذي كان يسكن في إحدى القرى بذات الإقليم المعروفة باسم

---

(148) في هذه الفترة قام بطريركيان غير شرعيين وهما إسحق الذي لم يدرجه ميخائيل الكبير في السلسلة كونه تقلّد البطريركية في رأس العين بأمر من أبي جعفر المنصور العباسي ووضع عليه اليد يعقوب الضرير أسقف رأس كيفا. وأثناسيوس الرابع السندلي الذي أوردنا ذكره في حياة أيونيس الرابع (انظر الحاشية رقم 114 من هذا الكتاب) وتقلد البطريركية بأمر أبي جعفر المنصور كسالفه.



قرية بيت قدونا[149]، واسمه شمعون. ونصب أُسقفا لنقاوته وفضائله وخاصة بمحبته للفقراء والمساكين فقدم جميع أهالي الرُّها الطاعة له وطلبوا أن يكون راعياً لنفوسهم، ولما أبى كسروا الباب عليه إذ كان منزوياً في محبسه وهدموه وذهبوا به إلى كيوركي البطريرك ليرسمه لهم راعياً. ولما كان هذا الطاهر شمعون راغباً في الأعمال الهادئة والنقية كرهبان الأديرة كأنه ليس أُسقفاً ورئيساً لرعية لم يوافق عليه أن يذهبوا به هكذا للرئاسة. ورغم إلحاح كيروكي وبكاء الرُّهاويين أمامه لم يرض بالأُسقفية، وأخيراً قبضوا عليه بالقوة ورسموه من دون موافقته، وأشهد كيركي عليه السماء والأرض والله والملائكة أن لا يترك رعيته ومدينته وينتقل إلى محل آخر. وهكذا ألزمه بالمكوث والقبول تحت وطأة القسم الثقيل بأن لا ينتقل ولا يفر، فأخذوه وجاؤوا به إلى الرُّها فخرج كلّ الرُّهاويين لاستقباله باحتفال وفرح عظيمين وإذ أقام في المدينة يوماً أو يومين لم يأكل خبزاً ولم يشرب ماء حتى كادت حياته أن تزهق، فطلب منهم أن يسمحوا له بأن يخرج ويجعل مقرّه في أحد الأديرة الموجودة بجبل الرُّها حيث قال: إن مناخ المدينة لا يوافقني وهكذا استجابوا لطلبه وقصد ديراً في جنوب المدينة بقرية يدعى بيت يلدات آلاها (بيت والدة الله) فكان الأكليروس والرؤساء الرُّهاويون يقصدونه في الدير المذكور طالبين منه بانكسار قلب أن يرجع إلى المدينة ويستلم زمام الأمور فيها. أما هو فكان يرفض بشدة قائلاً: إذا قُدّمت للموت أو شُنقت فلن أتقلّد هذا الأمر إلى الأبد فاتركوني وشأني لاسم الله تعالى، وأقيموا لكم أُسقفاً آخر ترغبونه ويرغب أن يعيش بينكم. أما الرُّهاويون

(149) في معجم البلدان للحموي وردت القدونين بضم أوله وثانيه وسكون الواو ثم نون مكسورة وياء ساكنة ونون أخرى. موضع في بلاد الروم عن العمراني. (معجم البلدان، 7: 37).



فكانوا لا يريدون إزعاجه من أجل محبتهم له، وهكذا مضى فصل الشتاء وهو صامد في قلايته يأبى الدخول إلى المدينة حتى إنه رفض أن يقيم رسامة كاهن أو شماس أو أن يحتفل لهم وعندهم بأي عيد... ومع ذلك فهم لا يتركونه بعيداً عنهم لأنهم كانوا يلتهبون بمحبته ومودته حتى إن الهراطقة والمسلمين من سكان الرُّها كانوا يحبونه فائق المحبة، وأخيراً أطاعوه واقتنعوا لرأيه وطلبوا منه أن يختار هو لهم إنساناً تقياً مؤمناً ليكون أُسقفاً عليهم عوضه، وعلى هذا أيضاً لم يطاوعهم إذ كان يقول: إنكم شعب قاسٍ، فاختاروا أنتم لكم أُسقفاً، وأما أنا فلا تأملوا مني شيئاً. وأما هم فلسبب عدم رغبتهم بفراقه، ألقوا عليه هذا الأمر، فلم يوافق أبداً بل رفضه بشدة. وأخيراً حينما تيقن أنه لا يمكنه التهرب من المهمة الملقاة على عاتقه ولا يمكنه مغادرة الدير (الديار) قال لهم: أعطوني عهداً بالله أن تقبلوا وتطيعوا كلّ من آتيكم به وأيضاً لن أبتعد عنكم، فدخلوا جميعاً الهيكل وأقسموا له اليمين. فصادف أن رجلاً هادئ الطبع متواضع، قد زينته الفضائل الإلهية كان يقيم في (دير) زوقنين في إقليم آمد اسمه أنسطوس الكوشي (الحبشي)، هذا الراهب انتخبه الأُسقف شمعون واختاره من بين كُثُر لكي يستلم مكانه رغم بعده عنه وعدم رؤيته له بالجسد، وشهد له أمامهم بأنه لا يوجد مثله بين الرهبان في الفضيلة والاستقامة، وكتب رسالة لهذا الفاضل وللشيوخ الكرام من أبناء ديره يدعوهم فيها لمقابلته، وأرسل إليه أيضاً رسلاً أفاضل من جماعته يحملون رسائل ذات عروض مغرية، ومع ذلك لم يرضخ لدعوتهم أو النزول معهم، كذلك رهبان الدير الذين معه لم يقبلوا رغم دعوته مراراً عديدة من قبل الرسل الذين قصدوه فكانوا يرجعون خائبين، وأخيراً ضمّ الرهبان صوتهم إلى صوت الرسل بذهابه إلى الرُّها واقتباله الرسامة الأُسقفية، غير أنه رفض ذلك رغم التضرعات والتوسلات، كما أنه لم يكن يرضى أن يذموا الفاضل شمعون. وأخيراً تحت وطأة الإلحاح رضخ



للأمر الواقع هو وتلميذه وقصدا الرُّها عند المطران شمعون في قلايته على الجبل، فاستقبله بفرح كبير، وحال وصوله أرسل المطران يطلب أكابر المدينة وأعيانها بالخفية، ولكن الفاضل الراهب أنسطاس لم يكن يدري ما يجري وراءه من الاتصالات الشخصية بشأنه. وحينما اجتمع الأعيان مع المطران قال لهم إن الرجل الذي وعدتكم به ها قد حشر، فخرج الكبار والصغار مسرعين نحو الجبل للقائه، وعندما شاهدوه فرحوا به جداً، ومن ثم كتفوه بالحبال لئلا يذهب إلى مكان آخر. وعندما شاهد الراهب أنسطاس ما حدث له خاف وفزع جداً وتغيّر لون وجهه وأصبح كأحد الأموات، وشرع يلقي اللوم على أبناء ديره الذين أشاروا عليه بالنزول وبالأخص على الأُسقف شمعون الذي راح يحاول إقناعه باقتبال الرسامة، فلم يقتنع فتآمروا عليه بأن يأخذوه بالقوة إذا ما نجح بالتدبير، ويقصدوا به البطريرك فيرسمه أُسقفاً. أما هو فلما اطلع على هذا التدبير الذي دبره له الرُّهاويون، قام ليلاً يرافقه تلميذه وهرب عائداً إلى ديره. أما الأُسقف البار مار شمعون فعندما رأى أن الفاضل أنسطاس قد سافر طلب من الرُّهاويين أن يطلقوا سبيله لأنه قد كمَّل وعده لهم فسمحوا له بالمغادرة، وانتقل إلى دير شمشيطا، وأقام هناك حتى كملت أيامه وهو يستقبل المساكين والفقراء إذ كان ملاذاً لجميع المتضايقين وخلفه في الأُسقفية زكريا من دير...(*) وهذا أيضاً كانوا قد أنزلوه من العمود الذي كان عليه يتعبد...

سنة 1075 ي

764 م

(*) هذه النقاط دلالة على أجزاء تالفة ومفقودة من المخطوطة الأصلية وجميع مواضع تكررها في هذا الكتاب لها الدلالة نفسها.



حاق وباء عظيم بالخيل في كل الأرض حيث سرى من أقصاها إلى أقصاها فعمّ جميع الممالك والأقطار، وانتشر فيها أسرع من لمح البصر، وأباد بمدة قصيرة كلّ الحيوانات والبهائم، وبالنسبة إلى الخيل مثلاً كنت تجد قطعاناً كبيرة منها تبلغ أحياناً الثلاثمائة رأس ترعى معاً وعندما تأتي لتستقي الماء من الوديان والسواقي أو الخباري (البرك) كانت تسقط ميتة كل عشرين دفعة واحدة حتى امتلأت الوديان والبراري من جثثها وجافت الأرض من رائحتها الكريهة. وكان نوع هذا المرض كالمرض الذي ظهر بين البشر وأبادهم وكان يسمى مرض الورم، وبالسريانية يدعى (شرعوطا) إذ كان يظهر في الرقبة (الحلق). وقلّ من الحيوانات ما سلم إلّا بالمئة واحد. فمات من الخيل والبغال والحمير عدد كبير، ولم يبق عند الناس إلّا النزر القليل وكادت الأرض أن تخلو منها.

إن العلامة التي سبق ذكرها وظهرت في السماء كشبه المكنسة هي التي سببت هذا الوباء وقد أصبح واضحاً أمرها إذ كنست البهائم والدواب من على وجه الأرض كما تكنس الدار. وقد فسّر الحكماء والمؤمنون تلك الظاهرة بأنها غضب الربّ على البشر إلّا أن رحمته الواسعة ألقت الوباء على البهائم إذ إنها لا تخطئ ولا تُغضب الله بأعمالها وخطاياها كما قال عنها عاموس النبي: «بالقتال شبانكم وفي الفقدان حيواناتكم، وأصعدت رائحة جيفتكم على وجوهكم (أنوفكم) ولم ترجعوا إليّ يقول الربّ»[150]. وأيضاً ميخا النبي قال: «في ذلك اليوم أهلك بهائمك على وجهك وأبيد جميع مركباتك»[151]. (حقيقة أن

(150) عاموس

(151) ميخا



الخيول ماتت ومركباتها فنيت من الأرض وإن خطايانا هي التي فعلت بنا ما هو فوق الحد بأطباع لا منطق لها).

سنة 1072 ي

761 م

144 هـ

أرسل عبد الله بن محمد[152] ملك الفرس جيشاً بقيادة ابن وهب مع حدادين وبنائين من كلّ الجزيرة وبنى مدينة ميلاطينا (ملطية) في قفادوقيا بعد أن بقيت خربة ثمان سنوات، وجاء إليها بالسكان والنساك وأسكنهم فيها فعادت أكثر عمارة وهدوءاً مما كانت عليه[153].

سنة 1076 ي

765 م

148 هـ

في اليوم الرابع من شهر كانون الثاني/ يناير المصادف الجمعة

(152) يقصد به الخليفة أبو جعفر المنصور العباسي ولقد أشرنا إلى خطأ المؤلف في أماكن عديدة أن الفرس كانت دولتهم قد سقطت منذ أمد بعيد.

(153) تحركت الخزر بناحية أرمينية ووثبوا بيزيد بن أسيد السلمي، فكتب إلى أبي جعفر يعلمه أن رأس طرخان ملك الخزر قد أقبل إليه في خلق عظيم، وأن خليفته قد انهزم فوجه إليه أبو جعفر جبريل بن يحيى البجليّ في عشرين ألفاً من أهل الشام وأهل الجزيرة وأهل الموصل فواقع الخزر فقُتِل خلق من المسلمين... ثم أخرج سبعة آلاف من أهل السجون، وبعث فجمع من كلّ بلد خلقاً عظيماً، ووجّه بهم وبفعَلة وبنائين فبنى مدينة كَمْخ ومدينة المحمدية ومدينة باب واق وعدة مدن جعلها ردّاً للمسلمين وأنزلها المقاتلة فردوا الحرب... (انظر اليعقوبي، ج 2، ص 372).



سقطت الكواكب من السماء إذ باشر النهار بالظلام وشرعت النجوم تظهر في الجو. وخرج من وسط السماء كوكبان تراءيا للمشاهد كأنهما يقتتلان كما يتقاتل البشر، أو يقيمان الجهاد بينهما، ومن ثم سقطا وهما بهذه الحالة وانحدرا باتجاه المشرق. وبعد أن سقط هذان الكوكبان وتلاشيا بدأت النجوم الأخرى تتساقط وكانت لدى سقوطها تشبه الأقراص النارية. واستمرت هذه الحالة طوال تلك الليلة، فتمت كلمة المخلص إذ قال: «ستظلم الشمس ويتغير لون القمر كالدم، والنجوم تتساقط من السماء مع قوات كثيرة أخرى. ولكن لن تكون الآخرة بعد»[154]؛ وكل من يقرأ هذه ليدرك ويستلهم العبرة ويتأمل في الاضطرابات التي حلّت بالعالم من جراء الكنائس وليتأمل ما جرى بسبب كيوركي وداويذ البطريرك الذين أوقعا المسيحيين جميعهم بعضهم ببعض أو من أجل ما احتمل الناس من الحاكم القاسي فلجؤوا إلى الهروب من مدينة إلى مدينة ومن إقليم إلى إقليم، ومن قرية إلى قرية. وقال أيضاً: «ويكون ضيق شديد لم يحدث مثله منذ خلق العالم حتى اليوم فصلّوا إذن لئلا يكون هروبكم في الشتاء. الويل إذن للحبالى والمرضعات في تلك الأيام»[155]. اقرأ إذن أيّها القارئ واعتبر وانظر أي شرور حدثت في العالم، وها إننا سجلناها في أزمانها.. أي ضيقات وعذابات وضربات وانشقاقات، أي اضطهادات وأي سبي وأي سرقات، وأي أنواع الكفر والتجديف يصدر عن البنين والبنات، أي انقسامات تحدث بين النساء وأزواجهن، وأي أشكال من الجوع وأي أوجاع من جرّائه، أي أوبئة وأي زلازل، فهذه جميعها أيّها القارئ حدثت بعد سقوط تلك النجوم، مع العلم أن جميع

(154) إنجيل متى 24: 29.

(155) إنجيل متى 24: 19 – 21.



الشعوب والأمم تظاهرت بالضعف ووقعت أمام الحاكم القاسي الذي لم يتمكن أحد أن يقف بوجهه.

في هذا الزمن وقعت في حرّان المدينة ما بين النهرين شعوذة دينية إذ كان لهم دير شرقي مدينة حرّان يبعد عنها نحو ميل واحد، وكانوا يقيمون في هذا الدير مجزرة عظيمة في كلّ سنة مرة واحدة، إذ يقدمون الذبيحة وإن أُسقفهم المنافق كان يقيم فيه، وفيه يعيّدون عيدهم الكبير، ويقومون بألاعيبهم السحرية، فكانوا بحسب شريعتهم يلقون القبض على رجل ما، ويسجنونه مدة سنة لحين حلول العيد، وفي يوم العيد يذبحونه ويأخذون رأسه ويجعلون في فمه درهماً، ويضعونه في الطاقة الخاصة ويسجدون له ومن ثم يشرعون بالألاعيب السحرية. وإذ اقترب يوم عيدهم الكفري، وأرادوا أن يأتوا برجل يعدّ للسجن ليكون لهم الذبيحة القادمة، كتب رؤساء الميتانيين (العدديين) هؤلاء بطلب ذلك، وخرجوا إلى سوق حرّان ولما وجدوا رجلاً يليق بذبيحتهم وبهم، قبضوا عليه وقالوا له: خذ لك أجرة مقدار ما تريد، وخذ هذه الرسالة وأوصلها إلى الدير الفلاني وسلّمها بيد رئيس الدير، وكانت هذه حيلة شيطانية سببت قتل الرجل إذ لم يكن يدري بالمؤامرة ونتائجها. فسار كالخروف إلى المجزرة - سار بظلفه إلى حتفه - ومشى مسرعاً فوصل الدير واقترب من باب الدير وطرقه وسأل عن رئيس الدير لمقابلته، فدعوه إلى الداخل وقالوا له: تفضل لنخبر الرئيس. فلما علم الرئيس بمقدم الرجل خرج إليه مسرعاً واستقبله بكل بشاشة وإكرام وفرح عظيم وقال له: هلمَّ ادخل واسترح قليلاً، ثم كلّ الطعام (الخبز) وخذ أجرتك واذهب بسلام. ولما دخلوا بالرجل من غرفة إلى غرفة، من الأولى إلى الثانية والثالثة... والسادسة والسابعة الواحدة ببطن الأخرى، حتى وصلوا عند الرجل الذي كان سجيناً من قبل عام ومعدّاً لكي يكون ذبيحة العيد



المقبل وأمروه قائلين: اجلس عند هذا الرجل، وتركوه وخرجوا، فقال ذلك الرجل السجين لهذا الرجل القادم إليهم: الويل لك، ماذا دهاك، كيف وقعت بالفخ فاصطادوك، إنهم فعلوا ذلك بي أيضاً، فلما جئتُ إلى هنا وجدتُ شخصاً آخر جالساً هنا كما وجدتني أنت الآن، فذبحوه في عيدهم، وهو ذا رأسه في الكوة وقد أشعلوا أمامه قنديلاً ويسجدون له ويصنعون سحرهم فيه. وهكذا سيفعلون بي في عيدهم القادم وهم الآن يستعدون لقتلي، وتبقى أنت جالس في محلي إلى موعد العيد القادم تنتظر الموت، ومن ثم سيذبحونك أنت أيضاً ويأتي آخر ليأخذ محلك وهكذا هم في كلّ عام. فإذا أردت أن تنجو من الموت اسمعني جيداً؛ عندما يستعدون لقتلي، قف إلى جانبي، وحينما يقع رأسي على الأرض، أسرع بالتقاطه ودمي لايزال يسيل منه واذهب مسرعاً إلى باب الدير الخارجي، فإذا ما نادوا عليك وأجزلوا العطاء لك لقاء تركك رأسي، ورميه لهم، فلا تلتفت إلى ندائهم ولا تلقي الرأس أبداً. وإذا ما أرادوا القبض عليك فرش الدم السائل من الرأس بوجوههم فيهربون منك.

وحينما حان وقت الاحتفال بالعيد ودنا وقت قطع رأس الرجل تقدم هذا وبكل جسارة، والتقط رأس صديقه وهرب مسرعاً نحو الباب وهم وراءه يتوسلون ويتضرعون إليهم بترك الرأس جانباً وهو يرفض رغم الهدايا والأمنيات التي طرحوها أمامه، إضافة إلى ذلك لم يخف تهديداتهم ولا وعيدهم، ولم يتمكنوا من القبض عليه ولا أن يتقدموا نحوه، وهكذا، وبقدمين أسرع من الريح، قصد أمير الجزيرة عيسى، وقصّ له ما جرى له ورمى أمامه الرأس، فلما عرف عيسى بما حدث أرسل من يقبض على أولئك الأشرار جميعاً رجالاً ونساءً وأطفالاً، وصادر كلّ ما كانوا يملكونه من أموال، وعذبهم بعذابات مختلفة وأخذ منهم أكثر من أربعمائة أو خمسمائة ألف حوايج!...



سنة 1076 ي

765 م

148 هـ

يوم الجمعة الرابع عشر من آذار/ مارس فارق هذا العالم ساورا الطاهر أُسقف آمد ووضع جثمانه في ديره.

في هذه السنة اجتمع المجمع المسكوني لأساقفة الجزيرة والموصليين والمغربيين في قرية سَروج، وأقاموا السلام والوفاق مع كيروكي البطريرك بعدما توفي يوحنا أُسقف قلنيقوس الذي أقامه أساقفه الجزيرة بطريركاً؛ وفي هذا المجمع حُرم جميع الأساقفة الذين نالوا درجة الأُسقفية بيد يوحنا (البطريرك) الذين رسّموا بوضع يده. حرموا ليس من ناحية الإيمان بل لكيما يصبحوا أساقفة شرعيين حسب الناموس الإلهي والرتب الكنسية المعنية، ولكيما يقدم لهم الطاعة سكان الأماكن التي رسموا لها، ولكنهم في الحقيقة لم يكونوا يستحقون درجة الأُسقفية، إذ كانوا قساة القلوب، كالذئاب الخاطفة لا رحمة لهم على الرعية، وقد سبق بولس الرسول وأخبرنا أن هؤلاء هم الأشجار الشريرة الذين أثمروا ثماراً شريرة وأطعموها للكنيسة وأبنائها، هؤلاء الذين تكلمنا عنهم في زمنهم. وفي هذا المجمع قدم الطاعة أساقفة الجزيرة الموصليون والمغاربة مع رؤساء أديرتهم ومدنهم لكيروكي بطريرك أنطاكيا ومنهم: داويذ أُسقف دارا، أبي أُسقف آمد، سركونا أُسقف مارِدِين، قوسطنينا أُسقف شميشاط.

سنة 1077 ي

766 م



149 هـ

كان جمع غفير من النساطرة قد صعد إلى دير بيت كولا الذي على جبل قردو ليقيموا فيه حفلة العيد كما هي العادة عندهم في ذلك الإقليم أو المكان الذي رست فيه سفينة نوح[156]، وفيما هم مجتمعون للاحتفال بالعيد في منتصف تشرين الثاني/ نوفمبر، حدث برق قوي في السماء وسقطت صاعقة شبه النار ووقعت في هيكلهم فأحرقته بمن فيه وصارت حجارته كلساً من شدة الاحتراق فلم ينجُ حتى الذين في الخارج فهلك جميعهم ولم ينج أحد. وكان عدد الذين احترقوا بهذه النار أكثر من سبعمائة أو ثمانمائة نفس من البشر، عدا البهائم التي كانت بحوزتهم وهكذا انتشرت رائحة جيفهم في تلك الكورة مسافة ميلين ولم يتمكن الناس من الاقتراب من ذلك المكان مدة سنتين. (ويعلق المؤلف على هذه الحادثة بقوله: في هذا المكان الذي صار فيه خلاص الجنس البشري والحيوانات والبهائم وكل دبيب من مياه الطوفان، هو ذاته صار فناء للناس والبهائم التي معهم بالنار التي نزلت من السماء بشكل صندوق فيه أواني الناموس) وهكذا هنا أيضاً كولا لم تنجُ الهيكل الذي بُني على اسمها تذكاراً لها، ولم ينج حتى الكهنة ولا أواني الأسرار التي فيه. وهكذا عصروا جميعاً كالكرم في معصرة الهلاك، ولم ينج أحد من الذين كانوا على الجبل، وكانت السماء تُرى كالسحابة التي تمطر كبريتاً وناراً كما أمطرت على سادوم فأصبح ذلك الجبل كعمود آتون ودخان. وإذا نجا واحد فنصفه محترق، وإن رائحة الكبريت تلك التي أمطرتها السحابة كانت تشمّ من مسافة ميلين أو ثلاثة. وهذا ما صنعه الربّ بالشعب النسطوري في أيامه.

---

(156) يقول الكتاب المقدّس (سفر التكوين) إن سفينة نوح رست على جبل أراراط الواقع شمال تركيا الحالية بينها وبين أرمينية.



سنة 1074 ي

764 م

146 هـ

في شهر آذار/ مارس حدث فيضان عظيم في نهر دجلة خرّب الحدود وصنع خسائر فادحة في مدينة الموصل إذ فاجأها في الهجعة الأولى من الليل، ففاضت المياه ودخلت إلى الأسواق الثلاثة وأهلكت أناساً وبهائم كثيرة وجرفت من البيوت العديد. وظهرت وسط المياه جزر يابسة كانوا يقصدونها بواسطة القوارب (الأبلام) التي تطوف على المياه. وكانوا يعبرون فيما بينها بواسطة الزوارق. وهذا حدث أيضاً في كلّ المناطق التي أراضيها منخفضة.

سنة 1078 ي

767 م

150 هـ

في هذه السنة قصد جيش المسلمين والفرس أرض الشمال[157]. وإن أمير الجزيرة عيسى[158] وهو أخو الملك (الخليفة) صعد إلى مدينة الرُّها وطور عابدين وعلى تللا كوما (التل الأسود). وإن حسن بن قعطبا[159] قائد الجيش الآخر مع قائد جيش الملك المدعو ابن

(157) يقصد المؤلف جيش الدولة العباسية المتكوّن من العرب والفرس.

(158) هو عيسى بن موسى بن محمد ابن أخ الخليفة أبو جعفر المنصور.

(159) هو الحسن بن قحطبة الطائي أحد عمّال أبو جعفر المنصور (اليعقوبي، 2: 384).



أسعد[160]، قصد أهالي دجلة ومدينة آمد بعساكر كثيرة لا تحصى. ولما مرّوا بطريقهم على مدينة آمد ما بين النهرين مات قائد الجيش ابن أسعد[161]. وكان في هذا الجيش مختلف الأجناس من الناس بالصورة والدين، فمنهم من كان يسجد للنار، وآخرون للشمس إذ كانوا ينهضون منذ الفجر ويسجدون لجهة الشرق، وفي الظهر يسجدون لناحية الجنوب والمساء يتجهون نحو الغرب. وآخرون يعبدون القمر، وآخرون النجوم وغيرهم الحيوانات (الخيل والبغال) وآخرون يعبدون القمر، وآخرون أنواع الأصنام التي كانوا يحملونها معهم ويسجدون لها. ومنهم كانوا يسجدون للإنسان بذات الضلالة التي هم متمسكون بها منذ القديم ومازالوا متمسكين بها حتى هذا الوقت. ولأن هذا الجيش كان يضم جميع الأجناس من كلّ الشعوب كان يسمى جيش الكمال للملك، فكان يضم أقواماً من السنديين والألانيين والخزريين والماديين والفرس والعاقوليين والمسلمين والكوسيين والأتراك. ولذا يمكننا أن نقول إنه الزحّاف بكل أنواعه. ولنفاق هؤلاء ونجاستهم الفائقة الحد، ولئلا يتنجس لسان القارئ وأذن السامع فإننا نعدل عن ذكر أخبارهم كي لا يتدنس الفم بقراءتها والتلفظ بها، إلّا أنني أظن أن الله تعالى أخرجهم من أرضهم لأنهم تركوا عبادة الله الخالق وسجدوا للأوثان. ولهذا جعلهم

---

(160) هو محمد بن الأشعث (البلاذري، فتوح البلدان، ج 1، ص 220).

(161) لما كانت سنة 149 هـ شخص المنصور عن بغداد حتى نزل حديثة الموصل. ثم أغزى منها الحسن بنن قحطبة وبعد محمد بن الأشعث وجعل عليها العباس بن محمد وأمره أن يغزو بهم كمخ. فمات محمد بن الأشعث بآمد، وسار العباس والحسن حتى صار إلى ملطية فحملا مها الميرة ثم أناخا على كمخ، وأمر العباس بنصب المنجنيق عليه فجعلوا على حصنهم خشب العرعر لئلا تضر به حجارة المنجنيق ورموا المسلمين فقتلوا منهم بالحجارة مائتي رجل، فاتخذ المسلمون الدبابات وقاتلوا قتالاً شديداً حتى فتحوه، وكان مع العباس بن محمد بن علي في غزاته هذه مَطَر الورّاق. ثم إن الردم أغلقوا كَمْخ. (البلاذري، ج 1، ص 220).



بأشكال مختلفة. فاسم الله قبل اسم الشمس والنور بل كيف يكون النور، وهو الذي خلق النورين الكبيرين، الأول للنهار، والثاني له سلطان على الليل، والنور هذا الذي خلقه لمنفعة البشر، هؤلاء صنعوا من مصادره آلهة وسجدوا لها من دون السجود لله خالقها. وضلّ الآخرون بالغرباء فأغضبوا الله بأصنامهم وقدموا الذبائح للشياطين من دون الآلهة. فجاؤوا إلى هذه الأماكن لكي يلقيهم الربّ بين سكان هذه الجبال الشمالية ويبتليهم بأمراض مختلفة، وأيضاً يسقطهم في حد السيف والوباء والجوع ويقدم أجسادهم طعاماً لحيوانات البرية وطيور السماء. فدخلوا واتجهوا إلى الأرض التي بين الحدود فوجدوا أنها ذات خيرات وفيرة، فيها من الفواكه من كلّ جنس إضافة إلى أنها غير مسكونة، ولما كانت هذه الشعوب بلا شريعة تجرؤوا للاستيلاء على هذه الأرض، وراحوا يأكلون من دون أن يشبعوا، فوقعوا جميعهم بالأمراض المختلفة وخاصة مرض البطن والطحال فشرعوا يهربون، وأينما سقطوا تُركوا من دون أن تدفن جثثهم فكثرت الجثث في الطرق والسواقي وعلى الروابي طعاماً للحيوانات الوحشية كذلك دوابهم هلكت وخاصة الجمال فلقد كان الواحد يملك لدى دخوله خمسين أو ستين جملاً، فأصبح بين يديه لدى خروجه خمسة أو ستة أو بلا شيء تماماً. ولما دخل مروان والعساكر كلها إلى الحصن الذي هو على الحدود ويدعى قمح[162] فإن الحدادين الذين دخلوا معهم من كلّ الجزيرة وبواسطتهم بنى عيسى الحصن المدعو زايد، وأرسل عيسى وجلب له عجلات أرمنيات، ونقل بها أخشاباً كثيرة من الصنوبر، فصنع النجارون منها المنجنيقات وأقاموا على الصخرة مقابل الحصن كي يهاجموه. وإن الروم كانوا قد دخلوا الحصن وأقاموا عليه المنجنيقات قبالة منجنيقات المسلمين. والروم

---

(162) هو حصن كمخ وهي مدينة بأرض الروم لها حصن (**معجم البلدان**).



المسجونون بالحصن فكانوا يصنعون لهم أسلحة ولكن غير صالحة، والسور الذي أقاموه كان ضعيفاً، وهؤلاء كانوا يقولون إنه لا يوجد خلاص من دون الله والأحسن لنا أن نتوكل على الله ولا نتكل على الإنسان أو السلطان، بالحقيقة إن الشعوب أحاطوا بنا ولكن سنبيدهم باسم الربّ. وكان رئيس ذلك الحصن آنئذ يدعى سركيس، وكان رجلاً طيباً وهادئاً يتقي الله رحوماً على المساكين، وهذه شهادة أفاد بها جميع أصحاب القرى. فصادف مرة أن أدخل بعض الروم إلى الحصن كأسرى وجلسوا أمامه فاطّلعوا على طيبة نفسه وكرمه، فكانوا هم يشهدون أمام كلّ إنسان بنبله وأخلاقه ومُثُله العالية لأن الأفكار السائدة حينها كانت سلبية تجاه السوريين حيث إنهم افتقروا ولم يعد لهم عمل فباعوا أراضيهم للمسلمين، كذلك المسلمون لم تأتيهم الجزية فباعوا لهم المزارع والجنائن وأصبحوا عندهم فلاحين، ولانتشار البطالة توقفت تجارة القرى، فكانوا يجتمعون حشوداً كبيرة ويدخلون إلى المخابز، ومراراً كثيرة دخلوا وعبروا الحدود بسبب البطالة ولشدة العسر الذي حلّ بهم، كانوا يقعون بأيدي الرومان ويدخلون بهم حصن قمح. وكان الرجل المدعو "سركيس" يعاملهم معاملة حسنة، فكان يقول لهم إذا أردتم فابقوا عندنا وإن أردتم فاذهبوا بسلام إلى بيوتكم، وكان يعطي لهم الطعام عندما كانوا يخرجون. وحقيقة أيّها الأخوة إن هذا الرجل كافأه الله إذ نجّاه من يد الأثوريين هو وكل الذين كانوا معه في الحصن حيث إنه لما رأى أن الجيش قد أحاطه من جميع الجهات وهم قليلو العَدَد والعُدَد، قام قيام الإنسان المؤمن لابساً خوذة الإيمان، ومتمنطقاً بالرجاء العظيم بسيده، فركض ودخل إلى الملجأ الحقيقي بيت الصلة، ورفع صوته متضرعاً وطالباً بكل حرارة بأن لا يدخل الغزاة حصنهم، فاستجاب الله تعالى دعاءه ومن معه وسمع صلاتهم لقوة إيمانهم، ونصرهم الله على الأثوريين وردّ هؤلاء بالخزي والعار. وأما الفرس فكانوا يقاتلون بأنواع



القتال وأصنافه غير أن جميع حيلهم باءت بالفشل. ثم صنعوا بيوتاً من الخشب وملؤوها بالتراب والحجارة كي يدخلوا بواسطتها إلى الساقية التي بجانب السور وهذه العملية أيضاً فشلت. أما الروم فكانوا يرمون عليهم الحجارة من الداخل فيصيبونهم حيث كانوا، يرمونها باستقامة ودقة ويقتلون بها كثيراً من الخارج حتى إن منجنيقات الفرس كانت تتكسر، وكانت إحدى جهات السور سهلة المنال من السهولة فتح ثغرة فيها، ولكن الروم أتوا بألواح خشبية طويلة ضخمة ووضعوا في رأس كلّ منها حجارة كبيرة معلقة بسلسلة من حديد، ووضعوها على حافة تلك الفجوة، فإذ أراد الفرس الصعود إليها واختراقها أطلق الروم لوحاً من تلك الألواح، فجرف المتسلقين أمامه وقد تهشموا لشدة الانحدار. وصادف في إحدى الليالي أنه ساد الحصن هدوء عميق فظن الفرس أن الروم ناموا في سبات عميق فصعدوا على السور بعدد لا يحصى وما إن تزاحموا وشرعوا بالنزول ظنوا أنهم استولوا على الحصن، إلّا أن الحراس الشجعان باغتوهم ووضعوا السيوف في رقابهم، ومن ثم أطلقوا الحجارة التي في الألواح فجرفت الصاعدين إليهم وانحدروا مثل كومة من الهشيم. وبهذا فشلت جميع الحيل لأن الربّ كان نصيرهم.

بعد هذا انسحب قائدان من الجيش وأخذا معهما عسكراً كثيراً بلغ عددهم الخمسين ألف مقاتل ودخلا أراضي الروم بغية النهب والسلب، وحيث إنهما لم يكن لهما دليل يرشدهما في مجاهل الأرض التي لم يدخلاها من قبل فخافا أن يذهبا بعيداً لئلا يشعر بهم الروم فيجتمعون ويهجمون عليهما فيهلكونهما وتكون نهايتهما بشعة. وكما قال أيوب البار: «المخافة التي خفتها أتت إليّ، والشيء الذي أخاف منه أصابني»، فلم يكادوا يرتاحون حتى أدركهم غضب الله وجعلهم مثل كومة

الكدس، وكالبلوط الذي يسقط من قبعته[163]. فأحرق أولاً الفضاء وأباد ما يعتاشون منه فأرداهم الجوع ووقعوا بين الجبال الجرداء، لا ماء فيها ولا شجر، فهلكوا من العطش، وإذ كانوا على حافة الموت من دون سيف، رأوا مرجاً خصباً، فحفروا برماحهم فوجدوا الماء قريباً فشربوا وارتاحوا قليلاً هم ودوابهم، ولم يدخلوا لغاية الإقامة بالمرج بل للراحة من عناء السفر لأن الكورة كانت فقيرة وخَرِبة، وإذ كانوا يتجولون بين الجبال أياماً عديدة، اتجهوا نحو قيسارية فوجدوا أرضاً خصبة تنتشر فيها القرى بسكانها الآمنين يعيشون بالهدوء والسكينة فدخلوا إليهم فجأة ولم يتمكن واحد من الوقوف أمامهم أبداً واقتحموا مدينة قيسارية وعاثوا في تلك الكورة نهباً وسلباً وتخريباً، ثم أسروا جميع السكان وصحبوهم معهم مع كلّ أملاكهم من البهائم والأموال، حتى الأواني الفضية والذهبية؛ لكن فرحهم هذا لم يكمل، وبالكيل الذي كالوا، كيل لهم أيضاً، والحفرة التي حفروها ملؤوها بقاماتهم، والشبكة التي مدّوها صادوهم بها، وعاملهم الله بحسب أعمالهم. سبوا وسبوهم، نهبوا ونهبوهم وكانوا يريدون أن يقتنوا عبيداً وجوارٍ فأصبحوا عبيداً لدى الآخرين. خربوا الأرض، فخربت بيوتهم، وأضحوا مأكلاً لحيوانات البر وطيور السماء وسقوا تلك الأرض من دمائهم، وكل هذا حدث لأنهم كانوا من دون حنان ورحمة فقد نهبوا وسبوا وأسروا وقصدوا الذهاب إلى سوريا بمكاسب عظيمة يرفّ عليهم علم الانتصار، إلّا أنهم لم يدركوا أنهم بالظلمة يسيرون على حد قول المزمّر: إن الربّ خلّص المسكين واليائس من يد الغاصب له بالقوة[164]. وكما قيل أيضاً: من بين الأسنان أخرجهم ومن أعمق البحر أخرجهم.

---

(163) سفر أيوب.

(164) سفر المزامير.



كان الفرس يظنون بأنهم قد خرجوا من الأرض المنكوبة ووصلوا إلى سوريا فزال عنهم الخوف عندما وصلوا إلى مرج كبير فرغبوا النزول فيه للراحة وكان هذا المرج بين جبال وعرة له مدخل واحد ضيق وحواليه جدول ماء يصب فيه، فلما نزلوا وارتاحوا قليلاً وأطلقوا مواشيهم للرعي، ولم يكونوا يعرفون مجاهل الأرض ومواقعها... وحقاً إن الله تعالى لا يغشى من يدعوه فصادف أن أحد قادة الرومان ومعه اثني عشر فارساً كان قادماً من حرب أخرى في مكان آخر من الإقليم وكان يزهو بالانتصار العظيم الذي حققه ضد أعدائه. فلما وصلوا هم أيضاً إلى ذلك المرج الذي كان الفرس فيه يهجعون أرادوا هم أيضاً أن يرتاحوا قليلاً من عناء السفر، ولم يكن في نيتهم أي شر كالذي في نية الآخرين. فلما صعد بعضهم إلى إحدى الروابي رأوا جيشاً جراراً كبيراً ومعه سبايا كثيرة وأموال منهوبة من أرضهم نازلين في المرج، ولم يكونوا يعلمون بما حلّ بشعبهم لأنهم كانوا قادمين من أماكن بعيدة، خافوا أولاً واحتاروا وكرّوا راجعين مسرعين وأخبروا رفاقهم بعدما أخبروا قائدهم، فلم يتهاون رؤساؤهم بما سمعوا، بل أرسلوا عيوناً آخرين مع ما يقارب من ثلاثمائة جندي فارس وبكامل سلاحهم كي يقفوا على الحقيقة فيما إذا كان رفاقهم قد شاهدوه حقيقة هو أم خيال. ولما صعد هؤلاء إحدى الروابي تيقنوا أن الأمر حقيقة واضحة فرجعوا وأخبروا رؤساءهم بما هو واقع. فصعد القائد ومعه أربعة أو خمسة آلاف فارس، فلما أبصرهم الفرس (العباسيون) متعسكرين على باب المرج شعروا بأنفسهم كأنهم مسجونين مقيدين بسجن ذلك المرج، فارتجفت أوصالهم خوفاً وارتخت أيديهم من شدة الفزع وفقدوا كلّ شجاعتهم، فأرسلوا رسلاً ليروا ما هي قوتهم وهل هم مستعدون للقتال أم لا؟ وكانت بيهم وبين الباب (الوادي) الضيق أرض مرتفعة قليلاً فلما جاء الرسول أخبرهم بالحقيقة أن لهم جيشاً عظيماً وهم يستعدون للقتال.



حينئذ أراد الفرس (العباسيون) أن يخاطبوهم بالكلام الطيب ويعلنوا السلام معهم. فأطلقوا جميع ما بأيديهم من السبايا والعبيد والبهائم والأموال إذ قالوا فيما بينهم: ليتهم يتركوننا على قيد الحياة ويكتفون بالغنائم التي أخذناها من إقليمهم، فكما دخلنا إلى الأرض من دون شيء نخرج منها أيضاً صفر اليدين. ولكن الرومان لم يهتموا بذلك بل إنهم أرسلوا إلى جميع المدن ورؤساء الجيش أن يجمعوا معهم للقتال، فاجتمع لديهم جيش عرمرم قسموه إلى أربع فرق ونزلوا إليهم من الأمام والوراء والشمال واليمين، وإذ كان الوقت ليلاً أعطوا علامة الانطلاق والهجوم فبعد أن يصرخوا (يهتفوا) بالأبواق، يصرخ الجميع معاً (قورياليسيون) (أي يا رب ارحمنا) فلما استعدوا وهتفوا بالأبواق، كان صوتهم كالرعد يرتفع (قورياليسيون). فلما سمع الفرس النداء خافوا وأضحوا كالموتى المدفونين بالقبور، وأظلمت عيونهم وقطعوا الرجاء من الحياة حتى إن سيوفهم لم تخرج من أغمادها وأحاط بهم الرومان كإحاطة الخاتم بالأصبع وضربوهم الضربة القاضية بعد أن دام القتال طوال النهار. وقد شهد الفرس أمامنا بالقسم العظيم من الذين نجوا من ذلك القتال وكانوا مطعونين بأنهم لم يروا أبداً أو يسمعوا بأنه سُفك دم في قتال آخر كما سفك بهذا القتال. إن الجثث مع الدم ارتفعت حتى بطون الخيل في ذلك المرج، ولما كان المرج رطباً فيه مياه كثيرة لم تمتص أرضه ذلك الدم الغزير. ولما اقترب النهار للغروب لم يبق منهم إلّا القليل من الذين أصيبوا ولم يموتوا فمنهم يده مقطوعة وآخر رجله وثالث قد سملت عيونه، وهكذا فروا هاربين على خيولهم وقد تركوا كلّ عزّتهم وفارقهم كبرياؤهم، وكان الذين نجوا من الموت ما يقارب الألف شخص. وهكذا نجت ملاطينا من هذه الحرب، كما نجت في الحرب الأخرى. وكان ردد قد طعن بثلاث طعناتٍ من السيف لكنه لم يمت. وإن مالك بن طوف (ربما عوف) رئيس العساكر قد هرب باتجاه



قلينقلة مع عسكر يبلغ تعداده خمسة آلاف جندي. وهكذا رجعوا إلى من أرسلهم بخيبة وخجل عظيمين حتى إن كلّ الذي بأيديهم من مال فقدوه كالمُعرّى من ثيابه.

وهنا يجب أن نفكر أن الربّ صنع الخلاص الظاهر والمباشر فانكسرت الفخ التي نصبت ووقع فيها ناصبوها فاصطادت أصحابها. فهؤلاء قبل ساعة كانوا يجعلون من أنفسهم أسياداً فأضحوا عبيداً، وكانت آخرتهم أسوأ من بدايتهم، ولم يفكروا بأن يصنعوا الطيب إذ طاردوا المسكين والفقير والمتوجع قلبه وجعلوهم طعماً للموت. وقد قال النبي: وقعت بابل وجميع آلهتها المنحوتة تكسّرت ولم يعاونهم من يسجدون لها[165]. فنقول: إن الخوف والحفرة والخراب أمامك أيّها الآثوري، فمن يهرب من صوت الخوف فإنه يقع في الحفرة، ومن يخرج من الحفرة يمسك بالفخ، ومن ينجو من الفخ يُصاب بالسيف...

وأما القرويون الذين كانوا يجلبون الحنطة والطحين من سورية فلما رأوا أن الطريق ليست آمنة، تكثر فيها العقبات والأشواك والعراقيل، وأن أكثر الدواب هلكت امتنعوا عن جلب الحنطة وتقديمها للعساكر، فنتج عن ذلك جوع عظيم، إذ كان مقتنى الناس من المؤونة قليلاً حتى صار القفيز من الحنطة بثلاثة دراهم ونصف ولا أحد يبيع واستمرت الحالة هكذا عشرين يوماً. حينئذ أرسل عيسى أمير الجزيرة إلى سورية، وإلى السوق الكبير، حتى إن القرويين أنفسهم انحدروا لجلب الميرة إذ لم يكن لديهم عمل آخر يشتغلون به فلما سمع أبناء الشعب بحالة الجزيرة وكثرة ميرتها أسرعوا واتجهوا من الغرب ومن أرض أرمينية الداخلية ومن أرض الجزيرة، إذ شق عليهم إخوتهم يتضورون جوعاً وهم في

---

(165) انظر سفر.



رخاء ورفاه وأدخلوا كلّ ما تمكنوا عليه من المؤونة حتى عم الرخاء هناك في كلّ شيء. فالتجار وأصحاب الحوانيت والبزازين وأمثالهم من أصحاب المهن اشتروا الحنطة والشعير والطحين وجميع الذخائر اللازمة للحفاظ على حياتهم وخزنوها في دورهم أو كوموها كالتلال وفي ظنهم أنهم يغنون أنفسهم ولم يدرِ الأغبياء، إذ ضلت أفكارهم وعميت أبصارهم بحب المال، أن هذا الذي جمعوه واحتكروه سيزول بلمح البصر، وأن الطريق المملوء حسكاً ومتاعب سيدور عليهم، وأن التدابير الكثيرة التي اتخذوها لمواصلة قتال الحصن ليل نهار ستؤول عليهم بالخسائر الفادحة في الأرواح والأموال، حيث إن منجنيقات الروم كانت ترمي حجارتها الهادفة غزيرة كالمطر.

أما عيسى[166]، إذ كان رجلاً حنوناً رحوماً، فقد كان نعمة لهؤلاء المساكين الذين دخلوا مع الحدادين والمهنيين، ولما رأى بعضهم يهلك في الحرب مع الرومان جراء الحجارة التي يرمونهم بها، جمع رؤساء عساكره وأمرهم أن يخصصوا كلّ يوم رجالاً يلقون الحجارة من المنجنيقات، ويكون للقرويين أعمال أخرى بعيداً عن خطر الموت. ولما طال مكوثهم طويلاً، قال عيسى: لو بقيت هنا عشر سنوات لن أخرج. فاجتمع خلق كثير من أطراف البلاد ودخلوا هناك وأقاموا متاريس القتال، ولكن من دون فائدة، وجاؤوا إليهم بالتهديد والوعيد لعلهم يخافون ويفتحون الأبواب، ولكنهم كانوا مثل النسور يطيرون في الفضاء بأجنحة سريعة ولا يهابون الموت ولا أيّ شيء آخر، وهكذا صمدوا في القتال وقتاً طويلاً.

أخيراً راحوا يتملّقون لهم ويتصنّعون الخضوع والخشوع لكي

---

(166) هو عيسى بن موسى بن محمد أخو الخليفة أبو جعفر المنصور.



يتركوا لهم الحصن ويرحلوا عنه بسلام، ولكن حيلهم هذه باءت بالفشل أيضاً، فشرعوا يستهزئون بهم ويسخرون انتقاماً منهم، ولما كان فصل الشتاء على الأبواب، وأوشك البرد والثلج أن يغزو الأرض، خافوا أن تنقطع الطرق أمامهم فيهلكون هناك جوعاً، ثم ازداد خوفهم عندما فكروا أن جموعاً أخرى ستحيط بهم وتحاصرهم وتبيدهم عن وجه الأرض، فيحلّ فيهم السوء أكثر مما حلّ برفاقهم السابقين في هذا المكان، إذ دخلوا إليهم بخمسين ألفاً، ولم يخرج منهم حياً سوى خمسة أو ستة آلاف لم يسلموا أيضاً من طعن السيوف والرماح والنبال. فنادى المنادي فجأة ليركبوا مع التجار وأصحاب الحوانيت وكل الباعة وبالسرعة الممكنة ويغادروا المكان اتقاء الشرّ والفناء. غير أن هؤلاء التجار والباعة صرفوا أموالهم وتجارتهم، ولكونهم قساة القلوب غليظي الرقاب فقد اشتروا كلّ الحنطة والشعير والطحين ليحتكروها، ولما لم تكن لهم دواب يحملون عليها أموالهم وميرتهم بسبب وعورة الطرق؛ كانوا ينقلون أموالهم حتى يعبروا النهر المدعو سلقط ويعودوا من هناك. ولما لم يكن باستطاعة الدواب العبور إلّا واحداً أو اثنين من المائة، كانوا يعبرون بهم إلى جهة الشمال. وصادف مراراً أن استأجروا الدواب مع دوابهم ولم يعبروا، ولأجل هذا قلّت هناك أعداد الدواب. وعليه، فلما نادى المنادي بالعساكر للرحيل ورأى الفرس أن جميع أموال التجار باقية، أسرعوا وأضرموا النار فيها وأحرقوها لئلا يستولي عليها الرومان ويستفيدوا من هذه الغنائم.

كما أنّه كان قد خرج جيشٌ آخر باتجاه قلينقلة، فكان أفراد الجيش يجرّدون كلّ الذين يصادفونهم من حمولتهم المتكوّنة عادةً من الجُبنِ والدهنِ والعسل وحاجات أخرى ويأخذونها إلى المعسكر، ومن ثم يسوقون الدواب والرجال والحمير أمامهم فارغة، ولهذا هلك أولئك



الناس المساكين وفقدوا كلّ ما يملكون من الميرة والأموال بساعة واحدة؛ ولم يستفد أحدٌ من هذا الطريق إلّا العسر والتعب، حتّى المهنيّين من الحدّادين وغيرهم، فبعدَ أن خرج عيسى أمر جميع العمّال الذين تحت يده أيّ بإمرته، وأخذ منهم الأجرة التي كانوا يتقاضونها عند دخولهم معه، حتّى عن الحمير (أجرة الحمير). وهكذا انتهت هذه العملية وخرج عيسى ورجع بذات الطريق الذي أتى به خائباً بجلباب الخجل للخسائر الفادحة التي حلّت بأتباعه.

كذلك قدِمَ إلى مدينة آمد عبر نهر دجلة جيشٌ ثالثٌ قاصداً أرض فارس، والجنود عاجزون عن مواصلة المسير لما حلّ بهم من الجوع والتعب، وقبل أن نصِف حالتهم نقول: «إنّه لم ينجُ من الموت إلّا القلّة القليلة منهم، وأكثر غنائمهم وأموالهم والميرة التي دخلوا بها أرض الرومان فقدوها، إذ كانوا بحالة مزرية يُرثى لها يخيّم عليهم الخزيّ والعار، إلّا أنّهم لدى رجوعهم ودخولهم أراضيهم شرعوا يفتخرون بأنفسهم ويتظاهرون بالكبرياء، تماماً كما فعلوا لدى دخولهم أرض الروم أوّلاً، ولكن خاب فالهم ورجعوا بتعاسة تامة يسحبون وراءهم أذيال الخيبة، رؤوسهم منحنية، صفر اليدين.

كان رحيل الجيش عن الكورة مكسباً عظيماً لأهالي الشمال، إذ إنّهم أنفقوا في تلك الديار نقوداً كثيرة وخاصّةً الجديدة منها. ومن هنا نفهم أنّ كلّ من أراد أن يصنع النقود كان يصنعها من دون خوف فكثُرت النقود الجديدة المزيّفة وفقد النّاس الكثير منها.

كانت أرضُ الجزيرة كثيرة الخيرات بالكروم والحقول والأموال والميرة ولم يكن فيها فقير أو بائس واحد، فكل فردٍ كان يملك فدّاناً من الأرض ومعز وحمير. ولم يكن فيها مكان خالٍ غير مزروع بالكروم أو



الحبوب، حتّى إنّ الجبل كان مزروعاً بالكروم، خاصّة الأماكن التي لا يمكن حراثتها لزراعتها بالحبوب. لذا كثُرت بينهم الجريمة وسادت القسوة فشرعوا يخطفون كلّ شيء الواحد من الآخر حتّى الأوقاف التي أوقفها الألون للكنائس والأديرة، ولاسيّما الحِنطة والخمور رغم كثرة الغلّات، فحدثت المخاصمات العديدة بين السكان وأغلبها تدور حول حدود الأراضي، وقد بلغ الأمر بالسكان إلى القتل أحياناً، حتّى إنّ العمّال في المدن تركوا أشغالهم بأمر حكّامهم لأنّهم تخاصموا مع ذوي الثروات، فامتلأت الأرض منهم لكثرة مواقعهم.

أقول وأنا كاتب هذه السطور، ما كتبناها إلّا لأنّنا أردنا أن نبيّن إلى أيّ مدى من الضيق أصاب الأرض والشعب الذي شبع وسمن ونسي الله خالقه حتّى إنّهم كفروا به وبخيراته التي زادها عليهم بالأموال والفدادين وأصبحوا سادة لهم العبيد والجواري وشرعوا يقترفون الأعمال الذميمة. ومنها أنّ الواحد منهم مثلاً كان يملك ألف رأس من الماعز، وألف رأس من الغنم والجمال والخيل والعبيد والإماء، كان يمتطي الفرس العربية ويسير أمامه العبيد راكبين البغال، يسجدون بين يديه كالمجوس. في حين أنّ هؤلاء الأثرياء كانوا قبل ذلك يحملون أولادهم على أكتافهم معكوفي الظهور عراة حفاة، جائعين عطاشاً، يستجدون من باب إلى باب طالبين كسرة خبزٍ يابسة، يُرحّلهم الأسياد من بلدٍ إلى بلد، ومن مكانٍ إلى مكان. وأمّا النساء والبنات ذوات القصور الآن فكنّ عاريات هزيلات، يحملن أولادهنّ على رقابهن وهنّ تعبات يتنقلنَ من بلد إلى بلد ومن مدينة إلى مدينة.

وفي هذه السنة، وبعد رحيل العساكر، كانت الحِنطة تُباع كلّ خمسة وعشرين مكيالاً بدينار واحد (المكيال يساوي أربعة أقفزة) وهكذا كلّ شيء مهما كان نوعه كان يباع بخمسة وأربعين؛ فالأرض كانت برخاء



ورفاه كبيرين، ولذا اتجه الناس إلى عمارة الهياكل وتجديد الكنائس.

فصل في أسباب المخاصمات والاضطرابات التي حدثت في الكنيسة بين رعاتها في هذه السنة 1078 يونانية، وخاصة مع كيوركي والبطريرك

سنة 1078 ي

767 م

150 هـ

عندما توفي يوحنا العفيف[167]، والذي كان قد أقامه أساقفة الجزيرة بطريركياً عليهم وانسلخوا عن رئاسة كيروكي وأبناء الغرب كما ذكرنا سابقاً، أراد الأساقفة الطاهرون المؤمنون بالربّ أن يرفعوا الخصومات بين الناس جميعاً فيكونون رعية واحدة وراعياً واحداً كمثل الشريعة التي رسمها المخلّص والآباء القدّيسون، وأيضاً لئلّا يحدث انقسام وشكّ بالإيمان المقدّس، وخاصّة أنّ أكثريّة المدن كانت تطيع كيوركي وتتبعه وبه ينادون وله يحبّون، أراد جميع أبناء الجزيرة وأبناء الغرب في منطقة سَروج وكان معهم أيضاً الورع كيروكي. ففي سنة 1076 ي/ 765م كثُر الكلام بين الطرفين بالعادات والتقاليد الموجودة عندهم. فالطاهر كيوركي البطريرك كان يحب السلام أكثر من الخصومة والانقسام، ويسعى لئلّا يحدث في أيّامه أيّ اضطراب أو اختلاف في الشريعة والطقوس كالذي جرى من قبل الآباء الأبرار المائة والخمسين الذين اجتمعوا بالروح القدس في القسطنطينية والذين كانوا قد حدّدوا درجات

(167) هو يوحنا الرقي وأقام أربع سنوات.



البطاركة: نقطور بطريرك القسطنطينية بعد بطريرك روما، وطيمثاوس الإسكندري ومصر، وأغنطوس وكل أقطار الغرب وميلطس الأنطاكي وكلّ الشرق. خاف الطاهر كيوركي من أن يحدث في أيّامه انقسام وهو على كرسي أنطاكيا، لذا رضي بكل الحجج التي قدمها أساقفة الجزيرة ورضخ لها، أمّا التي قدمها الأساقفة الذين رسّمهم يوحنا الذي أقيم بطريركاً من دير قرقفتا (الجمجمة) استلمها، إلّا أنه لم يقبلها ولم يرضَ بها، إذ أراد أن يجعل ذلك خارج النطاق الكهنوتي، ولهذا تذمر أساقفة الجزيرة لأن معظمهم كانوا من الأديرة المشهورة. وعليه فإنّ الفاضل لم يصرّ على رفضه لكنه قال إنّ الكهنوت أو الأُسقفية تعطى للذي يذعن ويطيع بأن يذهب إلى بلاد بعيدة كسغسطن، ولكنّه هرب، وقوله هذا استحسنه الأساقفة، وقال أيضاً يمكن أن أطرد أُسقفاً من مدينته وهو أفضل مني. وكان قد رعى رعيته بأخلاق فاضلة وساس أبرشيته بأعمال مشكورة، فلم تكن هناك مدينة واحدة توافق على أحدهم أو تقبله إلّا بناءً على تقواه وطاعته ورغبته في الذهاب إلى البلدان البعيدة، كما أوصى الشعب بمساعدة الذين أطاعوا الأوامر لكي يستطيعوا أداء الخدمة الحقّة. ومضت عليه ثلاثون سنة في الأُسقفية.

في الحقيقة أيّها الأخوة، إن كيوركي لم يكن يقبل هؤلاء الأساقفة لأن بعضهم لم يكن يستحق الدرجة حقاً، إذ كانوا أناساً متكبرين، مضللين، سَحَرة، ذوي حيل، ماكرين، يتكلمون بالسخافات، ولم تكن أمام أعينهم مخافة الله، وفيهم تكمل كلمة الرسول: إني أنا لا أعلم، ولكن بعد أن أذهب ستدخل بينكم ذئاب خاطفة لا يرحمون الرعية، ومنكم أيضاً يقوم رجال يتكلمون بالغش لكي يردوا إليهم تلاميذاً لهم



يسيرون وراءهم[168]... وكذلك أيضاً قال عنهم السيد المسيح محذراً تلاميذه من أمثال هؤلاء: احذروا الأنبياء الكذبة الذين يأتون إليكم بثياب الحِملان، ومن الداخل ذئاب خاطفة[169]. وتعرفونهم من ثمارهم[170]. وقال عنهم له المجد: إنهم يجنون من الشوك عنباً ومن العلّيق تيناً[171]. وكذلك أيضاً: كلّ شجرة صالحة تصنع ثماراً صالحة. وكل شجرة رديئة تخرج ثماراً رديئة، ولا يمكن للشجرة الصالحة أن تعطي ثماراً رديئة، ولا شجرة رديئة أن تعطي ثماراً صالحة[172]، وقال فيهم: إنكم تعرفونهم من ثمارهم؛ فالحقيقة أنهم أشجار رديئة وثمار رديئة، أطعموا الكنائسَ وشعبَ الله رداءتهم ورذائلهم.

من هنا أردت أن أبين الدرجة التي وصلت إليها حالة الشعب والكنيسة من السوء، وكنت متعجباً من يوحنا الفاضل ذي الأعمال الصالحة والأخلاق الرهبانية النبيلة، الزاهد المحترم لدى كلّ إنسان، كيف هوى واقترب إلى مثل هؤلاء الأشخاص ووضع يده عليهم ورسّمهم كهنة، في حين لم تقبلهم أي مدينة؟! وإن آمد كان فيها أُسقفان أو ثلاثة وكان أساقفتها أفضل بكثير من الذين رسّمهم لها، لأن أحدهم كان ساويرا من دير زوقنين، رجلاً شيخاً يخاف الله، وإنما أُعفي من إدارة المدينة لقلة بصره وأقام في ديره حتى نهاية عمره. وقام خلفاً له مار أبي

(168) من برسالة مار بولس إلى أهل.
(169) إنجيل.
(170) إنجيل.
(171) إنجيل.
(172) إنجيل.



من دير مار حبيب[173] في أرزون[174]. والثاني كان أُسقفاً طيباً متواضعاً مزيناً بمظاهر الفضائل. وكان يلقب بلقب سركونا، رجل إلهي من دير أثناس، وجميعهم أي الأساقفة الموجودون في المدينة شيوخ أفاضل وقدّيسون. أما هو فقد أقام لها آخرين منهم واحد من دير حريز[175].

كتبت هذا لكي أخبر عما جرى لنا من الشرور بعد ذلك، وأرجو أن لا يعاتب الكاتب أحداً، إلى أن يرى ثمار هذه الأشجار الرديئة، وإن منظر الرجل يدلّ على أعماله، ومن تصرفاته وسلوكه تعرف ماهيته. وهؤلاء الرجال أعمالهم ماثلة أمامكم وأمامي.

وكان المجمع قد انتهى، وكل واحد عاد إلى بلده، وعاد كيوركي الفاضل أيضاً إلى ديره، كما أن هؤلاء البائسين رجعوا مخذولين وفي

---

(173) دير حبيب، لا أعرف موضعه، إلا أنه جاء في شعر عربي... وهو قول ورد بن الورد الجعدي:

لا حبذا الأصعاد لو تستطيعهولكن أجل لا ما أقام عسيب

وإن مرّ ركب مصعدين فقلبه	مع الرائحين المصعدين جنيب
سل الريح إن هبت شمالاً ضعيفة	متى عهدها بالدير دير حبيب
متى عهدها بالنوفليّات حبذا	شواكل ذاك العيش حين يطيب

(انظر معجم البلدان، ص 132)

(174) أرزن: بالفتح ثم السكون وفتح الزاي وتون: هي مدينة مشهورة قرب خلاط لها قلعة حصينة وكانت من أعمر نواحي أرمينية... وقد فتحت على يد عياض بن غنم بعد فراغه من الجزيرة سنة عشرين صلحاً على مثل صلح الرُّها... أرزن الروم بلدة أخرى من بلاد أرمينية أيضاً أهلها أرمن وهي الآن أكبر وأعظم من الأولى ولها سلطان مستقل بها مقيم فيها وولاية ونواح واسعة كثيرة الخيرات... وقد عدّ قوم الأرزن الأولى من أطراف ديار بكر مما يلي الروم وقوم يعدّونها من نواحي الجزيرة... والصحيح أنها من أرمينية. (**معجم البلدان**، ج 1، ص 190 – 191). وفي (**اللؤلؤ المنصور**، ص 504: أرزون: مدينة كبيرة كانت شمالي غرب سعرت أطلالها ماثلة).

(175) ربما هو دير حرباز المبني على اسم ماركوركيس (جرجس) في ولاية سميساط. ورد ذكره أول مرة في أواخر القرن السابع، وآخر عهدنا به أواسط القرن العاشر، تخرج فيه بطريرك وخمسة أساقفة. (**اللؤلؤ المنشور**، ص 510).



خزي كبير، إلّا أنهم لم يقبعوا في بيوتهم خجلاً يخفون زلّاتهم، بل إنهم عادوا إلى الشغب يحركون كلّ حجارة متراصّة ويلقون القلق والاضطراب بين الناس إضراماً للفتنة وانتقاماً من كيوركي والذين معه.

أما كيوركي حيث إنه كان قد مرّ على أمثال تلك التجارب كان خائفاً من تجدد الفوضى والاضطراب لهذا عاد إلى ديره، وقد امتنع من الدخول أو زيارة أي مدينة أو قرية أو دير، حتى يأتي أهالي ذلك المكان ويدعونه لزيارتهم ويصحبونه معهم إليها.

وصادف في هذه السنة أن جاء أهالي حرّان إلى كيروكي لوقوع بعض المشاحنات بينهم وبين أُسقفهم ولأجل هذه الحجة قدموا إليه ولما زالت تلك الحجة غادروه. وكذلك جاء أهالي آمد ومعهم مار آبي أُسقفهم يدعونه لزيارتهم وتفقُّد أحوالهم، فقبل دعوتهم كالراعي الصالح وصعد معهم. وفي أثناء طريقه مرّ على قرى ومدن عديدة، وقوبل من أهلها بحفاوة وترحيب يليقان بدرجته، ولما طالت مدة إقامته هناك، قدم إليه رهبان دير زوقنين مع جميع شيوخ الدير الأفاضل ومعهم الفاضل مار آويل رئيس الدير وديونوسيس مدير أعمال الرهبان الذي صار فيما بعد أُسقفاً على حرّان وأخذوه إلى ديرهم، وقد كان الطوباوي كيوركي مشتاقاً لهذه الزيارة منذ زمن بعيد ليرى الدير ويصلي فيه، فلما كملت رغبته وقضى فترة مع أبناء الدير بمحبة، قدم إلى حانيا، ووصل إلى تل كوم إذ أراد أن ينصح أبناء الدير بنصائحه، إلّا أن الشيطان الذي هو منذ بدء الخليقة عدوّ الخير حرّك تلاميذه مستحقي الهلاك، إذ إنه لما رأى أن الجميع أطاعوه وعرف أنه عما قريب سيسود السلام الكنيسة وتنتهي الخصومات وتنسى كلّ القلاقل والاضطرابات التي انتصبت في وسطها كما سبق وذكرنا، فإن أولئك الذين تكلمنا عنهم وأشرنا إلى أعمالهم سخّرهم الشيطان ثانية ونزلوا عند الملك (الخليفة) وشرعوا



يطعنون بالطاهر كيروكي وبجميع الأساقفة الذين معه ويتهمونهم بتهم شتى وبكلام سيء باطل وقالوا إنه أنه (أي كيوركي) يدّعي بأنه هو الملك وليس أنت. وحسناً قال النبي في مثل هؤلاء[176]: «إن رؤساءك عاصون، وهم شركاء اللصوص، جميعهم يحبون الباطل ويسرعون بإيفاء الديون». وإن الاضطهاد الذي نزلت جذوره في الأرض شرع يتفتح ويخرج ثماراً قاتلة، فهلموا إذن وانظروا بأن الشجرة تعرفونها من ثمارها.

إن الملك لما سمع هذا صعد غضبه كالدخان وأخذ يزأر كالأسد الذي يستعد للانقضاض على فريسته، وأرسل سريعاً رسلاً لإشعال نار الفتنة وراء البطريرك وكل أساقفة الجزيرة، ولما كان بعد موجوداً في قرية تلّ كوما (التلّ الأسود) أخذوه من هناك إلى حرّان، حتى إنهم لم يسمحوا له بالدخول إلى ديره (مقره) واجتمع هناك جميع الأساقفة، ومن ثم انحدروا نحو بغداد قاصدين الملك (الخليفة) لأن مقره آنذاك كان فيها. غير أن الملك فلم يتمكن من حلّ القضية حتى إنه لم يسمع الدعوى التي رفعت إليه حيث لم يكن يسمح لأحد برفع يده أو رجله في جميع الأرض التي تحت يده (سلطته) إلّا بالتدبير الديني وإصدار الفتوى من قبل إمام مسلم أو روحاني مسيحي، ولم يكن يهدأ ويهجع في ركنه إلّا عندما يهلك المدعى عليه هو ومن معه. والذي كان يعلم أنه صاحب ثروة أو يملك بين يديه شيئاً ما، فذاك كان يدعوه صديقاً مخلصاً له.

لما سبق ذكره نقول: لما وصلوا بغداد ودخلوا على الملك ورآهم بذاك الموقف غضب عليهم كالدب المتحفز على فريسته وتكلم معهم بالقسوة، ثم طردهم من أمامه. أما الفاضل كيوركي فأمر بإلقائه في السجن

---

(176) سفر.



بعد أن قيدوه بالسلاسل الحديدية. ولما طالت مدة مكوثهم هناك أياماً كثيرة، أمر بأن يقيموا لهم رئيساً يعتبرونه العادل والمستحق فيهم. فاتفق جميعهم أن ينصّبوا عليهم داويذ (داود) أُسقف دارا[177] قائلين: إن كلّ ما حدث ليس إلّا من صنيعته؛ وحيث إنه كان شيخاً كبيراً طاعناً في السن ولن يعيش طويلاً وافقوا عليه، كما أظهروا أنه إذا أقيم غيره فلن يقدموا له الطاعة. فعاد هذا المرشح داويذ إلى مكانه (مقره) وهو عالم وعارف بكل مجريات الأمور وأحداثها إذ لم تخف عليه، وأقيم رئيساً رغماً عن إرادته، شاء أم أبى، وأعطى له الملك فرماناً خوّله فيه أن يسجن ويضرب ويقتل كلّ من رأى منه عدم الطاعة.

أما كيروكي فقد بقي سجيناً، فأخذ الاضطراب يزداد في الكنيسة يوماً بعد يوم، والفوضى تعمّ شعب الله، وشرع الناس يشتمون ويسبّون ويسخرون بالأساقفة والرهبان حتى إنه لم يتمكن الفرد منهم من الظهور في أسواق المدينة ودروبها لكثرة الاستهزاء والسخرية التي كانوا يلقونها من أبناء الشعب وعامتهم، إذ كانوا ينعتونهم بالقتلة وسفاكي الدماء، حتى وصل الأمر بالناس أن لا يتناولوا القربان من أيديهم إذ كانوا يقولون أن اسم داويذ يذكر عليه ويدعونه بالقاتل وسافك الدم. وهذه كانت بذور الزؤان التي زرعها الشيطان بواسطة تلاميذه بين الناس والذين سبق وأشرنا إليهم أعلاه.

ولما صعد الفاضل داويذ والأساقفة معه إلى تكريت وإلى

(177) خلف زميله يوحنا الرقي وهو داود الداري وتوجه إلى الخليفة أبي جعفر مشنّعاً على جورجي البطريرك الشرعي مدبّراً هلاكه، فأمر أبو جعفر بضربه فضرب ثلاثين وكان يستمنح القوة من العذراء. وعلى إثر ذلك أقام ثلاثة أيام صائماً في دار الخليفة ثم سرحه وأمر بالمناداة باسم داود بطريركاً، أما اليعاقبة فدحضوه ورفضوه خفية. (**الزهرة الذكية**، ص 42 رقم 71).



الموصل، كان المؤمنون يستقبلونه بالاستهزاء والشتائم وكأنه ليس بطريركاً بل رجلاً منبوذاً، ينعتونه بالقاتل وسافك الدم. أما هو فلم يكن يلتفت إلى النعوت والشتائم لا يتأثر بها ولا يتكدر صفوه، إنما كان يقبل ذلك بنفس رضية وطيبة قلب ملؤه السماح طالباً لهم من الله الغفران، وكان يستشهد بالله على ذلك، على كلّ ما كانوا يقولونه عنه ظلماً وبهتاناً قائلاً: إن كنت مشتركاً في قضية كيروكي، فليحلّ عليّ حكم الله القاسي، مؤكداً قوله بالحلفان والقسم بالأَيمان الكبيرة أن ليس له إصبع في كلّ ما جرى. وزاد في تبرير موقفه بإرساله الترجمات والمناشير والرسائل لتقرأ على الناس في الكنائس، غير أن الناس لم يصدقوه، إنما كانوا يقولون بأنه هو السبب في كلّ ما وقع في الكنيسة وما جرى لكيوركي الفاضل. وداويذ هذا لم يكن يوبخ أحداً ولم يهنه من أجل شتمه له، ولم يكن يرغم أحداً على أن ينادي باسمه، بل كان يقول كلٌّ يفعل ما يطيب له، إن أراد فلينادِ، ومن لم يرد لا يفعل فمالي وله؟! وبهذا بيّن للناس أنه اتهم ظلماً، رغم سماعه السبّ والشتم بإذنه والسخرية والاستهزاء بعينه، فلم يكن يبالي، علماً أنه كان بيده سلطان العقاب القاسي من الله والملك، فلم يؤذ أحداً. وإذا ما صادف وأرسل أُسقفاً من قبله إلى إحدى المدن، كان المؤمنون يرغبون في الإيقاع به وطرده. وإن أقام هو أو أحد أساقفته قداساً فلا يتناول من يده المؤمنون القربان بل كانوا يحتقرونه مع القربان الذي يقربه. وإذا صادف أن شخصاً مؤمناً يوبّخ الناس على أعمالهم ضد الأساقفة قائلاً لهم بأن هذا العمل سيجلب عليكم النقمة، كان الشعب يهينونه مع إهانتهم للرؤساء. وهكذا ظل الناس ينتقلون من هيكل إلى هيكل قائلين: إننا لن نتناول من قربان فلان وفلان لأنه ينادي برئاسة داويذ. كما راح الناس يحتقرون كلّ من عليه زي الأُسقف أو الراهب. وإذا ما كان الراهب يدّعي بأنه لم يرد داويذ ولا كيوركي، فيهزؤون به حتى كان يُلعن الاثنان سوية ويحرمان باحتقار، وفي النهاية



اعتمد البعض أن لا ينادى في الكنائس لا باسم كيوركي ولا باسم داويذ، تفادياً للموقف.

وهكذا دام هذا الاضطراب حتى وفاة الفاضل داويذ في الكنيسة بعد مرض عضال. فانظر بنفسك واسمع أي غضب حلّ علينا بعد هذا. واعلموا يا أخوتي أنه كلّما اضطربت الكنيسة اضطربت الأسس (الرؤساء) وقد اضطربت الأحوال فيها سابقاً ولاحقاً.

سنة 1079 ي

768 م

151 هـ

بنى حصن شميشاط على نهر أرسينس، وإذ كان البناؤون والحدادون قد باشروا في البناء وارتفع البنيان مقدار قامة قدمت عساكر الرومان ومرّوا على رقبة النهر بجانب الحصن ولم يعبروا إذ كان ذلك النهار يوم الأحد المقدّس، كما لم يكن لهم أمر بالقتال، فلما قرّبوا القربان وأكلوا الخبز فإن الناس الذين بالحصن هربوا وتركوا كلّ شيء. فدخل الرومان وأخذوا كلّ شيء وأحرقوا الباقي، وهدموا جميع البناء ورحلوا إلى بلادهم. وبعد هذا اجتمع المسلمون وجلبوا البنائين والحدادين وبنوا الحصن.

وفيها أرسل عيسى الرسائل إلى كلّ المدن الإسلامية في الجزيرة يطلب فيها من كلّ السكان أن يقصدوا حرّان، كباراً وصغاراً، فنزلوا إليها تاركين وراءهم زروعهم وقد ماثلت للحصاد، ولسبب عدم وجود النقود لديهم لعمال الحصاد، لم يستفيدوا من خيرات أرضهم شيئاً، وكما يقال مصائب قوم عند قوم فوائد، فمكثوا هناك أياماً كثيرة حتى إن زروعهم



نكثت وسقطت جميعها. وبلغ عدد الذين مكثوا في الحصون أكثر من ستمائة رجل والباقون رجعوا إلى بيوتهم حاملين معهم تجارة الفشل.

وفي هذه السنة مات ديونوسيوس أُسقف حرّان وخلفه ديونوسيوس آخر من دير زوقنين.

وفي السنة نفسها مات أسطفنا أُسقف حابورا وخلفه...

سنة 1080 ي

769 م

152 هـ

خرج الأُسقف زكريا من الرُّها، ومن تللا بني، فنصب عوضه في الرُّها إيليا من دير قرتمين وكان رجلاً قاسي القلب ولم يكن يستحق درجة الأُسقفين ولذا لم يقبله الرُّهاويون أُسقفاً لهم. وفي تللا نصب عوض بني سبينا. وهكذا بقيت الرُّها من دون أُسقف وكان إيليا قد خلف فيها حججاً كثيرة لا يجوز ذكرها.

وفي هذا الزمن اشتهر سركونا في مارِدِين، وداويذ البطريرك ومار أبي من آمد، وقسطنطينا في شميشاط وبولس في تكريت.

وكانت هذه السنة كثيرة الخيرات؛ فالحنطة ثلاثون قفيزاً بدرهم واحد، والخمر أربعون لتراً بدرهم واحد، والدهن ثمانية أرطال بدرهم واحد. وكانت الأرض خصبة بالكروم والحقول والبهائم، فكثر الرخاء، وقسّم الدينار إلى دراهم ولم تقلّ قيمته.

وفي ذات السنة وقعت حجارة من السماء، لونها أسود، رآها الكثيرون ولمسوها وهي موجودة إلى يومنا. ولم تسقط من السحاب.



وقد سقطت في كلّ مكان، وإن الأرض التي سقطت فيها لم يكن فيها حجارة سوداء أبداً، والكاتب يقول إن الله يفعل ما يشاء في السماء أو على الأرض.

سنة 1081 ي

770 م

153 هـ

صار في الموصل ضيق شديد وذلك أن رجلاً شريراً وعاتياً اسمه موسى بن مصعب، وعليه تنبأ النبي القائل: إني أضرب الأرض كلها وأجعل المسكونة فارغة كالبرية، لا بملوك المجوس ولا بملوك الكفار، والعداد وجد له رفيقاً، وأني أوقع الأرض بشدة عظيمة(178). إذ إنه منذ خلقه العالم حتى يومنا لم يحدث بالحقيقة كهذا الضيق، وإن أراد أحد أن يسمي هذا المحتال وعماله رسلاً لابن الهلاك.

كما، وأصبح في هذه الفترة الأسكيم الرهباني المقدّس محتقراً ومهاناً، كما وأصبح الأساقفة والرهبانية سخرية، وتجاسر بعضهم على القريان الذي كانوا يقدمونه. وبلغ الأمر إلى أوجه حين لم يعد الرهبان يستطيعون التجول في الأسواق لسيل الشتائم الذي كان ينهال عليهم من العامة وخاصة من أفواه الشعب التكريتي والموصلي والارسيدي إذ بدأت الحملة هذه لدى هؤلاء ومن عندهم تسرّب إلى أطراف البلاد الأخرى.

وفي هذه الأثناء لم يكن هناك رجل لائق بقلب الملك (الخليفة)

---

(178) من سفر.



قريباً منه راضياً عنه؛ وحدث أن عبد الله بن محمد رأى موسى رجلاً كقلبه، يسير أمامه بالإثم كلّ الأيام، فلما عيّن رئيساً على الموصل زأر كالأسد إذا هجم - وكما هو مكتوب - (إني رأيت ايشاي الصبي كقلبي[179] وقال: سأطارد أعدائي فأدركهم ولن أعود حتى أبيدهم، أضربهم ضربة لن يتمكنوا من القيام منها وأطؤهم تحت قدمي، يصرخون ولا من مستجيب، يتضرعون إلى الله تعالى ولا يهب لهم دعاءهم، أسحقهم كالغبار أمام الريح وكوحل الشوارع أدوسهم.

فطارد موسى الناس وابادهم من على وجه المسكونة، ضربهم ولم يقوموا أمامه، ووقعوا تحت أقدامه وداسهم كالوحل في الأسواق، جعلهم كالهباء أمام العاصفة، يفرون من بلد إلى بلد وطلبوا من الله النجاة ولم ينجهم من هذا العاتي، ولم يفك أسرهم ولم يخلصهم من شدتهم كما ولم يفرج كربتهم، يبست عيونهم وهم ينتظرون المخلص.

وطلب موسى من الملك أن يعطيه صلاحية ليرسل ويأتي بالشعب الهارب من الموصل ويجمعه من أطراف البلاد كالذي يرغب في إصلاح البلاد، فكتب إلى كلّ الأقاليم بأنه لا يوجد رئيس يقف أمامي أو أمام عمل يخصني. فأرسل إلى كلّ ثلاث مدن من مدن الجزيرة رجلاً واحداً معه عساكر كثيرة فقدم أحدهم والمدعو آدم بن يزيد وكان رجلاً شريراً إلى آمد وأرزون وميافرقط وتعرف فيها كالطاغية الي لا يعرف الرحمة قلبه ولا الإيمان بالله روحه.

أما الموصليون الذين تركوا مدينتهم وسكنوا إقليم الجزيرة فكانوا أغنياء جداً جداً، حيث إن جميع أتعاب شعب لجزيرة كانوا يستغلونها

---

(179) من سفر.



ويحصلون على أثمانها عن طريق بيهم للسلع والفائض الذي كانوا يأخذونه بجشع كبير علماً أن الربّ قد قال(180): لا تأخذ الربّى من أخيك، ولا تعطِ نقودك بالفائض أما هؤلاء "الموصليين" فقد فعلوا بالعكس، بالعكس، فكانوا يعطون بالربّا والسلع والأسهم، وبذا أصبحوا أصحاب عبيد وجواري، وجمعوا من الثروات الطائلة، والأموال الكثيرة، واقتنوا الأراضي والكروم، حتى إنهم بعد وقت قصير امتلكوا الأرض كلها حتى الخاصة بمن يتكلمون الآرامية وأصبحت الجزيرة كلها لنرسنبنديين.

وكان الموصليون يجلسون في الأسواق، يأمرون وينهون، كأصحاب الأرض، واستولوا على الكنائس وأصبحوا هم الرؤساء الذين يقومون بإدارتها، ولم يذكروا يوماً أنهم دخلوا الأرض أبرياء مساكين لا يملكون شروى نقير، فإذا كانوا قد خربوا أراضيهم بإقليمهم، كيف يمكنهم أن يعمّروا أراضي غيرهم وبهم تمت كلمة النبي: لا تحسد المنافقين، ولا تغترّ بفاعلي الإثم لأنهم كالحشيش ييبسون، وكالنبات يذبلون في الفجر، فبيت المنكرين يهدمه الربّ. وكانوا كورد البرية أمام الشمس.

فلما جاء هذا الذي مرّ ذكره سابقاً، دخل واستولى على المدجن وضبط أمورها ففر جميع سكانها من أمامه، وأخذوا أموالهم، وحملوا أولادهم على أكتافهم وهربوا بحالة يرثى لهم بها، فكنا نراهم معذبين تائهين بين الجبال، عراة حفاة، جائعين عطاش، وقد ذبلوا كما يذبل النبات أمام العاصفة. وآخرون اختبؤوا في منازل داخل منازل كالموتى مسجونين في قعر مظلمة وهم يترجفون هلعاً، لونهم كلون الموتى في

---

(180) من سفر.



القبور، ولما كان الفصل صيفاً، صعب عليهم الاختفاء وكثير من الذين هربوا ماتوا وأولادهم من شدة الجوع في المغائر والكهوف التي أمّوا إليها، يتنقلون من جبل إلى جبل، والذين اختفوا في البيوت هكلوا من الحمى وشدة الخوف والحر، والذين كانوا مختفين عندهم كان خوفهم أزيد منهم، حيث إنهم أينما وجدوا بيتاً يحلّ به الهاربون، يعاملون صاحبه بأشد العقوبات إذ كان المنادي قد نادى: كلّ من يخفي عنده موصلياً تباع جميع أمواله ويغرّم بكذا مبلغ فخاف الناس من هذا النداء، وشرع كلّ من عنده موصلياً، إلى طرده من داره خوف العقوبة والغرامة. كما كان قد أعلن أن كلّ من قبض على رجل موصلي، له هدية أربعون درهماً، فلما سمع أبناء الشعب القاسي هذا الإعلان ولاسيما من الذين لا يخافون الله، صار عندهم تجارة رائجة، حسنة الأرباح، فكانوا يخبرون عن أي واحد يلمون بمحل اختفائه. وإذا صادفوا واحداً من الهاربين ليلاً كانوا يصطادونه وبدون رحمة يأتون به ويطلبون منه الأربعين درهماً وإلا مصيره أمام الوالي، فيأخذون منه تلك الغرامة رغماً عنه، رضي أم رفض ويطلقون سراحه ليأخذوها منه في اليوم التالي إن شاهدوه ثانية وهكذا دواليك.

من بعد هذا، وقعوا بيد أسوأ من الأولين، حيث إن رجلاً محتالاً وخبيثاً، نصب بنفسه فخاً للجميع إذ لم يكن يرى عند أحد شيئاً مخفياً أو شخصاً اختفى لدى أحد، إلّا نادى عليه كأنه يعرفه منذ زمن ويجعل من نفسه كواحد من العبيد ويقول: أنا فلان، إني ههنا كالذي هو مختفٍ هنا فيشرع رب البيت ويجلسه بسرعة ويخفيه فيبدأ بالاطلاع على معالم الدار وما فيه حتى يصبح كلّ شيء معلوم عنده، كما هو مكتوب عن ابن الهلاك. وكان أناس من الموصليين قد تزوجوا من نساء تلك الكورة



واختلطوا بالمسيحيين وولد لهم أولاد لم يكونوا معروفين حتى من الآراميين، فهذا الرجل الخبيث تمكن من التعرف إليهم، فقبض على رؤساء تلك البلدة التي كانوا يقطنون فيها وبدأ يجلدهم بقسوة فراحوا يقدمون له الأغنام والأموال وهكذا صادهم جميعاً بعد أن عرفهم فرداً فرداً حتى إنه شرع يبيع أموالهم ويأخذ أثمانها له وبهذا بدّد ثرواتهم وجعلهم كالأصبع العاري من اللحم، ثم أتى بهم إلى بلدهم (الموصل) وسجنهم، فاستولى عليهم المرض والجوع وكثير منهم ماتوا، وأصبح أغنياؤهم ورؤساؤهم قد باعوا كلّ مقتناهم وأعطوها له وأصبحوا عراة حفاة فلم يبق لهم شيء. ولم يكن الخبيث يرضى بالفلس والدرهم إنما كان يطالبهم بالدينار الذهبي ولا نصيبهم الموت، وهكذا صادر وباع كلّ ثروتهم ومصّ دماءهم في حين كانوا يستطيعون فدية أنفسهم.

فصل عن العلامة التي ظهرت بالسماء على شكل المكنسة

1080 ي

769 م

152 هـ

في شهر أيار/ مايو ظهرت في السماء من الجهة الشمالية الشرقية علامة شبه المكنسة، وكانت كلّما ارتفعت في الظلمة بدا وكأن غباراً تجمعه أمامها، وعند الفجر كان يظهر لها ذهب ينحدر نحو الأرض. أما سيرها فكان بطيئاً رويداً رويداً حتى دخلت المدار الذي للدائرة في السماء، فغابت وكأنها ابتلعتها. وكان شكلها المرسوم فوقها كأنه المكنسة كما يدخل الكناس أو المكنسة إلى البيت فيكنسه ويجمع أوساخه هكذا هذه العلامة دلت على كنس العالم من الشرور والآثام، فهي بالحق يصح أن نسميها المكنسة.



فهلكت أولاً في هذه السنة كلّ البهائم، وكانت سنة صعبة وشديدة لكثرة الثلج الذي هطل وغطى وجه الأرض أياماً، وصارت شدة عظيمة وقاسية على الناس والحيوانات، حتى غمر الثلج في بعض الأماكن الغنم والرعاة فبادوا جميعاً، ثم هبّت ريح من الجنوب الشرقي ثلاثة أيام وثلاث ليال مع سقوط ثلج كثير هلك فيه أناس كثيرون وبهائم لا يحصى عددها، وكان الأشد حالة والأكثر صعوبة أن أناساً كثيرين أدركهم الثلج في الطرق فماتوا هم وحميرهم.

فصل عن الشعب الذي صعد من الأرض الواطئة والمدعو «البطل» باللغة القديمة سنة 1078 ي

سنة 1078 ي

767 م

150 هـ

في هذا الزمن، أرسل الملك (الخليفة) شعباً من شعوب أرض فارس وأصعده وأسكنه على حدود الرومان. والشعب هذا كان ساذجاً أبناؤه يعيشون عراة إلّا من وزرة، نساؤهم وبنوهم ورجالهم وبناتهم، حيث لم يكونوا يمتهنون أية مهنة، ولا يشتغلون بأي عمل، ولم يعلموا أولادهم أية حرفة، حتى إن نساءهم لم يكن يعرفن الغزل. إنما كان شغلهم الشاغل قطع الطرق واللصوصية، يقتلون وينهبون، يسكنون الجبال الوعرة، حتى إنه لم يتمكن أحد من قهرهم، لا بل تجاسروا ذات مرة على خزينة الملك (أمير المؤمنين)، وإذ فعلوا هذه الجريمة ثار الشعب عليهم وأرسل لملك عسكراً كبيراً، حاصرهم ومن ثم نهبهم وسلبهم وأسرهم كلهم قصد أن يهلكهم بحد السيف بعد أن شنق رؤساءهم، إلّا أن أناساً من الأتقياء أشاروا عليه بأن يرسلهم إلى الحدود ليكونوا أمام الأعداء، وهناك يؤسرون أو يقتلون بأيدي الرومان، فنفذ الملك هذه الشورى بالسرعة الممكنة وأرسلهم إلى بقعة في منطقة شينا مقابل قمح



وكان عددهم ما يقارب الثلاثمائة ألف نفس، عدا الذين هربوا وتفرقوا في أطراف الأرض، وحيث إن هذه المنطقة كانت باردة وهم يعيشون حفاة عراة مات أكثرهم في أول شتاء حلّ عليهم، كما أن الذين بقوا منهم فإنهم لم يتركوا عاداتهم وشرورهم في قطع الطرق، وأعمال اللصوصية.

فصل عن تجديد الكنيسة الكبرى في آمد

في هذا الزمن قام الآمديون بتجديد كنيستهم الكبرى تلك التي بناها الملك التقي الفاضل هرقل حيث إنه لم تجدد منذ بنائها، ولأنها كانت قد تهدمت وأوشكت على السقوط، سعى مار أبي أُسقفها الفاضل (إيوانيس) ومار كوركيس مدبر أمورها وتوما الأرخدياقون ومعهم كثيرون من المحسنين وجددوها، فأنشأوها من أساساتها المنهارة وأقاموا عوضها كنيسة جديدة وزينوها كما كانت من قبل.

فصل في تسجيل أموال الكنائس والأديرة بأمر الملك

إن الشيطان الذي هو عدو الخير، لا يهدأ من دون أن يضع الخصومات والقلاقل بين الكنائس والأديرة، فهو الذي جعل الفرقة بين الابن وأبيه والبنت وأمها، والكنة على حماتها، وأعداء الرجل أهل بيته[181].

ففي هذا الزمن صدر الأمر من الملك بالقبض على رؤساء الكنائس والأديرة بأن يسجلوا أموال كنائسهم وأديرتهم وهياكلهم. وهل يا ترى هل قد حدث مثل هذا الإجراء مرة أخرى؟ فإن الشيطان الذي انتخب له تلميذاً من ذلك الجمع النقي من الرسل المسمى يهوذا الأسير، انتخب له الآن رجلاً من عمر (أومرا) دير مار متى القدّيس البار بأرض الموصل

(181) إنجيل.



واسمه زعورا. فهذا من أجل مشاجرة بينه وبين رئيس الدير، - كما أن يهوذا أسلم سيده للقتل - فإن الشيطان ألقى في قلبه ما لم يكن يفعله ولكن بأضعاف كثيرة، غذ لم يسبب قتل إنسان واحد بل كثيرين، ولم يهدم ديراً واحداً بل أديرة كثيرة، فهذا افترق كالذئب بين الخراف، وجاء عند جعفر ابن الملك وقال له: إن الذهب الذي لبيت هشام وبيت مروان كله موجود في الدير الفلاني، ولم يترك شيئاً عن الدير إلّا وأخبره به وقصّ عنه. فأرسل جعفر عبيداً قساة القلوب إلى هذا الدير وأخذوا كلّ ما وجدوه فيه حتى أواني الخدمة، والرهبان جميعهم كبلوهم بالحديد وجاؤوا بهم عند جعفر، فعذبهم كثيراً وسجنهم من أجل التحقيق منهم عما أخبره به ذلك يهوذا الثاني. ولهذا السبب أصدر أمراً على كلّ الأرض، ليكتب كلّ واحد كنيسته وديره، وظن الجميع أن تلك الأموال ستؤخذ وتصادر كما سبق واخذت الأموال من ذلك الدير. وهذا لم يكن جديداً عند جعفر فقد سبقه بلطشا سر ومدّ يده على آنية الأسرار المقدّسة[182]، وأراد أن تكون له ولجواريه، ولكن الله لا يهمل شعبه بل أرسل روحاً شريرة على جعفر وكادت تخنقه، فأطلق الرهبان، بعد أن أخذ أموالهم. فعادوا إلى ديرهم. وهكذا تركت تلك الحجة وألغي ذلك الأمر ولم يعمل به من بعد لأن تلك الروح الشريرة قتلته.

فصل عن خصوبة الأرض وقوتها وما جرى فيها من شرور

تكلمنا فيما سبق قليلاً عن الشدائد التي حدثت في الأرض. والآن نتكلم وبإيجاز عن قوة الأرض وإلى أين وصلت في هذا الزمان وخاصة عن خصوبة أرض الجزيرة والأراضي الشمالية المليئة بالزروع والكروم والغنى العظيم، فامتلأت بأسراب البهائم وقطعان الغنم والماعز، وخزن

(182) سفر.



الناس الغلات الكثيرة التي كان إنتاجها أضعافاً بأضعاف، حتى من الخمر... كما ورد: «إن إسرائيل قد سمن ولم يقل مبارك الذي أغنانا» ومع ذلك كلّه تجاسروا على أموال الكنائس والأديرة إذ كانوا يقولون: إلى ماذا تحتاج الكنيسة؟ أما نحن فنريد أن ندفع الجزيرة، ولنا أولاد علينا إعالتهم - حقاً كان لهم أولاد كثيرون - فاغتنوا غناء فاحشاً وكثرت الخيرات على جميعهم، فتكبروا وتعجرفوا، فصاروا زناة فاسقين، سكيرين خاطفين شهود زور حسودين، يرتكبون كلّ الشرور والآثام، غذ كان بينهم ملاك الشر يفتح أمامهم سبل الإثم والخطيئة. ولقد وصل بهم الأمر إذا ما احتاج واحدهم إلى شهود في المحكمة وبحسب طلب الحاكم، ينزل إلى الشارع، وكل من صادفه من معارفه يقول له: يا فلان أترغب في الشهادة لي، فيجيبه حالاً: حسب ما قاله الله، عن أي شيء، وقبل أن يعرف الأمر كان يحلف وإن كان ذلك زوراً. فماذا يستحق شعباً كهذا غير ما حدث وماذا يرجو. وكثيراً ما كانت القضية تصعب على الرجال فيفكرون بها وقد يزوغون إلى الباطل. كما كانوا يقيمون يومياً المحاكمات والدعاوى يومياً بين أبناء القرية عند حدود الحقول، بين أبناء القرية الواحدة، أو القرية مع القرية الأخرى، ولم يدرِ الأغبياء أنه عما قليل سيأتي عليهم الغضب وإن كرومهم وحقولهم وبيوتهم ستترك لهم خراباً وهم يتحسرون ويئنون بسبب احتقارهم الاسكيم الرهباني. فعوضاً عن تلك التي قال السيد المسيح: خذ صليبك واتبعني[183]، شرعوا هم يقتنون الخيل والبقر والثيران وقطعان الماعز والغنم، وصار لهم أسهم (شكارة) عند الآخرين، ثم التفتوا إلى ما حولهم ليكوّنوا مع أولئك أسهماً أخرى فأصبحوا كالمجوس يركبون على السَروج ويسيرون حسب رغبة أنفسهم أو بالأحرى شهواتهم، ولم يقدموا الطاعة لرؤسائهم.

---

(183) الإنجيل.



فلا تظن أيّها القارئ أنا أحب أن أشتكي على هؤلاء البشر الذين هم كالدخان، إلّا أني أحب أن أبيّن نعمة الله، ورحمته وحسن أعماله وطوال أناته. وبعد هذا انتظر واسمع إلى أي هوّة قد تدحرجنا نحن وأي شدائد أصابتنا.

فصل تجمع العبيد في حرّان مدينة بين النهرين

في هذا الزمن، عقد العبيد عهداً سرياً بينهم، واجتمع منهم ما يقارب خمسمائة رجل، ماديين وسنديين وجزارويين، فسلحوا نفسهم ودخلوا في منتصف النهار إلى وسط مدينة حرّان واتجهوا نحو دار الخزينة (بيت المال) وكلّ من كان يصادفهم يقتلونه بحد السيف، وغايتهم من ذلك كلّه هدم بيت المال وسلب الأموال التي فيه. فلما سمع عيسى بهذا الأمر خاف جداً وجمع عسكراً كثيراً واصطدم معهم بقتال مرير فقتل من الطرفين عدد كبير. وأخيراً خشي العبيد سوء العاقبة ففروا هاربين بعد أن سقط منهم عدد من القتلى، ووقع آخرون في الأسر، وفرّ الباقون، وقبض على زعمائهم، فقتل منهم، ومنهم طرحوا في السجن.

فصل عن صعود الملك إلى الأراضي الشمالية وبناء قلينقس

سبق وتكلمنا عن البلايا التي تراكمت على الأرض وما وهبته من الخيرات الوفيرة، نذكر الآن أحوال الشعب المنكود الحظ وكيف بدأت شروره. مكتوب في النبي القائل: إن الآثوري هو قضيب غضبي، والقضيب الذي بيدهم هو ضربتي، وأني أرسله على الشعب الأقلفي (غير المختتون) الشعب القذر ليُنهب ويسبى، ويسحق كالغبار الذي في الشوارع... وقال أيضاً: إن كبارهم كالملوك، فلأجل هذا لا يفرح الربّ



بشبانهم وعلى أيتامهم وعلى أراملهم لا يرحم، لأن كلهم أشرار، وكل منهم يتكلم بالسفاهة، وكأنه لم يكن قد قال: إنه يرفع جناحيه ويفتح فمه وينشد أمامهم، فجاء إذن إلى "عانت" ووضع أغراضه في مخمس، عبر مخاضة جعفر أبى بيت بيشان. ففزعت الرامة، وفرت جعبة شاول. حرك يده على جبال صهيون، وعلى روابي أورشليم. فحسناً قال النبي إذا رأى في عين النبوة لتلك الحية السامة أنها تلتوي.

في هذه السنة فرّ الملك من عاصمة ملكه مع جميع أكابر دولته، واستقر في أرض الشمال ومعه عساكر لا تحصى، ودخل مدينة الموصل، فاجتمع عنده الكبار مع الصغار الذين بالموصل وشرعوا يبكون أمامه جراء البلايا والشدائد والمخاوف والخراب الذي فعله موسى بن مصعب. أما هو فكان يفرح جداً بالخراب ولهذا طردهم جميعاً من أمامه، وحمّل رؤساءهم شدائد كثيرة، ولهذا كان نشواناً من أعمال موسى مبتهجاً بها لأنه وجده كما يحب قلبه وكان يقول: إني قد وجدت رجلاً كما يشتهي قلبي يعمل بإرادتي ويسير بحسب مشيئتي، ويكمل كلّ مقاصدي، ويسير أمامي جميع أيام حياتي بالطاعة والإكرام.

ولما وصل إلى الجزيرة وسمع بوصوله عيسى أخوه وأمير الجزيرة، وكان يعلم مقدار محبته للتخريب والتدمير، أكثر من محبته للإعمار والسلام، ولما كانت أرض الجزيرة خصبة معطاءة بكثرة الحقول والكروم والمزارع، هادئة بأحوالها، مسالمة بشعبها طوال أيام تولية عيسى أمورها، حيث كان رحوماً وشفوقاً وكريماً فاضلاً معهم، فأرسل إلى جميع سكان القرى بأن يتركوا قراهم ويهربوا من دون خصام أو صدام، فرضخ أبناء القرى المساكين للأوامر من دون أن يفهموا مغزاها أو نتائجها وجلسوا كلّ في عقر داره مسالمين مطمئنين.



ولما دخل موسى الأرض ورأى خصوبتها وخيرتها، خاصة وصادف دخوله بشهر أيار/ مايو موسم نضوج الإثمار ففكر بالأقامة فيها. ولما يكافئ أخاه عيسى على ما أتى بالإقليم من رفاه وسلام، إنما زار كالأسد راغباً في افتراس أخيه. ولما خرد أخوه باستقباله باحتفال يليق بمقامه طرده من أمامه، وألقاه كعود الحطب المرذول، وأمر بأن لا يبصره أمامه ثانية وقال: كنت أظن أن الجزيرة خربة حقيرة، وهي الآن جنة غناء. واصدر أمراً بتنحية أخيه عن الحكم وصادر كلّ ما يملكه ورماه في الشقاء والعذاب.

ولما انتهى من أخيه قصد نصيبين، ومنها إلى كفروتوت(184). ومنها سار نحو قلينقس.

فصل عن بناء قلينقس الثاني

لأن هذا الرجل (موسى) كان يميل إلى مصاحبة السحرة والمنجمين ويسعى في طلبهم ويعمل بما يشيرون به عليه. ولما سألهم عن الأزمنة وعن المملكة، جمعوا كلّ الأساطير والخرافات الفاسدة وفسروها له كما هي العادة لدى الشياطين (الأرواح الشريرة) أن يضلوا من يتقرب منهم فقالوا له: إن رجلاً (ملكاً) يبني مدينة على جانب فليقنس ثم يذهب إلى أورشليم ويبني هناك مسجداً، هذا يملك أربعين سنة. فقال هذا الغبي، أن هذا هو أنا. فأرسل وجاؤوا بالحدادين والبنائين من كلّ أنحاء الجزيرة وأمرهم أن يقطعوا اللبن ويبنون أساسات السور.

---

(184) كفرتوثا: بضم التاء المثناة من فوقها وسكون الواو وثاء مثلثه. قرية كبيرة من عمال الجزيرة بينها وبين دارا خمسة فراسخ وهي بين دارا وراس العين. ينسب إليها قوم من أهل العلم... (**معجم البلدان**، ج 7، ص 263).



فصل عن هروب الأرمن بيت روما يا
والخراب الذي فعله المسلمون بالرومان

عندما كان الملك في قلنيقس خرج الأرمن من بيت روما يا وقصدوا للعمل بالحصون بالداخلية، وطلبوا منه أن يسمح لهم بالتوجه إلى حيث تسير بهم الطريق (باتجاه وجههم) غير أن الملك رفض ولم يرضَ بأن يخرجوا من الجزيرة. وهؤلاء الأرمن كانوا قد دخلوا الكورة من كوشن. ولما أرادوا الرجوع إلى ديارهم لاقاهم المسلمون لمنعهم، وسمع بالأمر رئيس مدينة قمح فأخذ جيشاً وطارد وراءهم حتى أدركهم وما بين أيديهم من الأطفال والأموال والبهائم، وقد حطوا الرحال في أحد المروج. ولما كان الأرمن مشهورين بالحيلة منذ القديم، هرب قسم منهم وخبروا المسلمين أين هم نازلون، وكانوا غير بعيدين، وحيث أن الرومان كانوا نائمين غير منتبهين، هجم عليهم المسلمون في الهجعة الثانية من الليل فجأة وقتلوهم بحد السيف، ومنهم وقعوا في الأسر وأنزلوهم معهم وبأيديهم رؤوس رفاقهم القتلى وقدموهم أمام الملك في قلنيقس، وكانوا يظنون أن الملك سوف يكرّمهم على فعلهم هذا ويجزل لهم العطايا والهبات مع اسم النصر، إلّا أنه عوض ذلك قابلهم بجفاء كبير حتى قيل إنه أخذ أموالهم.

فصل عن التعديل الذي أجراه الملك على الأرض

لما رأى الملك أن الأرض خصبة مأهولة بالسكان، أراد أن يجري بعض التعديلات ليس من محبته، أو من أجل السلام والرفاه، ولكن زيادة بالسكان لزيادة الخراج وزيادة المشاكل. فأرسل وأتى بأناس منبوذين محتالين وأقامهم عمالاً له وأرسلهم إلى أطراف البلاد ليكتبوا جميع الناس بالجزية.



فصل عن الصوفي، ومستلم الأعشار الذي أرسله إلى الأرض

وكان الملك قد أقام أناساً قساة على جباية الأعشار لأن الذي خرج لجبايتها كان مجوسياً ليس في قلبه رحمة ولا دين، فتجول في جميع مدن الجزيرة وكتب الأسواق بما يباع فيها من البضائع، كما سجل الحوانيت التي بالسوق وكل ما لم يكن مسجلاً بالتعديل حيث كان يأخذها مثل الملك، حتى إن الرحى كان يأخذ عنها ضريبة، علماً أنه قاس السوق بالجبل من باب المدينة إلى باب الآخر، أي بمعنى آخر من الشرق إلى الغرب، ومن الشمال إلى الجنوب. وقاس أربعين ذراعاً من الطرفين خارج السوق، فكلّ ما وقع ضمن هذه المساحة، بيتاً كان أو حانوتاً، سجلها، كذلك سجل كلّ الأماكن التي لم تكن ضمن سجل الخراج وبحسب التعديل كالحدائق أو المزارع أو الرحى، فكتبها لدى الصوفي المسؤول كالملك. كما أنه سجل السور وقطره وبروحه والمحيط الذي حوله بمسافة أربعين ذراعاً من كلّ الجهات. وهكذا صنع في كلّ مدن الجزيرة والغرب التي تجول فيها حتى أرمينية. ولقد أعطى هذه الأماكن لأناس بمبلغ مقطوع (اللزمة). أما هو فقصد مدينة حرام. وهكذا وبهذه العملية قطع دابر التلاعب في جمع الخراج. ولم يبق سوى الخطف والسرقة والنهب، فالذي يذهب إلى إحدى العمليتين للخطف أو السرقة كانوا يقبضون عليه وينال عقابه، بمصادرة كلّ ما بين يديه، كذلك كانوا يتعاملون مع الناس العاملين في البيع والشراء خارج السوق حيث كانوا يخرجون إلى الحقول والطرقات لرصد هذه العمليات مع كلّ عابر سبيل فيقبضون عليهم ويعاقبونهم.

مستلم الأعشار: وأقام الملك عاملاً آخر على الأعشار، وهذا جاء ليخرب الأرض إذ ما دخل مدينة إلّا ومرّ على الأسواق والحوانيت أولاً، يكتب ما موجود فيها من البضائع بضعف ثمنها، فإذا ما رأى بضاعة بمائة



درهم، يسجلها بمائتين، ويأخذ كلّ مائة درهم خمسة دراهم، وإذا تمكن من صاحبها فيأخذ عن كلّ مائة درهم عشرة دراهم. كما كان أعوانه يخرجون إلى الطرق ويسلبون العابرين من الذاهبين والقادمين. كما وكان أشقياء المدن وقساتها يخرجون ليلاً ويدخلون الكروم ويسحقون الأثمار التي يمرون عليها. وإذا صادف أن تاجراً أو مسكيناً فقيراً مرّ بالطريق بعد العشاء كانوا يقبضون على العابرين ويهددونهم أو بالأحرى يخيروهم بين الغرامة والمثول أمام الأمير، فيسلبونهم كلّ ما يملكون آنئذ، ويعلق المؤلف بقوله: لا ليت كانوا يرسلونهم عند الأمير.

أما الناس المساكين الذين كانوا يقبضون عليهم بعد العشاء فكانوا يأخذون كلّ ما عندهم وإن لم يكن لديهم، يطالبونهم بالإجرة التي يأخذونها لقاء عملهم في الكروم، أو يطلبون منهم العمل لمدة ثلاثة أيام أو أربعة ومن ثم يحاسبونهم على عملهم هذا في الكرم أو البستان، وهكذا كانت أعمالهم تضيع هباء وتذهب سدى لقاء لا شيء، فبالكاد كانوا يعيشون، وإذا ما زاد عن حاجتهم شيء ما كانوا يودعونه عند الآخرين وبالتالي لا يخفى عن مستلم الأعشار وإن خفي عنه وقع بيد الصوفي المتزمت، وهكذا كانوا يسلبون الناس من كلّ شيء. حتى إن اللصوص باتوا ينتحلون صفة المسؤولين عن جمع الأعشار فيقطعون الطريق ويسلبون المارة بهذه الصفة، حتى بلغ بهم الأمر أن يقوموا بعملهم هذا في رابعة النهار وليس في الليالي المظلمة، يحققون مآربهم من دون خوف أو وجل. ومن جهة أخرى، كانوا يكتبون غلات الناس بدقائقها، فإذا كان الشخص يملك خمسين كيلة، يسجلون عليه ألف كيلة وبحسب ما يشاءون.

الرزّامون والختّامون: وأقام أيضاً عالماً آخر مسؤولاً عن الرزم والختم (الطبع). فكان هذا يختم جميع الناس في رقابهم كالعبيد وعنه



قال النبي: من لم يحمل ختم الحيوان بين عينيه[185]. أما هنا ليس فقط بين عينيه، بل على يديه وصدره وظهره أيضاً. فلما جاء هذا العامل كانت سمعته قد سبقته إلى الإقليم فتزلزلت الأرض تحت قديمه لقسوته وللغاية التي قدم من أجلها، فقد كان يختم الناس على أيديهم ختماً لا يمحى ولا يتبدّل أو يحوّل من مكانه مادام الإنسان على قيد الحياة. فلما دخل إلى المدن اضطرب الناس وخافوا، فهربوا جزعين بعيداً، فحجزت الحوانيت وتعطل السوق عن البيع والشراء، وانقطعت الطرق من الداخل والخارج، حيث امتنع الداخلون عن الدخول إلى المدينة حتى إنهم ضبطوا الأبواب ولم يسمحوا لأحد أن يخرج من المدينة. وبعد مضي أسبوع على هذه الحالة، لم يبق أحد في السوق حيث تعطلت عملية البيع والشراء، كما لم يدخل المدينة واحد من الكورة كلها. فأرسل العامل إلى صاحب الجزية القائم عوض عيسى أن يرفع الجزية لئلا يقال عنه أنه هرب، فوقع في الحيرة من أمره، هل يذهب، ينتصب أمامه المجهول، وإذا لم يذهب، فلن يتمكن من جمع الجزية. فلما سمع بهذه الحالة، أرسل كتاباً إليه فقصده، وحلت راحة زمناً قصيراً على الناس بسبب غيابه، كما كان القادمون قد امتنعوا من الدخول إلى المدينة.

الهجرة: وأقام عاملاً آخر عن الهجرة، لكي يكون مسؤولاً عن الإسكان والتهجير، فيجب أن يرجع كلّ إنسان إلى بيت أبيه (مسقط رأسه)، وهذا بدوره أقام عمالاً وأرسلهم إلى المدن، وهؤلاء العمال المسؤولون يجتمعون بمدينة واحدة لدراسة الوضع والتخطيط له، حيث أصبح لكل مدينة مسؤولاً عن الهجرة، وبهذا لم يعد يتجاسر المرء السفر كيفما يشاء من جهة إلى جهة إلّا لغاية النهب والشر والإثم وأخذ الثأر،

---

(185) سفر الرؤيا.



وليس هذا فقط خارج المدينة إنما في الداخل أيضاً، ولأجله صار الأخ يخون أخاه ويتجرأ عليه بالمقابل له.

وقد أقام على مارِدِين[186]، رجلًا فارسياً ليستلم أمر الهجرة والجزية، بعد أن هرب سكانها السريان المسيحيون فأعطيت للمسلمين الذين سكنوها وكان العامل هذا يدعى خليل بن زيدان، الذي حمّل المسلمين شروراً كثيرة، إذ لم يصادف أحداً قبله ولا بعده أشد عداوة منه للمسلمين. ومن أعماله الشريرة، أنه أرسل مأمورين من قبله إلى جميع المدن والقرى في الكورة للسؤال والاستفسار عن الذين نزحوا من مارِدِين، فكان كلّ إنسان يُشك به أنه هو أو والد والده بالأصل من مارِدِين وإن كان ذلك من مدة أربعين أو خمسين سنة كان يخرجه من داره أو قريته أو مدينته ويأمره بالعودة إلى مسقط راسه مارِدِين. علماً أنه لم يكن يقبل أية رشوة أو يسمع أي طلب أو مشورة. وهكذا جمع إليها عالماً عظيماً حتى إنه لم يبق مكاناً أو بيتاً أو قرية ولم يمتلئ من الناس.

---

(186) مارِدِين: بكسر الراء والدال كأنه جمع مارد جمع تصحيح... وهي قلعة مشهورة على قنّة جبل الجزيرة مشرفة على دنيسر ودارا ونصيبين وذلك الفضاء الواسع وقدّمها ربض عظيم فيه أسواق كثيرة وخانات ومدارس وربط وخانقاهات ودورهم فيها كالدرج كلّ دار فوق الأخرى وكل درب منها يشرف على ما تحته من الدور ليس دون سطوحهم مانع وعندهم عيون قليلة الماء وجلّ شربهم من صهاريج معدّة في دورهم والذي لا شك فيه أنه ليس في الأرض كلها أحسن من قلعتها ولا أحصن ولا أحكم. وقد ذكرها جرير في قوله:

يا خزر تغلب أن اللؤم حالفكم ... ما دام في مارِدِين الزيت يعتصر

وقد ذكرت في الفتوح، قالوا: وفتح عياض بن غنم طور عبدين وحصن مارِدِين ودارا على مثلح صلح الرُّها ... وكان فتحها وفتح سائر الجزيرة في سنة 19 هـ وأيام من مرح سنة 20 هـ في أيام عمر بن الخطاب. وقال إنشدني بعض الظرفاء فقال:

يا مارِدِين حماها الله لي قمر ... فولا الضرورة ما فارقته نفسا

يا قوم قلبي عراقيّ يرق لهو ... قلبه جبليّ قد قسا وعسا

(معجم البلدان، ج 7، ص 361)



وأما المسلمون، فكان ينقلهم من بلد إلى بلد بعد أن يصادر أموالهم وما بين أيديهم حتى إن أراضيهم وبيوتهم أعطاها للسريان، وشمل ذلك حتى الحنطة التي زرعوها صادرها وألقى القبض على أغنيائها وأنزل فيهم أقسى العذاب وبدون رحمة. وإذ كان أحدهم يطلب الهجرة، يحلق رأسه ولحيته، ويصنع له إكليلاً من العجين ويضعه على رأسه ويجلسه أمام الشمس ويصب على رأسه الدهن، فينزل على عينيه ويصاب بالصداع، ويسمه أحياناً الجنون فيقيّد يديه ورجليه وأصابعه، ويضع في عينيه جوزة من الحديد. وبهذه العذابات وأمثالها كان يتعامل معهم، فهلك الكثير منهم والباقون فرّوا من بلد إلى بلد.

أما عن الشدائد الأخرى التي جرت ببقية المدن، فلندع الشيخ يوئيل أن يحدثكم عنها بقوله: اسمعوا يا جميع سكان الأرض، هل صار فيكم هذه، أو في أيام آبائكم، فحدّثوا بها أولادكم، وأولادكم يحدّثون أولادهم. وأولادهم يقصون للأجيال القادمة. فإن ما فضل من الجراد الزحاف، يأكله الجراد الطائر، وما يفضله الجراد الطيار أكله الزحاف، وما فضله الزحاف أكله الصرصر(187). وكان النبي قد رأى هذا الزمان، والشرور التي تحلّ على الناس. قال: وهذه صارت كلها بالفعل. فالذي ينجو من الصوفي كان يصادفه العشّار، والذي ينجو من العشار يقابله مأمور الهجرة، ومن فرّ من الهجرة يلتقي به من يسلبه؛ إلّا أن القرويين كانوا مظلومين جداً إذ كانوا يسلبونهم بشتى الوسائل بواسطة عمال الهجرة الذين قد ملأوا الأرض بجواسيسهم وفخاخهم للإيقاع بالمنكودي الحظ الذين كانوا يخافون المثول أمام السلطان. وكان عمال الهجرة الأشرار هؤلاء يلقون القبض على كلّ من يشاهدونه ويسلبون

---

(187) سفر يوئيل.



ما لديه من أملاك أو يسوقونه بالهجرة فيخرجونه من بلده، وكان المرء لا يتخلص من رزية أو نكبة إلّا ويقع بأخرى، حيث الموظفون الأشرار كانوا يصطادون الناس فرداً فرداً. وأما عن الهجرة فحدّث ولا حرج إذ كانت أموالهم تسلب كما شرحنا، ويتركونهم كالأصبع الخالية، وأحياناً كانوا يمهلون المهاجر حتى يفرّ من بين أيديهم ولا يرافقهم لئلا يقول عنهم أنهم سلبوه، وإن حدث وصادفوه ثانية كانوا يعاملونه باشرّ من السابق. فكان الغضب سارياً في جميع بلاد الجزيرة.

وفي الأخير أصدر أمراً، بأن لا يحصد أحد زروعه وغلاته، مسلماً كان أو مسيحياً، لأنه كان يريد أن يرى جميع الحاصلات بعينيه في جميع أقاليم الجزيرة. وصادف أن تلك السنة كانت خصبة وفيرة الغلات وفي كلّ الأنحاء. ولذا لم قدم الجزيرة رأى كلّ شيء وجمع كلّ شيء. وفعل الشر مع عيسى الذي أقام عمالاً آخرين بحجة أنهم يستحقون العمل حينما أرسلهم إلى هذه البلاد، وكان قد نال صلاحية العمل من دون رحمة فلما دخلوا إلى محلات المسلمين أو المسيحيين كانوا يسجلونه بما يملكه من التفاح والرمان وأكداس الحنطة والشعير. فإذا كان أحدهم يملك مائة مكيال (المكيال أربعة أقفزة) فكانوا يجعلونها ثلاثمائة، من دون تمييز بين المسلم أو المسيحي، فلم يتركوا شيئاً إلّا وكتبوه أو سجلوه في محلة المسلمين، الجنينة أو المزرعة أو المواشي، وفي المدينة كانوا يطلبون النقود، إذ كثيرين منهم كانوا يبيعون الغلات والفدادين والخمر إذا وجد، وبدون مقابل، فكانوا يكتبون للرجل الواحد فداناً قد زرعها بكذا مكاييل ولم يكن قد زرعها سوى بخمسة مكاييل مثلاً، فكانوا يضعون عليه حصيلة فدان كامل، ولا بدّ من الإشارة هنا أن المسلمين كانوا أكثر من المسيحيين يتحملون الشدائد والضيق. أما المسيحيون فقد فرض عليهم جمع الجزية عن الأفراد وكل القرى حيث كان يؤخذ



من كلّ قرية رأس غنم واحد، جمعها وأرسلها ليدركونهم من بعد...

فصل عن المأمورين والكتبة والصرّافين ورؤساء الأقاليم والحكام

وإذ لم يكن يفارق نصيبين[188]، مرّ كلّ المأمورين والكتّاب والصرّافين ورئيس الإقليم والحاكم الذي تعيّن في أيام عيسى أن ينزل عنده جميع المسافرين في الإقليم، حتى لو كان في القرية الواحدة عشرون حاكماً فلا بدّ من أن يقصدوه مع سائر كتبهم وكتابهم. وهكذا قصد نصيبين جميع العمال الذين اشتكوا عنده وألقاهم في القيود الحديدية، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد سافر جميع الكتّاب والصرافين قصد الحلول لديه، فتُركوا هناك يكابدون العطش والجوع حتى إنهم أكلوا لحومهم. ومضى عليهم زمن غير قصير ولم يجرؤ أحد للبحث عنهم أو استقصاء أخبارهم، علماً أنهم كانوا قد صعدوا من دون قسر الأوامر أو أن يطلب منهم ذلك. وإن كان هذا قد فعله في الجزيرة، فقد عمله أيضاً في قلنيقس. وكما قال أشعيا النبي: وضع أغراضه في مخمس، وعبر إلى بيت بيثان، خافت الراحة، وجعبة شاول فرت هاربة[189].

ومن قلينقس، سار إلى الغرب قاصداً أورشليم لخوفه مما فعله في الجزيرة كلها من خراب وتدمير، وكما تنبأ دانيال على

---

(188) نصيبين: بالفتح ثم الكسر ثم ياء علامة الجمع الصحيح. مدينة عامرة من بلاد الجزيرة على جادة القوافل من الموصل إلى الشام وفيها وفي قراها على ما يذكر أهلها أربعون ألف بستان بينها وبين سنجار تسعة فراسخ وبين الموصل ستة أيام وبين دنيسر يومان عشرة فراسخ وعليها سور وكانت الروم بنته وأتمه أنوشروان الملك عند فتحه إياها. وسار عياض بن غنم إلى نصيبين فامتنعت عليه فنازلها حتى فتحها على مثل صلح الرّها. (**معجم البلدان**، 8: 292 – 239).

(189) سفر أشيعيا.



أنطيكرسطوس[190]. وبنى أيضاً هيكلًا (محراباً) للمسجد الذي كان قد أصبح صغيراً جداً وأكمله المسلمون من بعده. وأخذ امرأة من جديد أي تزوج بامرأة من خربات أورشليم، وجعل يحاجج على الناس لغاية مصادرة أموالهم وأتعابهم، حتى الأبقاء التي كانت عمدة حياتهم سلبها منهم ولم يترك أحداً إلّا والحسرة تأكل أحشاءه، وجرى في أورشليم ما جرى في الجزيرة من خراب وتدمير. ولما استتب له الأمر سافر توقيا من الشتاء قاصداً الجزيرة ثانية لإكمال مخططه الرهيب وكان قبل مجيئه من المغرب قد أقام رجلاً قاسياً فارسياً ليجمع الجزية اسمه «أبو عون». وعمال آخرون أقامهم لقضايا أخرى. ومن هنا بدأت الشرور بالانتفاض كأنها الحيوانات الوحشية. وقد يصادف أن يدخل القرية الواحدة خمسة عمال في اليوم الواحد وأحياناً ستة عمال أو سبعة، ومراراً عديدة يصل إلى العشرة، وكل ينهب ويسلب من جهته حتى أصبحت البيوت خالية خاوية إلّا من الأجسام العارية، وأحياناً كانوا يسحبونهم خارج بيوتهم ليسومونهم مرّ العذاب وأقساه، وإذا ما رحل البعض منهم حلّ غيرهم، حتى لم يعد يكفي لهم لحمهم.

فماذا أقول الآن إلّا ما قاله النبي القائل: كالأسد كان عليهم، وكالدب عند الفريسة، وكالنمر بالطريق، أثور. وهناك يأكلهم الأسد، والوحوش تبجهم. - وإن سمى الإنسان هؤلاء لوحوش لن يهلك، لأنه أكثر من الطير والوحوش شراً. وأيضاً قال النبي: تأتي من الشرق روح الربّ، ومن البرية تصعد، وتخرب عيون مياهه، وتيبس العيون من الماء، وهو ينهب كلّ الخزائن وكلّ مواد الشهوة. وتتخاصم مع السامرة لأنها

---

(190) سفر دانيال.



أغضبت إلهها[191]. ونبي آخر قال: انتبهوا أيّها السكارى وابكوا وانتحبوا يا كلّ شاربي الخمر على الخمر الذي خرج من أفواهكم، لأنه صعد شعب عظيم أمامي، أسنانهم كأسنان الأسود وأنيابهم كأنياب أشبال الأسد.

فانظر - يقول المؤلف معلقاً - كيف ينعت الأنبياء هذا الشعب الشرير بحيوان البرية (الوحش)، فإن كرمي قد يجعلوه خراباً والتينة قد بعجوها وألقوها فيسبت أغصانها، وحقاً فقد أصحاب الكرمة خمورهم، وشرعوا يهربون من قرية إلى قرية حتى لم يكونوا يخرجون أبداً، وإذا ما خرج واحد لاقاه آخر وسلبه. كذلك العمال كانوا لصوصاً، فكل قرية يدخلونها، كان أهلها يهيئون مكاناً للعمال اللصوص والسرّاق. وإن كان فيها عمدة أو رئيس أو مدبر أو وجيه فيكون هو رئيس مغارة اللصوص. وإذ كان المساكين يلتجئون إليهم أو يحتمون بهم فكانوا هم الذين يحفرون حفرة تجتمع فيها كلّ الشرور. لا بل إن أغلبها كانت تأتي من البعيدين والقريبين، من الداخل والخارج.

وهكذا تساوى جميع رؤساء المدن مع اللصوص، فكلهم كانوا يجبون الرشوة ويسرعون إلى الانتقام، اليتامى لا حماة لهم، والأرامل ليس ثمة من يرحمهم، وأحكام الله ليست أمام أعينهم. والأنبياء شهدوا بهذا وجسّوا بأيديهم كلّ الأمراض. فلماذا العتاب على مراحم الربّ التي نصنعها في الكتب سوى لترديد الأجيال من بعدنا. فمكتوب إرسال والدك وهو يخبرك وأمر أولادك ليعلّموا أولادهم عبر الأجيال القادمة...

---

(191) سفر.



فصل عن مباشرة الناس بحفر القبور وسرقتها

من حيث إن الشرور كثيرة، راحت الروايات تتضارب الواحدة مع الأخرى، الجنح على الجنح، ويمدون يداً على يد. وكان صوت العويل يسمع في كلّ مكان، بحيث إن المرء لم يعد يصدق أنه سينجو من هذا الضيق المرير، حتى إن الموتى قصدهم الأحياء ليسلبوهم وينهبوهم، وشرع اللصوص يسرقون القبور، وأصبح ابن الهلال واسطة للشيطان الذي يتكبر على كلّ آله. فهو من ذات الشعب الذي أراد أن يرحم موسى، قديماً، أما في هذا الزمان ولسبب خطايانا ظهر لنا نبت شرير وهو موسى بن مصعب الذي لم يكن شرّه في مضايقة الناس كافة، وإنما للسفليين من شعب الزناة الموجودين معه، فاشتد عليهم الضيق والخراب وهلكوا في هذه السنة الجدباء وباشروا يحملون أطفالهم على أكتافهم وينتقلون من قرية إلى قرية.

في هذه السنة تلقينا أخباراً مفزعة من البلاد البعيدة ذلك بأنه في الإقليم الفلاني قام بعض من الناس بحفر القبور وإخراج الذهب والفضة منها؛ هذا الأمر الذي لم يسمح به ولم يصدّق، إذ القضية مخيفة حيث لا يمكن أن يفعلها أحد في الموتى. ولكن الأمر وقع وحدث، فكانوا يخرجون من القبور ما مع الموتى من فضة وذهب. ونحن لم نصدق حقيقتها أولاً، إلّا أنه لم تطل المدة حتى رأيناها بأعيننا في بلدنا، بآبائنا وبإخوتنا، هؤلاء الذين توفوا في الماضي، وقد ذكرنا هذا للإعلام والإعلان.

فصل عن القوس الذي ظهر بهذه السنة عكسياً

في هذه السنة، وفي شهر أيار/ مايو، ظهرت القوس التي تظهر دائماً بعد السحب، ولكن هذه المرة ظهرت بالعكس، جسمها (قوسها)



من الأسفل، وطرفي رأسها إلى الأعلى، وكأنها قوس بيد رجل مستعد للقتال، تدلّ على التهديد والغضب الذي سيحل على العالم. وكان ظهورها في الساعة الثالثة من نهار يوم الأحد، كما أكدّ الشيوخ الأفاضل الذين رأوها أولاً. ويعلق المؤلف على هذه الظاهرة ويقول: وإن وجد إنسان لا يصدق هذا فليطالع الكتب الأولى التي تؤكد ظهور علامات كهذه كشهادة على حدث سيحدث.

وبعد ظهور القوس، ظهرت علامة تشبه قضيباً أبيض في الجهة الغربية من السماء وأخذ بالامتداد حتى وصل رأسه المتجه من المشرق إلى وسط السماء سمكه كالحبل... وقد تراءى لكثيرين حيث بقي أياماً كثيرة يظهر، وكثير من الناس قالوا عنه تأويلات كثيرة، منهم قال إنه قضيب الغضب وآخرون قالوا إنه قطعة غيم، أو واحد من النجوم التي تصعد قبل أوانها. أما الناس التقاة، لما رأوا هذه العلامة خافوا خوفاً عظيماً إذ جعلوها دلالة عن الخطايا المستوجبة للغضب؛ أما الجهال فلم يهتموا بذلك أبداً، فالحكماء ينظرون إلى المستقبل والجاهل لا يبصر أمام عينه. والحكيم عيناه في رأسه نور، والجاهل يسير بالظلمة.

كان هذا القضيب يمتد نحو منتصف القوس الممدودة وأظهر اختصاصاً، إلّا أن ظهوره لم يطل، سوى أنه أخبر عمّا يحدث بما يرسله الله. وإذ قال أحدهم: إن الله ليس لديه القوس والنشاب، فالأمر يقول مع المزمّر: إن الله ينتصب ويلقي عليهم نبله من الهدوء، فتتوجع ألسنتهم ويحلّون... وقال أيضاً: أرسل نبله وفرقهم فتفرق الناس أيضاً في كلّ مكان... خربت الأرض وأخليت القرى وذهب القوم من بلد إلى بلد...

فصل عن العلامة الثانية التي ظهرت في الجهة الشمالية

في السنة نفسها ظهرت علامة أخرى في الجهة الشمالية، من



المشرق حتى المغرب وكان كلها يدلّ على شدة غضب الله، إذ كانت كخطوط أربعة، أحمر وأخضر وأسود وأصفر، ظهرت من الأسفل وبدأت ترتفع نحو الأعلى، وكلما اختفى أحد الخطوط ظهر الآخر، والناظر إليها يرى كأن ألوانها تختلف وتتبدل إلى سبعين لوناً، فجعلها المؤمنون علامة تهديد ووعيد بالغضب الشديد، وقالوا فيها الكثير من التأويلات، فقال بعضهم إنها تدل على الدم وآخرون بدلائل أخرى. وأنا أقول إنها علامات الله في السماء وأعاجيبه على الأرض.

كيف تأجلت الجزية والسجن في الكنيسة

كلّ إنسان ملزم بدفع الجزية، لم يتمكن من دفعها يلقي المأمور القبض عليه ويلزمه بالدفع. وإذا كان عددهم كثيراً كان يوزع عليهم الجزية بالتساوي، كلّ بما يتمكن، لأن العمّال الذين عيّنهم عيسى لم يستقيلوا بل زادوا شراً وظلماً فوق نطاق الحدود الواجبة، فكان الناس كالحملان بين الذئاب، فنهبوا المساكين واليتامى والأرامل، ولم يتحننوا عليهم، وكان هذا نابعاً من أنفسهم وليس بأوامر الملك وعلى حد قول المثل: طعام الأسد هو «الحُصين» في البراري، والأغنياء طعامهم المساكين... فساد الظلم الأرض ولم يعلم الأغبياء أنهم بعد قليل يهلكون... بالغضب الآتي... فأسرع الأغنياء واشتروا حاجيات الناس المساكين الذين معهم وأقاموا في بيوتهم، وكما اشتهى الأغنياء صار لهم فشرعوا يعطون بالأسهم والفائض من دون رحمة، بل بما يرضاه عقلهم، وهم لا يعلمون بأن آخرة المنافقين هي الهلاك... فقد كانوا يعطون بالدينار الواحد خمسين مكيالاً من الحنطة وآخرون ستين، ومنهم سبعين.. كما كانوا يكتبون عليهم كما يريدون... والخمر أعطوه الخمسين كيلة بدينار، وآخرون بستين أو سبعين وإلى الثمانين. وكانت الحنطة تباع في السوق بالدينار الواحد ثلاثين مكيالاً إلى خمسة وثلاثين



ووصلت إلى الأربعين. وهكذا الخمر، وبيع رأس الغنم الواحد بدرهم، ورأس المعزى أيضاً. أما الثور بخمسة دراهم والحمار بأربعة دراهم.

ولما كانت المساواة في كلّ شيء، والعمل لم يزد ولم ينقص. فجمع المأمور أبناء البلاد، وإذ لم يكن الأمير رجلاً يكره الظلم والإثم، ولا يأخذ من أحد مكافأة أو هدية، ولذا لم يرسل شرطياً واحداً إلى الإقليم. أما المأمور فجمع أبناء الإقليم وسجنهم بالكنيسة الكبرى.

السجن في الكنيسة

لما نادى المنادي للاجتماع في الكنيسة، وخرج الشرطي ليسعر النار، كان كلّ من له اسم ومدين ببعض الدراهم يحجز هو الآخر بالسجن، «وهنا يحق هيكلك المقدّس وجعلوه موضع الخلاء. أعطوا أجسام عبيدك للضربات، وجسوم ولحوم صديقيك تهرّت ونثرت من الأسواط والعصي، وأرجلهم من شدة ربطهم بالسلاسل، وأيديهم ممدودة إلى الأعلى وأصابعهم بالنار».

اجتمع أبناء الأحرار والنساء اللواتي ابتعد رجالهن عنهن، وما أصابهم في هذه المحنة لعظيم، فالنساء أُخرجن من بيوتهن وسُحبن في الأسواق، وجاؤوا بهن إلى السجن وسجنوهن في الكنيسة. تلك النساء اللواتي لم يبصرن السوق في حياتهن، فأهينت كرامتهن وأصبحن حقيرات بين الرجال، وهكذا فعلوا أيضاً بالنساء المسلمات والرجال المسلمين مثل المسيحيين بالمساواة. وكانوا إذا لم يجدوا صاحب الدار، يسحبون النساء (نساءه وبناته)، وفعلوا ذلك في كلّ القرى الواحدة بعد الأخرى. وبهذا كملت كلّ الشرور بإلقاء القبض على كلّ السكان، من أجل الفدية والذين لا يملكون نقود الفدية كانوا يستدينوها بالربّا، أو يجلدونهم بالضرب بالسلاسل التي كانت توضع في أرجلهم وأيديهم.



أما الأثيم فجعلت له مكانة رفيعة أمام المائدة الإلهية (الطرونس) وجلس عليها، إذ وصلت جرأتهم إلى هذه الدرجة، لأن صلواتهم كانت تغضب الله، إذ كانوا يصعدون على المائدة المقدّسة ويصلون فيدوسون بأرجلهم النجسة المائدة، كما كانوا يغتسلون في المذبح ويرتكبون النجاسات مع نجاسات أجسادهم، رجالاً ونساء، كما كان الرجال والنساء يزيلون الضرورة أمام بعضهم البعض ويلقونها من دون خجل في الوسط. وبقيوا بهذه الحالة ثلاثة أيام بلياليها، فعوض العطر الطيب الرائحة صعدت رائحة كريهة من الجيفة؛ وبسبب الضيق تجاسروا على أموال الكنائس والأديرة، كما فعلوا في الكنائس البعيدة ما فعلوه في القريبة، أفعال الحقارة والامتعاض، وأيضاً جرى ذلك في الكاتدرائية الكبرى في الإقليم. وفاحت منها الرائحة الكريهة بعد أن خلت جميع الهياكل من الناس، وأصبحت كخيم المجوس. «من بيتي سأخرج لأن الكهنة نجسوا مذبحي وأبطلوا الشريعة. فلماذا أنتم لي، إن كثرة ذبائحكم قد شبعت منها وأيضاً من كثرة الذكور المذبوحة وشحم الثيران المعلوفة، والحملان الجداء لا أريدها كما لا أريد أن تنظروا إلى وجهي. لم أطلب منكم هذا، ولا تدوسوا دوري، لا تكثروا المجيء إليّ بالقرابين الباطلة، فإن رائحتها كريهة عندي ومرذولة برؤوس الأشهر والسبوت. جمعتم محامكم، وأنا لا آكل مال الحرام. إن نفسي كرهت رؤوس شهوركم وأعيادكم، وصارت عندي ثقيلة. تعبت من الأخذ عندما تمدون أياديكم، إني أحوّل عيني عنكم، وإن أكثرتم الصلوات لن أسمعها لأن أياديكم مملوءة دماً».

وإذا كان النبي يرى جميع الشرور والخطايا بعين الروح قال: فمن الآن إذن لم يبق لكلامي قدر يقول الربّ: فإني قلت وأفعل بكل الشدائد معهم. عملاً يلقي الضيق على كلّ إنسان واحداً واحداً منهم، بما يستحق.



المسلمون والمسيحيون، التجار مع أصحاب الحوانيت في السوق، الداخلون والخارجون في الطرق، كلهم خافوا من غضب الربّ لأجل النجاسات التي ارتكبها أولئك النجسون في وسط المذبح المقدّس، فلبسوا ثياب الحزن الشديد وصرخوا إلى الربّ قائلين: لماذا نسيتنا هكذا يا الله، وازداد غضبك على غنمك، فاذكر يا رب كنيستك التي فديتها بدم ابنك الثمين وخلصها بآلامه المحيية، فتكسر أعدائك في وسط كنيستك كغابة، الخشب التي تكسر أبوابها وأخشابها بالفؤوس، ودنسوا بالأرض مسكنك قائلين: إننا نهلكهم مرة واحدة ونهلك كلّ عباد الله من الأرض، فإلى متى أيّها الله يهزأ بنا العدو والذي يغضب اسمك إلى الأبد، لماذا رفعت يدك ويمينك عن كنيستك، لماذا يا ربّ اشتد غضبك على شعبك ورذلت ميراثك وسلمتنا بيد الشعوب وتسلّط علينا عدوّنا، واستعبدنا الذين يبغضوننا، وقد بقينا عبيداً بأيديهم والربّ قال هذا لكم عند هؤلاء من حيث إني نجيتكم مراراً كثيرة وأنتم أغضبتموني بأعمالكم.

ولماذا تضايق الجميع، وجُمعت أموالهم، حتى الذي أقرض الدينار الواحد لرفيقه كما أقرضه للقرويين لم يرحم أحداً، إنما راح يطالب المدينين له بالربّا القاسي البشع، فجمعها قاسي القلب عامل الإقليم ورحل باتجاه دير للمؤمنين في نصيبين بعد عودته من المغرب، وهذا ما حلّ بجميع كنائس المدن، ولاسيما كنيسة الرُّها التي كان نصيبها من النهب وسلب الأموال أكثر من الجميع، فنقول مع النبي القائل: في كلّ هذه، لماذا غضب الربّ منا، والآن يده مرفوعة.

فصل عن أحد المضللين

في نصيبين سنة 1081 ي / 770م / 153 هـ

من الواجب علينا أن نحكي للذين يأتون بعدنا، وهم بدورهم يخبرون الأجيال القادمة، فقد وجدنا علامة كان الأولون يقيسون بها،



وليكونوا على حذر لئلا يقاسون فيها، فالجاهل لا بدّ أن يُضرب، والعاقل يتأدب.. وإن الموازين التي فيها وزن الأولون يبتعدون الآن عنها، إذ يكفي كلّ يوم شرّه. وقد أوصى السيد المسيح تلاميذه قائلاً: كونوا على حذر من الأنبياء الكذبة، الذين يأتون إليكم بثياب الحملان، فإنهم يضلون كثيرين وإن أمكنهم حتى المنتخبون أيضاً. واعلموا لئلا يضلكم أحد، أن كثيرين يأتون باسمي، فإذا قال واحد لكم إن المسيح هو هناك فلا تذهبوا لأنهم مستعدون ليضلوكم، وإن قالوا لكم إنه في البرية، فلا تخرجوا، وإن قالوا إنه في البيت الفلاني فلا تدخلوه[192]. فلما كان السيد المسيح قد أخبرنا بكل هذه العثرات، وكذلك الأنبياء سبق وأخبرونا، والرسل أيضاً نادوا بآذاننا كالبوق عن مجيء المضل والأنبياء الكذبة الذين يأتون قدامه، ونحن لم نسمع الأنبياء ولا سيدنا المسيح، ولم نطع الرسل لأننا أغمضنا عيوننا، وأغلقنا آذاننا، وألقينا قلبنا في قوّة الضلالة، كي لا نرى بأعيننا ونسمع بآذاننا ونفهم في قلوبنا **الكتاب المقدّس**. فقد نسينا كلّ ذلك وسرنا بحسب إرادتنا ومال كلّ واحد منا عن الطريق كما أشار دانيال، أن الخراب آتٍ بالمسيح الدجّال، ورسله أبناء الهلاك، وقد رأينا ذلك بأعيننا، ولمسناه بأيدينا، فهذا هو أنطوكسطوس الآتي في آخر الزمان والمكتوب عنه أنه يأتي وها قد ظهر لنا في أيامنا واحد من رسله (الدجال). وكل ما هو مزمع أن يفعله الدجال في مجيئه شاهدناه بما فعل تلميذه هذا. ومنذ الآن تكون كلّ الأماكن مخيفة ومرعبة، يقتل فيها الإنسان، وإن المؤمنين سيجلعون لهم علامة حتى إذا ما جاء ويرى العلامة في قلوبهم، وإن هذه العلامة تجعلهم في حذر وحيطة وهي التي تخبرهم وللذين ظهروا منذ القديم. ونحن أيضاً في هذا الزمان، علينا أن

---

(192) الإنجيل.



نضع علامة الإيمان نصب أعيننا، فإن صادف لنا عملاء الدجّال لنكون على حذر من هذا الشرير، لأنه مزج مرارته بالعسل.

حدث في زماننا هذا، أن رجلًا من تكريت من قرية بيث رما[193]، إذ كان شاباً يكرم والديه بحسب ألوية، أحب الحياة الرهبانية النقية فقصد دير مار متى بأرض الموصل، ومكث فيه سنتين أو ثلاث، ثم أغراه الشيطان فترك الدير وعاد إلى حياته الأولى ولكن بعكس ما كان يحيا أولاً في محبة الفقراء والمساكين والغرباء والمكتئبين... دحرجه الشيطان مثل يهوذا فعِوض وعوده المغرية له مدّ له حبل المشنقة، فهذا أيضاً لما عاد إلى بيته، عاشر أولاداً من سنّه واتصف بصفاتهم فاعلاً ما يفعلون. وراح يصرف أمواله التي ورثها عن والديه في المنكر وعاش عيشة التبذير والأخلاق البشعة حتى مال إلى المجوسية واعتنقها له ديناً. وإذ كان يعيش بالبذخ بدد أمواله كلها فلم يبق له شيئاً سوى الحبل الذي على حقويه. ففكر في نفسه وقال: الويل لي ماذا فعلت بنفسي وخرج من بلدته وهام على وجهه في برية سنجار ودخل عند ناسك فاضل هناك وإذ قَبله هذا عنده وجد له عملاً شديداً وقاسياً، وفرض على نفسه الصوم والصلاة العميقين، واستمر على هذه الحالة مدة خمس سنوات حتى ذاب جسمه وأصبح كإنسان هندي شاحب، فتبدلت صورته من شدة حرارة الشمس، ولكن الشيطان لم يتركه وهو في هذه الحالة من العبادة والتأمل، فشرع تتراءى صورة الملائكة يحمدون أعماله ويحدثونه

(193) في المعجم: بارّما: بكسر الراء وتشديد الميم. جبل بين تكريت والموصل وهو الذي يعرف بجبل حمرين. وجبل بارما تشقه دجلة عند السنّ والسنّ في شرقي جدلة فتجري بحافيته الماء منه عيون للقار والنفط. وجبل بارّما يمتد على وسط الجزيرة مما يلي المغرب والمشرق... وبارّما أيضاً قرية في شرقي دجلة الموصل وإليها نسب السنّ فيقال سِنّ بأرمنا. (معجم البلدان، ج 2، ص 33).



عن أحوال المستقبل وإذ سمع القدّيس زعورا ذلك قال له: يا بني كن حذراً من حيلة المضل، حيث إن هؤلاء جميعهم شياطين وكان زعوراً هذا فاضلاً ورئيساً للحبساء في تلك البرية، يوصي هذا الراهب كلّ يوم بأن لا يعتمد على ما يتراءى له، بل ليبتعد عنها ويرذلها لأنهم شياطين ليس إلّا... غير أنه على العكس لم يثبت في نذوره، بل أعطى نفسه للشيطان، وجذب أناساً كثيرين معه ووراءه بدعوى أن فلان كذا هو... وفلان كذا فعل... واليوم سيأتي أناس إليّ من المكان الفلاني... وهذه علامة يميزها الحكماء بأنها ليست عسيرة على الشياطين الذين يغرون أي إنسان ويجرفونه في الأفعال التي يرسمونها له ويظهر ابن الهلاك سره لمريده ليفعل كذا فيفعل مظهراً سره لابن شورته بأن لا يقول بالأمر الذي لا يحدث بمشورته ولهذا يدعى "أخلقرصا" لأنه يكشف الأسرار. ومكتوب أن "أخلقرصا" هو كاشف الأسرار وكأنه ليس خارجاً عن الطريق السوي.

وهكذا إن هذا الغبي زاغ وضل وخرج خارج دائرة المعتاد بسبب المناظر والأحلام وإغواء الشياطين. وضل وراءه شعب كثير. فلما سمع مار زعورا بهذه الأمور وعرف بتمرده على القوانين والأوامر، وذمه لمار زعورا ورهبانه قائلاً: إنكم حسداً تحسدونني، فما كان منه إلّا أن قبض عليه وضربه وطرده من إقليمه وحرّم عليه الأقامة في الموصل أيضاً.

إنما الراهب الضال قصد الجزيرة بأرض دارا، إذ كان في منطقة دارا قرية واحدة كبيرة يسكنها شعب كثير العدد، فلاحون نشيطون بسطاء أكثر ممن حولهم من الناس، كما كانوا مؤمنين أكثر من جميع سكان الإقليم، إضافة إلى ذلك كانوا يحترمون الكهنة ويعزّون الرهبان كالملائكة ذوي نيات حسنة سليمة، بعيدين عن كلّ خداع وحيلة، يعتنون بالفضيلة كأي شعب مؤمن متمسكين بالتعاليم المقدّسة.



إلى مثل هذا الشعب الصالح أوصل الشيطان خادمه الراهب المضل، فلما دخل إلى هذه البلدة وشاهدوه بالثياب الرثة والجسم الشاحب الناحل وقد اسودّ من لفحة حرارة الشمس، قبلوه كالملاك وراح يعظهم قائلاً إنه مرسل إليهم من عند الله، وإن قريتهم ستنقلب وتغور في بطن الأرض وتبقى الأرض فوقها ولن تسكن إلى الأبد، فصدّقوا لنقاوة قلوبهم، كما كانوا يطيعونه لسذاجتهم. واسم القرية حنّي في كورة طور عبدين.

كان الراهب الضال يكرر يومياً قائلاً: توبوا، صوموا وصلوا، قبل أن تفتح الأرض فاهها وتبتلعكم، فقد طفح الكيل من خطاياكم وزاد إثمكم أكثر من سادم وعامورة، ولم يبق سوى النقمة والدنينونة من دون رحمة. وكان الشعب الطيب والنقي يسمع ويرى العسل مخلوطاً بالسم من حيث إنه لحلاوته لم يشعر بمرارة السم القاتل. وإذ لم يكن يسمع لتعاليم سيدنا يسوع المسيح والأنبياء والرسل والأساقفة رغم الصوم والصلاة لم يعلموا أن ذلك من عمل الشيطان. بل الأغرب أن بعض المؤمنين راحوا يتكلمون عنه بأقاويل شتى، فكان الجواب يأتيهم ماذا أتى من الضلال، إنه يدعو للصلاح والفضيلة، وكلامه كلّه يدور حول الصوم والصلاة، ولذا لم يُصْغوا لأقوال الصالحين من الناس فسقطوا بالضلالة ومعهم جمع كثير، فلبس أتباعه المسوح وراحوا يذرفون دموع التوبة تاركين أعمالهم وزروعهم وكرومهم، مكتفين بالدعاء والتضرع فقط... ومنذئذ باشروا يقولون عنه إنه يجترح العجائب والمعجزات كالتي كان السيد المسيح يصنعها. وخرج رسله الشياطين يدعون له ويمدحونه بمعسول الكلام، فانتشر خبره في أرض الجزيرة وكل الكورة شمالاً وجنوباً، شرقاً وغرباً، فتزاحم الناس حوله كلّ يستفسر عن آخرته بعد أن يقدم له هداياه. قافلة تأتي وأخرى ترجع من كلّ الجهات، وعندما



كانت القوافل تتلاقى في مفترقات الطرق كان أفراد القافلة القادمة تسأل أفراد القافلة الراجعة، كيف وجدتم الرجل، فيجيبون، ما سمعنا بمثله في العالم، ولم يقم أحد بأعماله، وكانوا يكشفون جسومهم لينظروا ما فعله معهم قائلين: هذا كان مقعداً وشُفي، وهذا كانت يده يابسة وها هي سليمة، وذلك أجرب، وآخر أعمى، وها أنتم ترون أننا من دون عاهة أو مرض، فانظروا إلى أعيننا مفتوحة، وأيادينا ممدودة وأرجلنا مشافاة، فلا تسألوننا، إنما آمنوا وصدقوا واذهبوا عنده، وكل ما تسألونه تنالون منه، وبهذا الأمل كانوا يحثون الخطى يقصدونه بكل إيمان. وهؤلاء أيضاً حينما يعودون كانوا يخبرون القوافل الآتية إليه بالشهادة التامة: إننا قد رأينا بأعيننا، يطرد الشياطين، ويفتح أعين العميان، ويُسمع الصم، ويشفي المقعدين ليمشوا؛ وآخرون كانوا يقولون: رأيناه يقيم الموتى ويجترح أمامنا جميع العجائب، فيصدق القرويون البسطاء ما يسمعونه من هؤلاء الشهود القادمين من عنده ويهرعون إليه على ظهور الحمير والبغال والخيول حتى صار الشعب الذي حوله لا يعد ولا يحصى.

أما الذين كانوا يظهرون جسومهم والآيات التي جرت عليها، فلم يكونوا بشراً إنما أبالسة تطوعوا لخدمته واشتهار اسمه وترسيخ ضلاله ولذا كانوا يتراؤون للناس قائلين لهم، إننا ملائكة وأسرى صلوات السيد ماروثا، وبهذا الاسم كانوا يدعونه «ماروثا». ونحن تحت إمرته، فإذا سمح لنا لأتينا للبشر بالجنون والجراد، ولآخرين يقولون، عندما يتراءى لهم، إننا إذ يسمح لنا لأتينا بالحياة الطيارة على الأرض ولا نترك أحداً من الناس إلّا نال أذىً... ومثل هذه الأقاويل كانت تسمع في بلاد الجزيرة وتتردد في كلّ الكورة من هؤلاء الأبالسة العصاة. ومنذ ذلك الحين لم يبق لا قاطع طريق ولا لص، إلّا وذهبوا إلى هناك مكان الضلالة، فاختلطت الأمور على المؤمن بمجيء ابن الهلاك هذا وشيوع أعماله بواسطة



خدامه الذين كانوا يتجولون في جهات الأرض ويتقولون عليه بالمدح والثناء، مظهرين جسومهم لكل أحد قائلين، هذا أعمى، وهذا مقعد، هذا أجرب، وهو الذي شفاهم، كما كانوا يظهرون للناس كأنهم موتى وعميان ومقعدون يقدمونهم إليه، فيأمر المقعد فيمشي وكأنه بالحقيقة إنسان مقعد راح يمشي وهم لا يدركون بعقولهم كالأغبياء، تركوا الكتب المقدّسة وساروا وراءه والحقيقة لم يكونوا سوى شياطين. أما الإنسان البشري الحقيقي فلم يقترب منه أحد وشفاه، إذ لم تكن العملية كلها سوى ضربة الشيطان حيث كان الشيطان يتراءى كأنه مريض فيشفى. أما الإنسان الحق فيقول له: أنت لا تشفى لأنك لست مؤمناً.

نحن قد رأينا هذا، وهي تشهد. فكلّ إنسان رأيناه وقد ذهب إليه ورجع، كان يسأله أحدهم، هل قد نلت الشفاء، يجيب: إني مشافى، لكني لم أُفد منه بشيء. كما كان يقول لمراجعيه: إذا آمنت فبعد أربعين يوماً تشفى، فكانوا يقيمون معه أربعين يوماً فإذا ماثلوا للشفاء أطلق سبيلهم وأمرهم بالعودة، ولهذا أسرع إليه أبناء البلاد وتزاحموا حوله وقد حملوا له الأواني الفضية والحلى الذهبية، فيوزع الصدقات ويطيل بالأدعية والصلوات، يذرّ التراب على الناس إرضاء لله. أو يقف كالأُسقف علماً أنه لم يكن له من الدرجات إلّا الدرجة الشماسية. وكما هو مذكور في قوانين الرسل القدّيسين أن الكاهن لا يتبرك إلّا من الكاهن، والأُسقف، وأيضاً لا يقبل البركات إلا من هؤلاء. وهذا المتجاسر ليس فقط يبارك الكاهن إنما بيده وبالصليب كان يرفع يده على رأس الكاهن وأيضاً كان يعمل مسحة الصلاة إذ إن كثيراً من الكهنة اجتمعوا عنده ونالوا منه المسحة، كما كان يتلو عليهم الصلاة، ومن ثم يتفل عليه وكان يعتبر التفل هذا غاية الكمال. وإذا صادف أن راهباً أو أُسقفاً مرّ بالكورة فلا يستطيع أن يتفوه عنه بشيء خوفاً من سكان البلدة لئلا يقتلوه قائلين: إنكم تحسدوننا عليه.



أما القدّيس مار قوريقا أُسقف ذلك الإقليم، إذ رأى رعيته تبددت ونهبها الشيطان كان يرشدهم فلا يسمعونه. وكان الراهب الضال مستعداً للقضاء عليه أو بالأحرى جعل رعيته تهدده، فهرب إلى البطريرك الطاهر، وأخبره بكل ما حدث. فما كان من الطاهر داويذ بعد أن سمع هذه الأخبار، إلّا أن ألقى القبض عليه وسجنه في سجن حرّان. وفي هذا أيضاً لم يترك ضلالته، إنما كانوا يقصدونه وهو في السجن ويمسحهم بالمسحة ويعطي لهم تفلته النجسة.

السنة الأولى من الضيق الذي حدث 1084 ي / 733م / 157 هـ

أولاً: الكلام عن الكتّاب والصرافين والعمال:

لما عاد الملك من أرض أورشليم، قبض على عيسى وغرّمه بكلّ ما كان يملك أي صادر ثروته، وأقام عوضاً عنه موسى بن مصعب الذي ذكرناه سابقاً وجعل محاسبة العمال والكتبة والصيارفة الذين كانوا بأيام عيسى، وانحدر هو إلى بغداد. أما هذا القاسي موسى فلما استلم زمام الأمور، جمع كلّ العمال والكتبة والصيارفة - كما أشرنا سابقاً - على زمن عيسى، غير أنه لم يرسلهم إلى الموصل، إنما سجنهم في بلد بعد أن غلّهم بالحديد، إلّا أنه لم يحاسبهم أولاً إنما شاء بالتحقيق لكي يعلم مقدار ما جمعوه من الناس، فجعل له عيوناً من الأشقياء القساة الذين لا يذكرون الله في قلوبهم إذ إن ابن الهلاك هذا انتخب له هؤلاء الذين يفتشون عن الأسرار مثله، كالشيطان والذين يتبعونه نهايتهم الشريرة هي جهنم، وهكذا راح يستقصي الأخبار عن كلّ واحد في مدينته الكاتب والعامل والصيرفي ماذا كان يملك وكيف كانت حالته المالية في البيت والبلدة، هل ربح ذلك من ميراثه أم من عمله، فلما اطلع على كلّ الأمور



والأسرار، ألقى عيونه أو مخبريه في الفاقة عوض المكافأة لأن الله ألقاهم بيد هذا المنافق الذي يحب الشر، أكثر من الجميع، فسجنهم جميعاً مدة خمسة أو ستة أشهر وبهذا اطلع هذا المنافق على تصرفاتهم جميعاً عن طريق هؤلاء الذين انتخبهم من مدنهم، حتى إنه لم يكن يتهم شخصاً من بلد آخر، إنما كلّ ببلده. كما كان يفرض على المشتكي ذهباً أو فضة يدفعون له بعدد كبير يتجاوز الأربعة عشر أو الخمسة عشر أو العشرين والثلاثين والأربعين وحتى الألفين، وهكذا أكمل قساوته ونقمته إضافة إلى العذاب الذي كان يسومهم به واحداً واحداً بالضرب على الأرجل (الفلقة) أو الجلد على الظهور حتى يدفع ما قد فرضه عليه من المال، وإلّا يبقى مكبلاً بالحديد، وإذا ما أطاع الأمر فإنه كان يخرجه من السجن ويرسله إلى مدينته يرافقه الجنود والذين كفلوه لكي يقبضوا منه ما فرضه عليه من المال وما بقي له من الثروة.

ولما رأى فاعل الإثم أن مكانته عظمت عند الملك وزاد في إكرامه كثيراً، وأن الملك يفرح بالتخريب أكثر من التعمير، زأر كالأسد عندما يتربص بالفريسة وبدأ يعامل أهل الأرض كما عامل فرعون بني إسرائيل في مصر، فأمر أولاً المعدّلين بأن يعدّلوا أقاليمهم، فصنعوا بما أمر ولكن بالقسوة التي تعلموها منه، ولكيما لا ينظر إلى أوامره بالريبة أطلق على التعديل اسماً جديداً، وشرع يجبي الضرائب بحسب التعديل الجديد وإن عمال التعديل اتبعوا عادة الرشوة والهدايا من دون خجل أو خوف وهكذا جرى نظام التعديل على أساس القسوة والسرقة.

ثانياً: الكلام عن الرزّامين وأصحاب الختم

إضافة إلى الكتبة والصيارفة والعمال، أرسل إلى الأقاليم الرزّامين والختامين إلى الطرق الخارجية والداخلية للتفتيش عن الباعة الجوالين



والثابتين، فكانوا مثلاً يأمرون كلّ من وجدوا اسمه واسم بلده أو مدينته بخلاف موقعه، برزم أمواله ومغادرته من حيث أتى وبمعنى آخر رجوعه إلى محله الأصلي. وبهذا هؤلاء لم يكونوا يكترثون بأمر سوى لإشباع طمعهم وعند تلبية طلباتهم كانوا يختمون الأوارق بالختم اللازم بعد إضافة كمية من المال على ما يستحقون لهم. ولهذا قُبض على رؤساء البلدان وصدر أمر مفاده: لا يترك أو يخرج الإنسان من بلدته إلّا بعد أن يأتي بما لديه من المدينة، وإن كلّ واحد يدخل كذلك. فكان يكتب على يمينه اسم مدينته وعلى يساره اسم الجزيرة وعلى رقبته يختم بختمين الواحد يحمل اسم مدينته والثاني اسم بلده، وكان يؤخذ من كلّ رجل ثلاثة دراهم. وبعدئذ يكتب اسم الرجل وشكله ولونه ومن أي قرية هو أو من أي بلد. ولقد أرعب هذا العمل الناس وأفزعهم حيث قبض على أناس غرباء كثيرين، سجلوا باسم المكان الذي وجدوا فيه، وصادف أن أناساً لم يدخلوا المدينة أو القرية، إنما شوهدوا في الطرق المؤدية إليها فنسبوا إليها. وهذه عملية التسجيل كانت الشرّ الأخير في جعبة الأشرار الذي أساؤوا على الأرض والعالم.

وإذ رأى ابن الهلاك أن في قوسه سهم خير خرج إلى الإقليم مفتشاً ومتجولاً أكثر من عشرين مرة حتى ختم جميع الناس، وصح فيه قول النبي ويوحنا الرسول: «وأخذ جميع الناس ختمه على أياديهم وصدورهم وظهورهم».

ثالثاً: العشارون

أرسل الظالم عمالاً آخرين وأقامهم على الأعشار، وهؤلاء زعزعوا الأرض بدخولهم المدن، إذ قصدوا الحوانيت وكبسوا ما فيها من البضائع، فإذا كان للرجل صاحب الحانوت مالاً بمائة درهم، كتبوا



خمسمائة. وإذا كان بألف، كتبوا خمسة آلاف. ثم دخلوا على دور المسلمين والمسيحيين على حدّ سواء، وختموا كلّ ما في العنابير من الحنطة والشعير وما إليها من دون النظر إليها أو التدقيق إنما يكتفون بما يكتبون، كذا ألف على فلان، وكذا ألف على فلان وهكذا، كما كانوا يأخذون من كلّ عشرة مكاييل مكيالاً واحداً، على أن تسلّم في بغداد، وهكذا أتى الخراب على الأرض بسبب هؤلاء الأشرار أدلاء الإثم.

أما موسى فكان يرسل إلى عملائه هؤلاء يستقصي منهم الأخبار عن كلّ مدينة وقرية وما يملكه الناس، كما كانوا يرشونه لكي يغض النظر عنهم وإذ كان العشارون ينهبون كان السكان يخسرون الخسائر الباهضة والمخبرون من جهة أخرى يحاولون تخيف هذا البلاء. إلّا أن الأمر كان يختلف تماماً فكانوا يخرجون إلى الطرق والمعابر، ويسبون كلّ من يأتي أو يذهب بكمائن يكمنون بها في الطرق وينهبون ما لدى الناس كاللصوص، وبذا انقطعت الطرق من المسافرين، الذاهبين والآتين حتى قصدوا موسى وناحوا أمامه، فأوصى بأن لا يقبض على أحد خارج السوق، وبهذا تمكنوا من التخلص من الشرور.

رابعاً: قضية الصوفي

كل نبات يأتي من مثله ويبقى بعد نوعه، فإن كان سيئاً يكون الآتي منه أسوأ بسبب الأصل السيء القاسي. ومكتوب بأن الجذر الشرير ينبت ثماراً شريرة، هكذا اللعين لا يشبع إلى الأبد وإن اقتنى جميع أموال العالم، وإنه يشتهي أن يكون له حتى الذي لا يراه، فهو كالهلال والقبر لا يشبعان. فهذا هو ابن الهلاك، ابن الشيول لا يشبع من كلّ الناس وأموالهم وأراضيهم ومقتناهم وإن كانوا يعملون له. وعليه مدّ قسوته إلى الطرق والجبال والمياه الجارية في الأنهر، وحتى الأموات المدفونين منذ ألفين



أو ثلاثة آلاف سنة، كان يخرج عظامهم من أماكنها ويذرّيها على وجه الأرض كالغبار. فالويل لك يا شيول كيف لا تشبعين من الجثث التي تكوّم داخلك يومياً، حتى الأولاد الذين ولدتهم لم يشبعوا، إلّا بالموت الذي سدّ أفواههم القاسية.

وإذا كان مأمور الضرائب (الصوفي) يأتي إلى كشف السوق والطرق كان أتباعه يسلبون كلّ عابر سبيل، فلزوا الأنهر ومنعوا العار فيها والسفن وصيد السمك مها إلّا بعد دفع الضريبة الواجبة. أما السوق فكانوا يقيسونه بالجبل من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، ولكل جهة أربعين ذراعاً بالضبط، وضبطوا الحوانيت والدور، وكل حانوت لم يجدوه مسجلاً في السجل القديم يصادرونه وكذلك البيوت حتى اضطر سكانها أن يخرجوا منها. وإلا فرضوا عليه الحصار، وهكذا زادت الشرور. حتى سور المدينة خضع للقياس واحتسب الأبراج ومحيطه من أجل تكميل قساوتهم ورغبتهم في الطمع. فأرسلوا المنادي لينادي، كلّ من أراد حانوتاً أو برجاً ليؤجره فليذهب لدى مأمور الضرائب ومع هذا كلّه لم يشبع سيدهم ولم تكمل رغبته، إنما وجد أن النقص مازال كثيراً ولا بدّ من ردّه، ولذا التزم الأماكن مع البيع ثم عبر إلى العمارات والتزمها.

إضافة إلى ذلك فرض ضريبة على صيد الأسماك، حيث كان الكثيرون يعتاشون من صيد السمك فيدفعون ضريبة الجزية من أثمانها إضافة إلى دفع غائلة الضيق عنهم، فأمر المنادي بالمناداة أن كلّ من يصيد سمكة من النهر يجب أن يجعل لنفسه ثلمة أو بركة خارجة عنه عدا ما يأمر به المأمور وإلا يستحق الموت، وهكذا امتنع الناس عن صيد السمك. وإذا حدث وشاهدوا شخصاً صاد سمكة أو ألقى شبكة، كانوا يضربونه حتى الموت ويأخذون ما اصطاده من السمك. وفي الحالة



الاعتيادية كانوا يأخذون نصف ما يصيده الصياد. ولما امتنع الصيادون عن الصيد، قصده الناس وهم يبكون طالبين السماح بالاصطياد، فوافق على شرط أن يعطون له المبلغ المفروض عليهم، إذ كانوا قد فرضوا على سكان القرى الواقعة على ضفة النهر، وهذا ما فعلوه بجميع المناطق الواقعة على ضفاف الأنهر، وكان يعين لهم المسافات الخاصة بهم للصيد لقاء مبلغ معين من المال. كما كانوا يقبضون على الزوارق التي تعبر في الأنهر ويأخذون نصف ما فيها من الحمولة أو نصف الأجرة وهكذا شمل الضيق كلّ الناس في كلّ الأطراف. فمن نجا من العشر، يصادفه جابي الضرائب، أو يصادفهما كليهما فيقبضان عليه في ساحة واحدة مع الذين ألقي القبض عليم. وهكذا بدأ الناس يهاجرون من أماكنهم إلى أخرى بعيدة...

خامساً: مأمورو الهجرة

إن عروق الدفلى أنتجت أكثر من غيرها، وكان في ثمراتها السم الزعاف، القاتل والمبيد. فقد أقيم عامل واحد على الجزيرة كلها يشرف على حركة الإسكان فيها والتهجير. فما أن استلم الأمر، جعل رغبته كلها في صنع الشر ونشره، فانتخب له أعواناً أشراراً، هؤلاء الذين نعتوا بالوحوش البرية والطيور الكاسرة. أرسلهم إلى المدن كالذئاب بين الحملان، يجبون الأموال من الناس أضعافاً لهم وله. وهكذا أرسلهم إلى كلّ مدن الجزيرة وقراها من دون تخصيص الأشخاص للمدن، فكان يدخل المدينة الواحدة في يوم واحد أو أسبوع واحد عشرة عمّال مسؤولون عن جمع ضريبة الهجرة والإسكان، فيخرجون على الناس كالوحوش الضارية يسلبون أموالهم من دون رحمة أو إشفاق حتى لو باع المرء ما لديه ودفعه لهم لا يكتفون، إنما كانوا يحاسبونهم الحساب العسير، وكثير من الناس قبعوا في عقر دورهم لا يغادرونها كالمساجين،



لا بل والأنكى من هذا مات بعضهم جوعاً وبرداً تحت قسوة الجلد بالسياط لعجزهم أن يأتوا بالمصاريف الباهظة التي كانوا يحمّلونها للمساكين.

فكان المرء إذا ما دخل قرية أو عمارة أو برجاً يلتقي أربعة أو خمسة من العمال الجباة، وإذ هرب الفرد من القرية لينجو من الضريبة وقصد قرية أخرى فإنه لا ينفك أن يلتقي بالجباة في الطريق أو باللصوص الذين كانوا يسلبون في رابعة النهار ولا يحتاجون إلى ظلام الليالي. وإذا اتفق ونجا فإنه يقع في مصيدة أبناء القرى وهكذا على حد قول النبي موسى: إن النار أصابت غضبي فتحترق الشيول السفلى وتأكل الأرض خيراتها، وتحرق أساسات الجبال. سأجمع عليهم الشرور، وحيوان البرية يآجر بهم... كذلك الحكيم الفيلسوف يقول: إني لم أر إنساناً بصورة إنسان، إنما بصورة الحيوان والطير... وأيضاً يضيف النبي ويقول: سمّ الحيات قد وجد فيهم. والأكثر هو سم عدم الرحمة في قلوبهم، وكالنار أيضاً لا رحمة لديهم، إلّا أنهم كالذئاب عندما يسقطون بالحفرة يفزعون.

هكذا هؤلاء العمال كانوا كالكلاب المسعورة في القرى يتجولون لأن صاحبهم أطلق لهم اليد بارتكاب كلّ الشرور والآثام، ولم يستطيعوا مواجهة الحق لأنهم قد زاغوا عن طريق الحق.

فصل عن الشرور التي أصابت المسلمين

لأنه لم ينج أحد من هذا الغضب الذي جرى في ذلك الزمان وذلك من أجل خطايانا الكثيرة.

عن العمل الواجب على عالم الدين المسلم

إنه الذئب الخاطف، كلّ إدارته مملوءة غضباً وكذلك جميع



خطواته وسلوكه مشحون بالغضب. فقد عيّن عاملاً آخر بإقليم الجزيرة يشرف على الأعمال والواجبات وتقسيم الأموال على الشيوخ والملالي وكان هذا نوعاً من التعديل الذي جرى على الضرائب المفروضة على المسيحيين فشرع يحاسب المسؤولين في محلاتهم ويسجل مقتناهم وجميع غلاتهم وكل شيء لهم، من أملاك الحدائق الخضراء أو مزارع القطن وكذلك أموال سكان القرى من الماشية والدواجن والغلات. ولما كان هذا الأمر جديداً لم يرد ذكره في شريعة المسلمين كما ولم يتخذ مثلها الخلفاء السابقون كانت العملية مذمومة بعينهم ولم يهتموا بها.

ولما كتب جميع ما لديهم، وأنهى عمله واحتسب كلّ شيء وجعله مالاً معلوماً، جعل للفدان الواحد أربعة وعشرين درهماً. والعشر الذين يستحصله من الغنم والماعز والثيران والحاجيات الأخرى فهي الأخرى وضع لها قيماً نقدية كما شاء، وأيضاً الحنطة والشعير، ولم يترك شيئاً إلّا وسجله حتى الحمام والنحل والدجاج. وإذ وجد لشخص أن له "شكارة" مزروعة - لدى أقربائه في القرية - بالحنطة والشعير والكروم هي الأخرى سجلها باسم خاصته من المسلمين، وجعلها مع خاصة أمواله وفرض عليه الضرائب.

بعد هذا كلّه قدم إلى المنطقة موظفون من مدينة عاقولا (الكوفة) والبصرة، وكانوا أشرّ من فرخ الحية الرقطاء حاقدين غير رحومين ولا يخافون الله. لا يخجلون من الشيوخ، ولا يرحمون الأرامل، وينهبون أموال اليتامى.

هؤلاء جاؤوا لاستيفاء الرسوم والضرائب. ومن هنا نشبت الفتن وسرى النزاع بين الناس المحترمين والشيوخ (الموظفين) حتى إنهم كانوا يعاملونهم بالضرب والجلد، فكانوا يشدون بأيديهم الحبال



ويجرونهم في الأزقة ومن بينهم أناس أشراف كرام، ومنهم من بلغ التراقي وكادوا أن يفارقوا الحياة. فكانوا يأخذون من العشرة واحداً، حتى كان المسلمون يبيعون أموالهم كلها ليسددوا ما عليهم من الطلب، علماً أنهم كانوا يلتمسون منهم أن يستوفوا بما تأمر به الشريعة التي وضعها النبي محمد والخلفاء السابقون، الذين كانوا يأخذون من كلّ واحد من نوعه، أي من الحنطة حنطة ومن الماشية ماشية وهكذا، فلم يوافقوا قائلين: اذهبوا وبيعوا ما لديكم حسب رغبتكم وأعطونا طلبنا ذهباً. فحقاً هكذا انتقم منهم اللعين على حد قول المثل: إن الساحر يقدر على الساحر وأيضاً الترياق ينفع الترياق ضد سموم الحيات.

ولما كان هؤلاء ينخرون كدودة الخشب بين القرويين الأغبياء الذين أخذوا أراضيهم وبيوتهم ومزارعهم مع مقتنياتهم، حتى إنهم قادرين أن يخذوا أولادهم وهم معهم أيضاً عبيداً، وكل ما يقتنون. علماً أن هؤلاء القرويين كانوا يعملون عندهم كالعبيد.

غير أنهم لم يستطيعوا أن يعارضوا الحية الملتوية موسى بن مصعب. فجميع حيلهم باءت بالفشل وهم في انتظار الضرب والجلد القاسي من كلّ جانب. فكان هؤلاء الجباة قد أذاقوا الموت للقرويين الساكنين في محلاتهم، واقتسموا بالمناصفة ما كانوا يملكون وهربوا من غربتهم. بعد أن ضايقوهم كثيراً فجعلوا للفدان مقدار أربعة وعشرين درهماً، ولكل ثلاثين ثوراً عدلاً، وجعلوا ثمن العجل أربعة وعشرين درهماً، وعن الأربعين ثوراً بقرة، وجعلوا قيمة البقرة أربعة وعشرين درهماً وإن لم تكن تساوي بالسوق أربعة دراهم. وسلّة النحل جعلوها بدرهم واحد. وهكذا استفلحت شرورهم وشملت كلّ الأشياء التي كانوا يجبونها بعد أن فرضوا عليهم الرسوم الظالمة والمعاملة الخالية من الرحمة، حتى إن بعض الشيوخ والناس النبلاء خرجوا وقصدوا موسى وبكوا أمامه



وولولوا واشتكوا على أولئك الجباة، فأعطى لهم اثني عشر ألف درهم من عنده. ولكن الشرير لا يحسن، وإن صادف وأراد الاستقامة فإنه يبقى ضالاً، حيث نراه يرجع ويطالبهم بالاثني عشر ألف درهم ولم يعفهم منها، لأن المرّ لا يصبح حلواً، ولا الحسك يعطي ثمراً. فيا أخوتي، لا أحد يعاتب الكاتب إذا ما اختصر بالكلام عن جميع البلايا والرزايا التي كثرت علينا. فلو انقلب البشر أوراقاً، والأخشاب أقلاماً والخمر كلّه أصبح مداداً لتدوين جميع الشرور والمظالم التي حلّت في الأرض لا تكفي ولا ينتهي الحديث عنها. والآن ننتقل إلى أخبار أخرى ونترك المجال للذين يأتون بعدنا.

عن الآية التي ظهرت ثانية بهذه السنة بالجهة الشمالية

خاطب الله الأنبياء بالأمثال التي كان يضربها لأبناء هذا العالم القاسي وأخيراً تكلم بواسطة ابنه الحبيب مع جميع أبناء آدم. والآن بيننا أبناء أشرار لا يعبؤون بالأنبياء وأقوالهم ووعودهم، وبما وعد المخلص كنيسته ولا بكرازة الرسل أيضاً، فإنهم قساة القلوب، يغمضون عيونهم ويسدون آذانهم كي لا يروا بعيونهم ولا يسمعوا بآذانهم ولا يفهموا بقلوبهم الكلمات الحية للمخلّص، فنتوب من شرورنا ونحيا. فتظهر لنا علامات في السماء كنذير لانتقام الربّ من الشعب العاصي القاسي القلب والغليظ الرقبة، فكانت كشهادة لكثرة الشرور التي نقترفها وعن الغضب المعدّ لنا والآتي من العدالة الإلهية. فإن العلامة التي ظهرت قبل سنة في الجهة الشمالية، قد ظهرت ثانية في هذه السنة يوم الجمعة من شهر حزيران/ يونيو. وقد ظهرت ثلاث سنوات متتالية في اليوم نفسه (الجمعة) وكانت فترة ظهورها ذات الفترة السابقة وأيضاً من المشرق إلى المغرب، وكان المرء الناظر إليها يراها مختلفة الألوان، تتبدل ألوانها بين آونة وأخرى، فإذا اختفى اللون الأحمر ظهر الأخضر، وإذا



غاب الأخضر ظهر الأصفر وإذا غاب الأصفر ظهر الأسود، وهذه كلها تشير إلى الشرور الكثيرة والمختلفة التي ارتكبت على الأرض، فليست واحدة ولا صادرة عن واحد إنما المعاصي والآثام كثيرة ومتعددة.

ما صادف من الضيق بالسنة الأولى

يا شعبي ادخل إلى مخبئك وأغلق أبوابك بوجهك ووجه أولادك وارتح قليلاً حتى يمرّ غضبي... وقال النبي أيضاً: لا تخف يا شعبي من آشور الذي ضربك بقضيبه لأنه بعد زمن قليل سيزول غضبي... ونبي آخر قال: إذ كان في هذا الزمان يرى بعين النبوة وبالفناء الشرير الذي وقع في الشعب والكهنة والهيكل المقدّس، وإن الفرح قد زال عن الناس، فصرخ وقال: أيّها الكهنة البسوا المسوح وانتحبوا وابكوا أيّها الشمامسة خدام مذبحي، فادخلوا وناموا في المسوح خدّام إلهي، حيث قد منع من بيت إلهكم الدقيق والسميد. قدّسوا الصوم، اجمعوا جموعكم، اجتمعوا أيّها الشيوخ ويا جميع سكان الأرض إلى بيت الربّ إلهكم، فاصرخوا إلى الربّ وقولوا: آه، يا له من يوم، فإن يوم الربّ قد اقترب، وإن السبي آتٍ من عند إلهنا، وقد مر أمام أعيننا من بيت الربّ الفرح والانشراح. فإن الفرح والسرور قد زال وبطلت الآحاد والأعياد. ومنع القربان عن مذبح الربّ، وصارت أعيادنا أيام حزن، وانقلب فرحنا إلى عويل، وصار سرورنا ضيقاً وكآبة، وفي ذلك اليوم هتف أشعيا النبي: احتقر الربّ الرئيسات بنات صهيون، وشوّه أشكالهن. وفي هذا اليوم نفسه أزال الربّ مجد بنات الكنيسة المقدّسة، ومجد بنات الأحرار بثيابهن وملابسهن وذهوب شعورهن وأصداغهن وزينة وجوههن ومراودهن، وفصوص العقيق بأسوارهن وجميع أدوات زينتهن وثيابهن الكتانية والأرجوانية والحريرية، وكل ثيابهن البرفيرية والقرمزية، وكل الزينة التي يتزيّنّ بها صارت لها رائحة خلّ عوض رائحة الطيب، وعوض محازمهن تمنطقن



بالأرز، ولبسن المسوح المرقعة وهنّ يتجولن وأبناؤهن على رقابهن من مكان إلى مكان، ومن دار إلى دار يتضورن من شدة الجوع، عراة حفاة...

الآن لنسرد ما حدث في هذا الزمان...

أولاً جاء عامل لجمع الجزية

نادى بالناس المنادي أن اطمئنوا واسكنوا بهدوء وسلام ولا تجزعوا، لأنني جئت لأقوم بتعديل جديد، أجمع بموجبه، ولن أجمع كما جرى سابقاً، كلّ إقليم بمفرده، أو كلّ قرية لوحدها، ولا عن كلّ رجل، إنما الكل سواسية. وإذ صدقوا أقواله، وركنوا إلى أحاديثه، مكثوا في ديارهم صابرين، فقد كانت كلماته حلوة كالعسل غير أنها مملوءة بالأحزان.

فلما باشر بجمع الجزية، وخرج كلّ واحد ليستقر في محله، أرسل إليهم عمالاً كثيرين، فجعل لكل قرية اثنين أو ثلاثة من الحكام، وهؤلاء جعلوا لكل عشرة رجال رئيساً. ورؤساء الأقاليم جعلوا على كلّ إقليم اثنين من المساعدين.

هؤلاء الحكام والرؤساء والمساعدون خرجوا كالذئاب الخاطفة إلى قطعان الغنم الآمنة. خرجوا كالبروق النارية، ملؤوا الطرق المؤدية إلى القرى، حتى أصبح في كلّ قرية عشرة من المعقبين (المسؤولين) أو عشرون يجمعون كما يشاؤون، ويفرضون أكياس الغلات وليس ثمة من يحاسبهم. فنهبوا الأرامل واليتامى، وثمنّوهم وباعوهم، وصنعوا شروراً كثيرة مع الفقراء والمساكين الساكنين بينهم، وكانوا يجمعون ضرائبهم بشكل حصص. فالأول يأخذ الثلث، ليأتي الثاني ليأخذ الثلث الثاني، وهكذا. كما كانوا يعاملونهم بقسوة ضارية ريثما يكملون. كما كانوا



يقطعون لهم أسهماً في الأقاليم، كأنما الضريبة الأولى لا تكفي لهم. وكثيراً ما كان العمال والرؤساء والحكام يسرقون أموال الأقاليم والمدن والقرى...

العامل الثاني

إن هذا الرجل كان محتالاً وغشاشاً، قاسياً وخبيثاً، رفيق اللصوص، دأبه كسب المال بأي وسيلة كانت من دون خجل أو حياء جهراً وعلناً. كان يسلب السكان المغلوبين والمقهورين أموالهم. فإذا جاءه متخاصمان للحكم بينهما فإنه كان يأخذ الشيء الذي بيد السارق ويطلقهما. ومع ذلك كان حلو اللسان يقطر شهداً، وعواقبه وخيمة تقطر حزناً وألماً.

وهذا العامل، انتخب له مساعدين لا يعرفون تقوى الله، وجعلهم أدلاء له ومرشدين، وأرسلهم إلى البلاد كالذئاب الجائعة، وفرض عليهم بأن يجبوا أولًا ضريبة سمّاها «إشعال النار». وعندما كان هؤلاء المساعدين يأتون إلى رؤساء الأقاليم والعمال الذين في المدن والقرى، يقبضون عليهم طمعاً بالمبلغ الذي جمعوه وهو بحوزتهم، فيفتقون الأكياس ويأخذون منها مقدار ما يشاؤون قائلين: إن هذا للأمير، لمصرف الديوان. كما كانوا يجلدون الشيوخ والنبلاء والشرفاء المحترمين من دون رحمة، فكنت تسمع أصوات النحيب والعويل من كلّ جانب، غير أنه كان يشجع عماله للمضي في قسوتهم وشدتهم لأنه كان شريكاً لهم، ثم يخرجهم من أماكنهم إلى الأبواب الخارجية ويفرض عليهم الجزية ثلاثة أضعاف أو أربعة، واحتال على شعب الله بجميع الشرور وبكل قسوة، حتى إن رؤساء المدينة كانوا يعطون له أو يطلقون له اليد، لكونه يعدهم بأماني كثيرة، وعلى هذا المنوال كان يجمع الجزية لنفسه، وليس لبيت المال.



وهكذا كثرت الشرور على الأرض، حتى إنهم صاروا يستوفون حتى الأقساط القديمة، وإن كان صاحبها ميتاً وقد مضى على موته عشرون سنة مثلاً، فيأخذون الجزية عنه أضعافاً بأضعاف، من دون رحمة، بحجج متباينة لا تعد ولا تحصى، كانوا يستنبطونها لإشباع رغائبهم.

إن فاعل الشرور هذا، لم يكن يجمع الثلث الأول كما أوصاه سيده ولا الثاني... إنما وضع هذا المحتال كتاب الانتهاء أي "البقايا" لجميع أبناء الكورة من مسيحيين ومسلمين، ولم يكن يدري بالكتاب هذا إلّا قليل من أتباعه وشركائه في كسب المال، وكان قد كتب فيه، إننا قبلنا برضائنا الكامل مائة وعشرين ألف، والجباة لا ينبغي أن يوجهوا نحونا ولا أي شخص آخر إلّا بعد انتهاء العملية، وكتب في الكتاب أسماءهم ومقدار البقايا التي على كلّ رؤساء البلاد، وأرسله إلى أصل الشرور كلها ابن مصعب. وأنا أظن أنه منه صدر كلّ هذا الشر لأن جميع عماله كانوا هكذا يفعلون.

وقد ورد بالكتاب أيضاً، أمر بنزول كلّ الرؤساء الذين هم تحت سلطة موسى، فجمعهم كلهم وأرسلهم عنده وأقام مع الذين قصدوه من المدينة، وكان قد وعدهم بالكثير إن هم مدحوه لدى ابن مصعب، وأعطى لهم من ماله الخاص مصاريف الطريق، ولكن هذه لم تخف على سكان البلد. وبهذه الحيلة أثار بينهم الخصومة، إذ راحوا يتخاصمون عنه طوال الطريق، بين مريد محب، ومبغض حسود يريد نقله. وهكذا انقسم الناس إلى فريقين، أبناء المدينة يحبونه وأبناء الإقليم عامة يرغبون في آخر. وبالأخير رجحت كفة أبناء الإقليم على أبناء المدينة فضوعفت الجزية على أبناء المدينة. وكل ذلك من جراء ذلك الكتاب اللعين الذي وضعه ابن مصعب بمثابة كتاب الصلح والمعاهدة. فأقسموا أن لا يطيعوه وأتوا لهم بغيره وعقد معهم الصلح بمبلغ سبعين ألفاً، ثم رجع...



العامل الثالث

وهذا هو الذي يتم ثالث الغضب. فقد كان أشرّ رفاقه لكونه ينحدر من الجذر الفاسد ومنه يستمد القوة والوعيد، وإن كان أحياناً ليس أزيد من الذين سبقوه، إلّا أنه لم يكن أقلّ منهم، فقد كان كرفاقه لصاً ماهراً، ورفيق لصوص محترفين. أثقل كاهل الناس بالرزايا والبلايا، أباد مقتناهم وباع كلّ ما بين أيديهم، وألقى الظلم على كثيرين، بواسطة مأموريه الذين كانوا يقبضون على المساكين ويعذبونهم بشتى أصناف التعذيب وخاصة الذي يكتشفون أنه لا يملك شروى نقير، ولا يتمكن من دفع ما عليه من الضرائب إذ ليس له ثروة ما على الأرض لا فوقها ولا تحتها. فكان أولئك العمال (المأمورون) قضاة الإثم يشيرون عليه أن يخرج إلى الشارع وإذا ما التقى بواحد من الأغنياء الذين يعرفهم، يسرع إليه قائلاً: اجعلني عبداً من عبيدك، وإلّا حكم عليّ بالموت، والغبي هذا يتوجع من يمينه ويساره ومن أمامه ووراءه، ومن فوق وتحت ليشهد شهادة الزور بذلك، فيقع بين نارين، مخافة الله وحكم الموت بما يقاسيه من العذاب عند القضاة الآثمة، والمسكين المظلوم يدعو الله صارخاً أن يكون شاهداً على الذين يرغمونه على الشهادة، وليس بإرادته، حتى وإن كان لا يعرفهم أو شاهدهم. ولمثل هؤلاء يوجه القول:

إنهم يحبون الشر أكثر من الخير، والكذب أزيد من قول الحق. وحقاً كان الشخص الذي يتكلم زوراً وبهتاناً محبوباً أكثر لدى هؤلاء القضاة، وكانت الأفواه الكاذبة مقبولة أكثر من أفواه الحق، يتكلمون جميعاً بالإثم، وأياديهم ملوثة بالدم. وإن صادفهم شخص لا يعرف السوء والشر، كانوا يعلمونه كلّ سبل الشر، وهكذا انتشر كلّ إثم في كلّ المدن، وهم يشهدون بأن الظلم كلّه صدر عن موسى لأنه كان قد أحصى كلّ ثروات الكورة،



الغنم والماعز والبقر وغيرها، كلّ ما يملكه الشعب السادج باعوه. كل معزتين معشّرتين (حبلى) باعوها بدرهم واحد. وكل اثنتين أو ثلاث من الماعز العادية بدرهم. وخمسة جداء بدرهم، الحمار بدرهمين، ثور الفدان بثلاثة دراهم. البقرة الحبلى الجيدة بثلاثة أو أربعة دراهم.

أما الحنطة التي بدأت سنابلها تنضج، التصقت بالأرض لشدة الحر والعطش الذي حدث في تلك السنة - نترك عنه الكلام قليلاً - فأصبح الناس كلهم خونة بعضهم لبعض، فامتلأت أفواه الناس كذباً، وساروا في طريق الظلام. في هؤلاء كان يتفرس أرميا النبي بعين النبوة فقال: الرجل كان حذراً من رفيقه، وعلى كلّ الأخوة لا تتكل، لأن كلّ أخ أصبح محتالاً، وكل صديق يسير بالحيلة، والرجل يكذب على رفيقه، ولا يتكلمون الحق، علموا ألسنتهم أن يتكلموا بالزور، ولهذا السبب تعبوا ووقعوا بالضيق لأنهم كانوا بالحيلة يجتمعون ويجلسون. ولأجل حيلتهم لم يعرفوا الله. وإن كلّ إنسان كذاب مملوء من كلّ الآثام، جميعهم تسرع أرجلهم إلى الشر، ولا يوجد من يفعل الخير، جميعهم مالوا معاً وكانوا مرذولين، فكانوا يتنقلون من شر إلى شر ومن إثم إلى إثم ثم يركضون كالذئاب بين الحملان...

هكذا وقع أولئك المساكين الذين سُلبوا ونُهبوا وحمّلوهم كلّ الشرور، فباعوا كلّ ما يملكون وبالكاد وفوا الجزية إضافة إلى الشرور الأخرى التي كانوا يتحملون وزرها من مأموري الهجرة والعشارين وجباة الضرائب ومعدّليها، وكل ما أضيف إلى التعديل الجديد، فعليه كانوا يجبون، وإذا ما كان أقلّ فعلى القديم يأخذون، وهكذا أحاط بالشعب الضيق من كلّ جانب.



كانوا يأتون من شرّ إلى شرّ، فإذا نجا الفرد من الواحدة أدركته الأخرى، وتكون الأخيرة أسوأ من الأولى، فلم يكد ينجو أحد من أيدي الرؤساء، بل يفرضون على الناس الضرائب من دون رحمة ولا حنان. كما كان للرؤساء أصدقاء من اللصوص وقطّاع الطرق، فإذا فرض عليهم سبعين ألفا يجمعون ثلاثة أضعاف ولا يرحمون أحداً رغم علمهم أن القرية الفلانية مثلاً ضعيفة الحال ولا تتمكن من دفع ما عليها من الضرائب، لم يكونوا يهتمون، إنما يجمعون مالهم ويأكلونه مناصفة مع الحكام إذ فرض على كلّ واحد ما لا طاقة له به. ولما كان المأمور يخرج للجباية، كان ينهب الفقراء فيسلب لقمتهم، حتى لم يبق لسكان القرى شيئاً، وإذا صادف وكان لأحدهم ثروة ما وهو من بلد آخر باعه لئلا يستولوا عليه. وقد حدث مرة أن سبعة لصوص كونوا عصابة وخرجوا للسلب، فراحوا يسلبون كلّ من يبصروه جهراً، قائلين: إننا نريد منك الصلح والسلام، فكان الناس يسمعون صوت النحيب والعويل في كلّ مكان، وإذا ما هرب أحدهم كانوا يسلبونه في القرية أو في الطريق، وإذا نجا ولم يسلب ماله في الطريق كانوا يسلبون أو بالأحرى يستولون على أمواله في القرية التي كان يقصدها أو منها. فإذا خرج المرء إلى البرية صادفه اللص بشكل أسد، وإذا رجع إلى السهل صادفه آخر بشكل الدب، وإذا دخل القرية مزقه سكانها كالحيوانات، وإذا ذهب إلى الفندق ليلتجئ به، تهيؤوا له بشكل العقارب وسلبوه. وأما الحاكم فكان يضاعف الشر ثلاثة أضعاف اللصوص والعمال. وإذا حدث وأن رفض أحدهم، كانوا يمزقزنه ضرباً قائلين، ألق ما عندك، ولن نأخذك إلى الحاكم.

ثم إن بعض الفتيان من المسلمين والمسيحيين شرعوا يتجولون



بالمدينة أو في الطرق الخارجية ويلقون القبض على أناس مساكين قائلين لهم: هيا إلى الأمير فإنه يطلبكم، هلمّوا ادفعوا ضريبة الصلح، وبهذا لم يتركوا أحداً إلّا وسلبوه، أو يفرّ هارباً من قبة الأفاعي الساعية حول المدينة.

لم يكد الناس يتخلصون من ضريبة الصلح، وإذا بشرٍّ آخر ينتظر الفقراء، فقد قدم إلى المدن والقرى أصحاب الأختام، الذين هرب من وجوههم الجميع والتجؤوا إلى الحاكم مع رؤساء الإقليم الذين كانوا يخافون من أصحاب السياط والأمشاط (أدوات التعذيب) الذين طلبوا منهم علامة الختم فختموهم. فلما جاء مأمور الصلح قبض عليهم وعلى كلّ الحكام الذين سددوا رغماً عنهم ضرائب الجلاء والأقساط، والذين لم يدخلوا القرية (القرى) فكان يفرض عليهم الثلاثين والأربعين.

أما مدينة الرُّها فكانت أكثر المدن تعاسة وشقاء لما أصابها من البلاء، فتحمل رؤساؤها الكثير من الأذى والعذاب من جراء تلك الأفعال الشريرة، إذ حكم فيهم رجل ذو نفس مُرّة اسمه رزين. فكان إذا ما قُدّم إليه رجل فقير لمحاكمته، ويعرف حقاً أنه لا يملك شيئاً، يأمر شرطيين من شرطته أن يرافقاه إلى الشارع بعد أن يعلمه بالخروج إلى الشارع أو السوق فيجد واحداً من الأغنياء، يتقدم نحوه مع الشرطيين ويقول له اكفلني ويهرب فيلقي الشريطان القبض على الغني ويقدماه إلى الحاكم، وهناك يؤدي الكفالة شاء أم أبى، حيث يجابهه الأمير بأمر الكفالة عن الهارب، فكان الغني يقسم بأنه لم يكفله ولا يعرفه، فليلقونه بالسجن بعد أن يكبلوه بالسلاسل وهناك يُجلد ويضرب بالأسواط على ساقيه وقديمه، حتى تكاد روحه تزهق، فيؤدي الكفالة المفروضة عليه. وقد قيل في ذلك:...أوصي كلّ أبناء الملوك، وكل لابسي ثياب الغرباء وآمر الناهبين والخاطفين في ذلك اليوم ليدخلوا إلى مدنهم بالخطف



والخبث. هؤلاء الذين أخبرنا عنهم النبي صفنيا القائل: بيوم ذبيحة الربّ، فأي يوم هو ذبيحة الربّ سوى آلام المخلص المقدّسة.

ففي هذه السنين تراكمت علينا الشرور والضيقات حتى الأعياد أصبحت حزناً. وأبناء الملك والرؤساء والخاطفون والناهبون امتلأت بيوتهم من أموال اليتامى والأرامل والمساكين الرُّهاويين إذ سرقوها علانية وفي وضح النهار، فتمّ ما كتب: إن حكمتهم ضاعت، ففقدوا حكمة الحكماء وسادت عليهم جهالاتهم... بقيت أموالهم للسلب، وبيوتهم للخراب، يبنون البيوت ولا يسكنونها... يغرسون الكرم ولا يشربون من خمرها، ولهذا فإن يوم الربّ قريب جداً، فمرّ يوم الظلم والنميمة والقلق والظلمة والخيال، الذي يحصل بالمدن العظيمة وعلى رؤوس الروابي، إذ يحل على الناس الضيق ويسيرون كالعميان لأنهم أخطأوا مع الربّ، من أجل ملذاتهم... وإن الشرور العظيمة التي حدثت، لا يمكن للعالم كلّه أن يسعه ويكتبها، تلك النوائب التي حلت بالناس الفقراء فلم تعرف لها بداية ولا نهاية، ولم يشبعوا مما سلبوا ونهبوا.

ولهذا مر الأمير بسجن الناس في الكنيسة الكبرى التي بالمدينة.

السجن بالكنيسة في هذه الكنيسة

أثمت أورشليم إثماً، ولهذا السبب كانت ترتجف، وكل من كان يعزّها احتقرها، لأنهم رأوا عورتها، وهي أيضاً تراجعت والتفتت إلى الوراء فمدّ يده حسيب الضيق، على كلّ شهواتها. ورأيت الشعوب تدخل إلى مقدّسك لأنك أمرت أن لا يدخلوا إلى الجماعة (كنشتا) نسي الربّ مقدّسه ورذّل مذبحه. وسلّم بأيادي الأعداء أسوار ساحاتها. صرخ صوت في بيت الربّ، كما في يوم العيد، خرّب عرزالتها، وخرّب أعيادها، وأزال الربّ من صهيون العيد، ورذّل بحدة غضبة الملك



والكهنة. ليأتي الآن النبي أرميا ويرى بعينيه كلّ ما تنبأ به قد تمّ وتحقق.

ولما أمر عامل الظلم الظالم أن يجتمع كلّ الأهالي، أعلن أن كلّ من يخفي رجلاً في داره يستحق الموت. فخرج الشرطة، وفتشوا كلّ دور المدينة ولم يتركوا داراً إلّا ودخلوها، وحشروا في الكنيسة الأغنياء والفقراء. وإن كان صاحب الدار غائباً جاؤوا بأهله، وإذا وجدوا رجلاً من المطلوبين قد تخفّى في دار قتلوه من شدة الضرب وصاحب الدار الذي تخفّى فيها أيضاً وصادوا الأئمة على المذبح وقبضوا على من كان له اسم في سجلهم حتى وإن كان مديناً بفلس واحد. وإن لم يكن له مال ليدفع كان يرهنون نساءه بدلاً عن أمواله ويعطون المستحق عليهم.

فرفع الظالم رأسه إذ غاب الحق، وأصبح الكذب جهراً وانعدمت عدالة، وحلّت بالناس جميع الشرور وبيعت جميع مقتنياتهم وأُخذ ثمنها. ونُجست الكنيسة حيث كان الرجال والنساء يزيلون ضرورتهم وأقاموا فيها ثلاثة أيام وثلاث ليال على هذا الحال حتى صعدت منها رائحة الجيفة عوض الروائح الطيبة. وبذلك تنجس هيكل الربّ المقدّس إذ جعلوه موضع الخلاء.

طالب التجار والذين أخذت أموالهم أن تكتب لهم أموال القرويين، فبينما كانوا يبكون متوسلين إلى عامل الظلم هذا، ردّ قائلاً: إذا أردتم أن أكتب فأنا أكتب لي ولكم، فقبل قسم منهم وآخرون لم يرغبوا والذين كتبوا لم يستفيدوا شيئاً. إذ صدر أمر ونادى به المنادي، كلّ واحد لا يسدد الضريبة أو الطلب القديم أو الجديد لا يأخذ شيئاً. وهكذا اجتمع جميع التجار من أبناء المدينة وقدموا طلباً بينوا فيه أنهم مظلومون، وقصدوا موسى بن مصعب وهم لا يدرون أنهم ضلوا السبيل وفقدوا عقلهم، لأنهم طلبوا العدالة من رجل الظلم والظلمة إذ جهلوا بأن هذه



الأعمال التي لحقت بهم هي منه وصادرة عنه وبأوامره، ليس فقط لم يردّ لهم أموالهم إنما غضب عليهم، فلم يأخذ منهم إلّا ثلاثة أضعاف ما يستحقون.

هذا وإن ابن مصعب انحدر إلى بغداد عند الملك، فاغتنم شعب الموصل والجزيرة وانحدروا وراءه عند الملك وكانوا ألوفاً كثيرة، ودخلوا على الملك يبكون ويولولون قدامه بأن ابن مصعب ظلمهم، ومكثوا أكثر من خمسة أو ستة أشهر، ولم يسمع الملك لواحد منهم، فحلّ بهم مرض وجع البطن وأمراض مختلفة أخرى حتى إن نصفهم لم يعودوا إلى بلادهم، والذين عادوا لم يحصلوا على شيء سوى الشر لشخصهم ولبلادهم، فالملك الظالم لا بدّ أن يكون جميع عماله ظالمين.

فصل عن الأحكام التي ظهرت وتحملها الناس في هذا الزمن

ليس من الضروري أن نسرد الخبر هنا، إنما ندوّنه للقادمين بعدنا وما جرى لنا من قصاصات لعلهم يتعظون ومكتوب أن الجاهل والحكيم يتعلم، وها إني أطعم الشعب وأسقيه بالمرارة، وأبدده في العالم ولا يعرفونه... وبالحق وضع الوجع على ظهورنا، قضيب الضربات الكثيرة التي تحمل الموت بين ثناياها، ركب الإنسان على رأسنا، وعلى ظهورنا أكثر الجلدات والأيام صارت طويلة علينا. قدم إلينا الآثوريون حاملين بأيديهم قضيب الغضب وعصياً قوية ويابسة، ضربات الربّ بأيديهم، كما سبق الأنبياء ونادوا. القمل نحن رأيناه بأعيننا، وقبضنا عليه بأيدينا، وحملناه في أجسامنا. ومن هنا نعلن أن الخبر الذي ورد هنا ليس إلّا حقيقة.

أولاً: صنع لهم أخشاباً بعرض أربع أصابع وحادة من الطرفين. وكانوا يلقون الناس على وجوههم ويجلس الواحد على رأسه والآخر



على رجليه وآخر يضربه بالسوط على قفاه من دون رحمة وقد نزعت الثياب عنه. وكما قيل إنه وضع الوجع على ظهورنا مع الذي ركب الإنسان على رأسنا.

ثانياً: كانوا يأتون بعصاتين في إحدى جهاتها أسنان حديدية يضعونها على ساقي الشخص الواحد من فوق والأخرى من الأسفل، وعلى الطرف الثاني يقف الرجل حتى تنطبق على ساقيه. وقيل وضعوا رجليّ في القيد.

ثالثاً: كانوا يعلقونهم بأكتافهم حتى تتقطع أجسامهم، والنساء كن يعلقن من أثدائهن حتى تتقطع.

رابعاً: كانوا ينزعون عنهم ثيابهم، ويحملونهم الحجارة وهم يستهزئون بهم، أو يوقفونهم في الثلج والجليد، ثم يصبون عليهم الماء البارد حتى تتشنج أعضاؤهم فيسقطون على وجوههم.

خامساً: صنعوا أداة للتعذيب جديدة، شقوا خمسة أعواد من طرف واحد وجعلوا فيها حبلاً، يدخلون أصابع الإنسان بينها وبين الطرف الآخر يدسون عليها بقبضة اليد حتى تلتصق الأصابع ببعضها وكانت الأصابع تنكسر لشدة الضغط عليها.

وكانوا يصنعون ما يشبه تختين يضعون في طرف الواحد حزاماً (رباطاً أو حبلاً)، ثم يجعلانهما الواحد تحت ظهره والآخر على صدره، وعلى الطرف الثاني يقف رجل ضخم الجثة حتى كانت أضلاع المرء تتكسر وأحياناً أمعاؤه هي الأخرى تخرج إلى الخارج.

وكانوا يصنعون أغلالاً خاصة للذراعين، ويحدون قصباً يدخلونها تحت أظافرهم، أو يصنعون جوزات من الحديد ويضعونها في محاجر العينين حتى تخرج العينان وتفقآن.



أو يوقفون الأشخاص المحكوم عليهم عراة من دون ثياب على الثلج أو بالثلج والماء حتى يغمرهم ويقعون كالموتى.

أو يعقدون عقداً على القضبان الغليضة ويضربونهم بها من دون رحمة وهم ملقون على وجوههم. والجلد كان ممنوعاً لديهم وأيضاً لا يرغبون بالسجن. فالعظماء علقوهم بأيديهم، قال النبي: ليأتِ ويرى الآن العظماء وهم معلقون بين السماء والأرض وليس هذا فقط وإنما يضربون بقضبان غليظة. وآخرون وضعوا بأيديهم الأغلال وكذا بأرجلهم وهم لا يقدرون على تحمل العذابات. وعندئذ يشمت الشامتون فقد يأتي رفيقه أو رفاقهم، فيصرون أسنانهم أو يصفقون سخرية وكأنهم كانوا يرغبون بأن يجعلوا كلّ العذابات عليهم دفعة واحدة ويلقونهم عراة على الثلج ويدحرجون حجارة كبيرة على ظهورهم حتى تنبعج بطونهم وتتكسر أضلاعهم وتتفكك فقرات ظهورهم، ثم يسجرون الحطب حتى يصبح كالنار ويملؤون الغرف بالدخان ويسجنونهم فيها وهم عراة... وأيضاً يرمون بالسنانير بينهم فتمزق أجسادهم بأظافرها، أو كانوا يسجنونهم ببيوت مظلمة، لا يدخلها الضوء أبداً، ومكتوب: إن الضربات الأخرى غير المكتوبة في هذا الكتاب سأجلبها عليك.

بهذه العذابات والضربات كانوا يعاملون الناس الضعفاء من أجل الجزية وإن لم يُسمَّ هذا اضطهاداً، لأن المسيحيين والمجوس واليهود شملهم هذا الويل وكذلك السامريين الذين يسجدون للنار وللشمس، والمجوس الذين يؤمنون بالتنجيم والمعروفين بالحرّانيين.

لا الآلهة ولا الآلهات احتفلوا بهذا الاضطهاد الصعب، كما ولم يتمكن أحد من الكلام عن الظلّام ولو بكلمة واحدة. أو ينبئ قائلاً أنا



أسجد للشرق أو للغرب، والسجود إلى الجنوب أو الشمال، فقد أبطلوه، ومع ذلك فقد عزلوا المسيحيين لوحدهم في هذا الاضطهاد.

وإني كنت كثيراً امتدح الاستشهاد الجاري الوارد ذكره في يوحنا وجميع الاستشهادات السابقة، لأن الموت بالسيف أهون من العذابات التي لا نهاية لها. قال القدّيس باسيليوس: إن الذي يذهب به إلى السجون من أجل فقره أو لجلده، فليأت الآن ويرى الآلاف من المسلمين والمسيحيين المذنبين والأبرياء، الأغنياء والفقراء جميعهم مختلطون. فالكأس المرّ الذي يكرهه كلّ إنسان كانوا يتجرعونه على حد سواء، الكبار والصغار، والأغنياء والفقراء كما قال النبي: الغني كان يأكل المرارة يومياً... ويكسرون عظامه من شدة الضرب، لسلبه ما اقتناه ظلماً. والفقير يجلد من أجل أن يسلبوه ما ليس لديه عله يجد من يقرضه، فعلى هذا يكون قد أكل المرارة، وأيضاً شرب المرارة.

لا يظن أحد يا إخوتي أني كتبت كثيراً هنا، ولكن ليعلم أن جميع القصب والورق في العالم لا تكفي لتدوين هذه البلايا التي وقعت على الناس في زماننا هذا كما أيضاً لا يعتب على النقص لأننا لن نتمكن أن نلمّ بكل شيء، كذلك إن هذه العذابات لم تكن تجري في المدينة الواحدة وبذات الصورة.

فصل عن العطش والجوع الذي حدث في هذه السنة وانتقال سكان الشرق والجنوب إلى الشمال

إن الأنبياء في كلّ زمن كالأبواق يصرخون بآذاننا، لكي نعود إلى الربّ ونطلب منه، غير أننا قد صرنا كالحجر، فثقل قلبنا، وأغمضنا عيوننا، وأغلقنا آذاننا وانحرفنا عن سبل الربّ، نسير بحسب هوانا، وكل



منا يريد أن يكمل رغبته، والله لم يرض علينا. وقد جاء بالنبي القائل: هكذا قال الربّ: عن خراب بيتي وأنتم تركضون، كلّ واحد إلى بيته، فبسببكم امتنعت السماء من الندى والأرض منعت أثمارها، ونهيت الأرض والجبال والغلات والخمر والدهن عن كلّ شيء تنبته الأرض وعلى الناس والمواشي وعلى كلّ تعب أياديكم. تفكرون بالكثرة ولكن تنالون القليل وتدخلون إلى بيوتكم، وأنفخ في زروعكم فلا تحصدون.

كل هذه الأمور مرت علينا بهذا الزمان، فالمطر لم يسقط بالشتاء، ولم يسقط الندى من السماء، ولم ينبت الزرع، والذي نبت يبس وبالأخص في الجبال، ولهذا كانت كلّ الشعوب تخرج للدعاء والاستقساء، كلّ شعب بلغته يصرخ بضيق شديد حينما رأى الناس انحسار المطر ففقدوا الرحمة. ولم يريدوا أن يبيعوا الحنطة للذي يريد الشتاء، ومن أجل هذا دخل الفقراء في ضيق شديد لا يوصف. أما الذين احتكروا الحنطة ففرحوا واستبشروا، هؤلاء الذين عنهم قال النبي صارخاً: اسمعوا، الذين يذمون المسكين، ويسمنون أثمة الأرض ويقولون متى ينتهي الشهر لكي نبيع الغلات، فينتهي الأسبوع وتفتح العنابير، وتصغّر الكيلة وتكبّر الموازين فيبيعوا للمساكين والفقراء. فأقسم الربّ، إني لا أنسى أعمالهم إلى الأبد، فأحيل أعيادهم حزناً وأغانيهم أجعلها بكاء.

فلما وجد أصحاب الغلات أن السماء أمسكت مطرها، أمسكوا هم أيديهم عن بيع الحنطة والمحصولات، ينتظرون أن يربحوا، فضاقت الناس، وأمر السلطان أن يلجأ كلّ شعب من كلّ لغة إلى الدعاء إلى الربّ كي يستجيب ويرحمنا ويفتح لنا باب مراحمه. وهكذا خرج المسيحيون يتقدمهم أُسقفهم، واليهود بأبواقهم، وكذلك المسلمون خرجوا للاستقساء فرحم الربّ عبيده وسقط المطر في بعض الأماكن ونبت الزرع كما قال النبي عاموص: إني منعت عنهم المطر قبل الحصاد



بثلاثة أشهر. أنزله على المدينة ولا أنزله على الأخرى، أو على نصف الواحدة، والقسم الذي لا ينزل عليه المطر ييبس... فتجتمع كلّ مدينتين أو ثلاث على مدينة واحدة.

وإذ كانت الموصل قد أصابها هذا الغضب، يبست زروعها من المشرق والجنوب إضافة إلى ما أصابها من الخراب بسبب شرور ابن مصعب، فاجتمعت فيها جموع غفيرة من كافة الأنحاء ومن الأراضي الشمالية. فصعد كلّ التغالبة والمعديون ومعهم جمالهم وأهاليهم مع كلّ أثقالهم وملؤوا الأرض وخربوها، حتى إنه لم يبق شيء لترعاه المواشي فأصبحت الأرض كأنها مكنوسة بمكنسة ولهذا السبب هلكت جميع المواشي في الشمال ولاسيما بفصل الشتاء الذي تلا ذلك الموسم، فخربت الأراضي والمدن في الموصل وبيت كرماي وجزّة، ومركا[194]، وجنديسابور[195]، وسين وقوق، وسلح، مع مدن أخرى كثيرة. فهاجر سكانها وقدموا إلى المنطقة الشمالية، فاشتد الازدحام بالكورة كلها فلم يبق مكان إلّا وقصده الناس، فانتشر الجوع بينهم لكثرتهم فتم بهم ما جاء به النبي القائل: إني أرسل وراءهم الجوع والسبي والموت وهذه كلها مرت بهم وغيرها سنذكرها في حينه، الشر الذي لحقهم والسبي والمرض والموت..

---

(194) مركا وردت في المعجم باسم مرج الموصل ويعرف بمرج أبي عبيدة عن جانبها الشرقي موضع بين الجبال في منخفض من الأرض شبيه بالغور فيه مروج وقرى ولاية حسنة اسعة وعلى جباله قلاع... (**معجم البلدان**، ج 8، ص 16).

(195) جنديسابور: بضم أوله وتسكين ثانيه وفتح الدال وياء ساكنة وسين مهملة والف وباء موحدة مضمونة وواو ساكنة وراء. مدينة بخوزستان بناها سابور بن أردشير فنسبت إليه وأسكنها سَبْيَ الروم وطائفة من جنده (**معجم البلدان**، 3: 150–151).



سنة 1084 ي

773 م

158 هـ

مات القدّيس بولس أُسقف تكريت، وزينا أُسقف كرما، ويونان أُسقف نوهدرا. ومن أجل العذاب الذي يقاسيه داويذ لم يقبلوا منه أن ينصب عوضهم. وهكذا بقيوا من دون أُسقف ينتظرون خروج كيوركي من السجن[196].

وفي هذه السنة أيضاً أمر الملك ببناء سور لعاقولا إذ كان هذا صانع الشر يحب الذهب، فلم يكتف بسلب الناس كرومهم وأراضيهم ومواشيهم وحيواناتهم وبقرهم، إنما يأخذ الذهب والفضة له، يأمل الناس بالخبث والحيلة، ولا يخرج من يده درهم واحد. ولما أراد بناء السور لعاقلا، احتال على سكانها حيث أرسل رجالاً من قبله وأمرهم أن يمسحوا البيوت واحداً واحداً، الطول والعرض والارتفاع. وهكذا يقوم صاحب الدار ويبني في السور على قدر مساحة داره طولاً وعرضاً وعلواً، وكل مصاريف البناء من صاحب الدار. وهكذا أقام السور العظيم من أموال أبناء عاقولا، ولم يدفع من كيسه فلساً واحداً.

عن الشرور التي صنعها الناس بالقبور وتذرية العظام

كثرت الشرور وتراكمت بعضها على بعض وازداد الضيق بالناس فوق العادة وبلا قياس، وبيعت أموالهم وهم لا يدرون ما يفعلون إذ

(196) انظر بالتفصيل عن هذا الموضوع كتاب ابن العبري التاريخ الكنسي وتاريخ مار ميخائيل الكبير.



كانوا مضطهدين ومطرودين. ولأن هذا الضيق طال أمده على جميع البشر وحتى شمل الحيوانات والطيور والسمك في البحر، قصد الناس لكثرة نوائبهم رؤساءهم وعرضوا حالتهم أمامهم وما يقاسوه من الظلم والجور. واحتياجهم إلى المال ليقتاتوا، ولأجله هجموا على القبور وفتحوها وحفروها وأخرجوا عظامها وذروها كالأزبال في الهواء على وجه الأرض، وهذا رأيناه بعيوننا وليس بأسماعنا.

نعم، المتوفون قبل مجيء السيد المسيح كانوا مرتاحين في قبورهم ذرّى الناس تراب قبورهم بالهواء طلباً للذهب والفضة الذي كانوا يفتشون عنه فيها، وقد وجد في بعض القبور أكثر من خمسمئة جثة، كلها اختلطت ببعضها حينما أخرجوها ليفتشوا بها. ولاسيما المقابر القديمة والتي كانت قد أصبحت كالتلال وقد ضاع كلّ أثر لها، حفروها وأخرجوا العظام من أماكنها، إذ كان الشيخ وكبار السن هم الأدلّاء في مناطقهم لأنهم وٌلدوا فيها فيعرفون أسرارها. وقد أقسموا عليهم اليمين، بأنه لا من الأباء سمعنا ولا أعلمنا أحد إنما المقابر هي تكشف عن ذاتها. وبهذا كان العقلاء يظنون بأن الشيطان هو الذي يجذب الناس ويحركهم لارتكاب هذه الأعمال. وهكذا ذاع هذا الكلام في كلّ مكان بأن القرية الفلانية مثلاً وجد فيها كذا كمية من الذهب والفضة، وإن فلان عثر على كذا مصوغات مع الحلي، وهكذا شاع النفاق وانتشر، إلّا أنه لم يخف على الحكماء. فاختلطت الأخبار والمبالغات، فإن صادف ووجد واحدهم سواراً واحداً أو درهماً في حزام رجل أو يد امرأة، صار كمية كبيرة من الحلي وثروة عظيمة من الأموال. وهكذا لو كان سواراً من النحاس قلبه الشيطان لدى الناس إلى ذهب ولو قطع صغيرة انتشر خبرها إلى قطع كبيرة. وهكذا قصد الجميع فتح القبور طمعاً بالنحاس الذي يتحول إلى فضة والذهب الذي يكبر ويكبر وبضع دريهمات التي تتحول إلى ثروة.



وفي هذه السنة أقاموا على بطريق أرمينية الكبرى تهمة كبرى فقتلوه بالسيف وعليه قيل الكلام، بأنه كان يملك أكثر من مئة ألف عبد، فصادروا أمواله كلها وأخذوها عند الملك.

شهادة الزور والكذب وما جرى من شرورهما من مصائب في العالم ولاسيما للدائن والمدين

ندرج هنا ما جرى لنا من الشدائد بسبب شرورنا فيطلع عليها الذين يأتون بعدنا لئلا يميلوا هم أيضاً فيحلّ فيهم ما حلّ فينا من الطيش، فتحيط بهم الحيوانات الكاسرة كما أحاطت بنا لأن الله ليس محتاجاً إلينا كما أنه لم يكن محتاجاً إلى إبراهيم، فأحبه وأظهر له ماذا حل بالسادوميين بسبب خطاياهم وشرورهم مع الغرباء وعابري الطريق فأظهر الربّ لإبراهيم ولأبنائه الشرور التي تغضب الله وتجلب الغضب على فاعليها. وقد كتب في التوراة، لا أخفي عن عبدي إبراهيم ما أفعله، وأيضاً لأني أعرف أنه يعلّم أولاده وأولاد أولاده ليحفظوا طرق الربّ من بعده ويتمسكوا بالإيمان والشريعة، وإن صراخ سادوم وعامورة صعد إليّ وازدادت خطيئتهم كثيراً، ولأنه يحب الرحمة للسادوميين أظهر لإبراهيم وعلمه بخطاياهم أو ليعلم بهم أولاده دائماً قال: من هنا خلقوا كما قال داود لابنه: اعبد إله آبائك وقدّم له الطاعة، وإذا تركته يتركك حتى الأرض، كما حدث عندنا، إذ زغنا عن طريق الحق ولم يشعر أحد، وعليه إن الله تعالى أرخى يده عنا وشمل معنا كلّ الخلائق والبهائم والحيوانات وسمك البحر وطيور السماء حتى الأموات في قبورهم لم يهجعوا بل نالهم الشر فتعذبوا معنا كما تعذب الخشب والحجارة. ومكتوب: أحبب الربّ إلهك من كلّ قلبك ومن كلّ نفسك، وقريبك مثل نفسك. هاتين الوصيتين الموجودتين في التوراة وأكد عليها الأنبياء،



ونحن كنا نسلك عكس جميعها، وأيضاً مكتوب: لا تقتل، لا تسرق، ولا تشهد شهادة الزور، أكرم أباك وأمك، لا تشتهي مال قريبك، لا تعط نقودك بالربّا ولا تأخذ الرشوة التي تعمي عيون الحكماء، لا تتعاون مع الكذاب لتبقى له شاهد الكذب، لا تحرّف شرع المسكين، لا تزن... هذه كلها ليس فقط سمعنا بها بآذاننا، ولكن قمنا بفعلها بأنفسنا بالعمل بها، ولئلا يفكر الناس بالعتاب على الله تعالى بسبب هذه الشدائد التي أحاطت بنا، نقول إنها من أجل خطايانا وباستحقاقنا جعلها الربّ علينا، إننا نحمد مراحمه التي لا تقاس ولا تقدر، ونعترف بأننا ضللنا طريق الحق، فالحاكم يطول صبره علينا. صرخت خطايانا التي من سببها أتى الغضب علينا، نحن الأبناء غير المطيعين في هذا العالم الضال. كما كان أبناء قائين يصطادون الخطيئة بالخطيئة، فالسادومية كانت عندنا: الكذب والغضاء، التذمر والنساوة، الخطف والنهب والقتل شهادة الزور وكل شرور أصحاب يوليانوس الجاحد قمنا به وارتكبنا الآثام والمعاصي.

شهادة الزور التي سرت بين الناس

مكتوب بأنه لن يمر على فمي أعمال الناس، وأيضاً من يهجو (يغبّ) رفيقه من ورائه كنت أهلكه، كذلك نحن أيضاً لا نودّ أن نتلكم عن مخازي أعمال الناس ولا نغتب إخوتنا إلّا لما كنا عليه من الضيق كيما ننجنوا من هذه الأعمال إذ بطل الإيمان من الأرض، والإنسان يتحدث مع رفيقه بشفاه الخبث، ولو كان لأحد شرع أو قضية أو دعوى مع صديقه كان يدخل إلى السوق ويختار له شخصاً قائلاً له: أيّها السيد فلان هلا تشهد لي شهادة، فيجيبه بسرعة وبقوة وبكل ثقة، على بركة الله ووعده، عن أي شيء. وكان يقسم اليمين قبل معرفة القضية. إن هذا الأمر لم يكن يفعله إلّا المجوس، ولكن المسيحيين أيضاً كانوا يتعاملون بها، الرجال والشيخ. فإذا أراد شخص من اللصوص استئجار شاهد



الزور بقدر ما يريد، إذ لم يكن الناس يعرفون مخافة الله، وبذا أبيدت حقوق المسكين في ساعة واحدة.

والمدين والكذب

أولم يتكلم جميعهم بالإثم، وأياديهم ملوثة بالشر، وأفواههم مملوءة من الإثم. الظلم والخبث تحت ألسنتهم والحقد يسيل منها. نقودك لا تعطِها بالفائض، ولا تأخذ الربّا من قريبك، وإذا أقرضت له نقوداً لا تأخذ منه الربّا، فإن داود قد قال: إن ماله لم يعطه بالربّا، إذ أقسم لصاحبه فلم يكذب. فإن هذه كانت للدنيا الباطلة.

كان سكان القرى والأرياف يهرعون إلى المدينة حينما يضايقهم جباة الضرائب وهم حاملين الإكراميات والهدايا للناس الذين يقترضون منهم النقود وكان هؤلاء الموسرون بدورهم يشرحون لهم صدورهم أولاً قائلين: هلمّوا بالسلام والإكرام وعلى الرحب والسعة، وبمثل هذا الكلام يلاطفونهم ويضيفون: إني مستعد أن أقرضك مقدار ما يلزمك، لا تقلق أبداً فأنا أعطيك ما ترغب به وما دمت حياً، لا تقصد آخر غيري كما أني لا أجعل عليك شهوداً ولا كفيلاً ولا رهائن كما لا أريد منك الربّا، حتى ولا عملاً عوضه، بل خذ ما تريد، وحينما تنتهي المدة أعطني عوض نقودي حنطة أو خمراً... والآن اذهب إلى دارك مطمئن البال وارجع بعد أيام كيما أجهّز لك المبلغ الذي تحتاجه.

أما هذا القروي، إذ كان يسمع هذا الكلام الطيب فيرجع إلى داره مغموراً بالفرح والانشراح الذي لا يوصف وإن لم يكن يصدق أن هذا الشيطان سيفعل ما قال، صحيح أن كلامه أحلى من العسل غير أن نهايته حزن وعويل ومرارة.



ولما كان هذا القروي الذليل قد اتكل على كلام الهواء والهراء الذي وعده به الموسر الغني فلم يتعب نفسه ولا اشتغل كي يجمع مبلغ الجزية، بل جلس في بيته مستريحاً ينتظر ريثما يأتي جباة الجزية. وحينما كانوا يلقون القبض عليه كان يقول لهم: أمهلوني زمناً قليلاً حتى أذهب وآتيكم بها. وحينما كان يقصد صاحبه الذي وعده بأن يعطيه حاجته يقول له: تفضّل يا سيدي وأعطني ما وعدتني به كيلا يحقروني. فيجيبه: اصبر قليلاً ريثما أهيئه لك، ويتركه في الدار ويخرج هارباً، ثم يعود إليه ويخبره أن ينصرف اليوم ويأتي في الغد، لأنه في هذه الساعة ليس بين يديه شيء، فيعتذر منه ويصرفه، وهكذا يفعل معه لعدة أيام وذلك صابر على مضض يتحمل الضيق والعذاب، وفي النهاية يبيّن له أنه ليس الوحيد الذي يقترض منه وعليه أن يعطيه إنما أناس كثيرون ولهذا يصرفه معتذراً أنه لم يملك ما يرغب فيه إلّا إذا كتب عليه ورقة مختومة كذمة، فيرضى بالعملية ويختم له ورقة باسمه وبالمبلغ الذي يحتاجه، فيرسله قائلاً له، انصرف الآن وعد في الغد، وفي الغد يفاجئه أنه لا يكتفي بالورقة إنما بجادة يحتفظ بها كرهينة مقابل النقود، أو يعطيه في الموسم الآتي كمية من الحنطة وليس بالسعر الذي يبيعونها، إنما بالاتفاق منذ الآن، فيوافق المحتاج الذليل. وفي النهاية يطالبه بالكفيل تأكيداً في التأمين على نقوده ويرضى أيضاً بالكفيل، وهكذا يظهر والكذب الذي جاء في كلامه الأول، فكيتب الورقة، ويأخذ الرهن، ويطالب بالكفيل ومن ثم بالحنطة والربّا والعمل في مواشيه أو كرومه.

هكذا كان المساكين وهكذا كان يتعامل معهم الموسرون بالمشقة يعطون وبالاحتقار يعملون، والمحتاجون صابرون ساكتون يقبّلون الأيادي، لا بل يلحسون أرض الأقدام قائلين: من الآن وحتى اليوم الفلاني إن لم ندفع نقودك، إننا ملزمون بكلّ ما هو مكتوب بالكتاب



فيهرع المساكين إلى بيوتهم ويبيعون كلّ ما لديهم ويجمعون للدائن النقود حتى لو اقتضى الأمر أن يبيع الخيمة التي يسكن تحت سقفها.

ومع ذلك يوسوس الشيطان الخبيث في قلب الدائن مكرهاً له الخير أنه كيف أعطى لهؤلاء الفقراء نقوده وهم لا يملكون ما يوفون به الدّين فينهض ليسوم دائنيه العذاب ويسلب منهم الراحة والهدوء، فيبدأ المدينون فعلاً بالمقابلة بالمثل، فكما فعل هو بهم بالوعود الفارغة والعهود المريبة، الإثم بالإثم. فكما كانت المشورة لدى حواء هكذا تم في هذا الزمان بأن تتسلط عليهم النساء وهن يدبّرن أمور الرجال وهن يحكمن بكذا وكذا أعمال. وعندئذ يقول المرء لامرأته قد كانت مشورتك عليّ حسنة، وأنا الآن أصنع بما أشرت، بعيداً عن الحق وعن الأقسام التي عاهد بها أمام الله... وعلى هؤلاء أشار المزمّر بقوله: إن الأثيم يدين ولا يسدد دينه... وكثيراً ما كان الدائن يطرق باب المدين ويدخل إليه متضرعاً بتسديد دينه، إلّا أن المدين كان يماطل معه أياماً تلو أيام، وإذا ما أراد أن يدفع فيسدد له نصف المبلغ، فيفرح الدائن كأنه استوفى دينه كله، وهكذا نجد أن الكذب والدجل والمراوغة والمخادعة كانت متسلطة على الفقراء والأغنياء متفشية بينهم وعلى كلّ إنسان. يمجدون الكذب ويعبدون الأوثان.

الظلم والغيبة والنهب وشهادة الزور.

في الوقت الذي كان به سكان البلاد يقصدون المدينة لدفع الجزية المترتبة عليهم كان أجواق قيافا، ورفاق يهوذا يتجولون بالمدينة، يتجسسون على الناس من له ذخيرة الغلات، ومن يملك الحنطة، ومن له الخمر في معصرته وكرومه، ومن يملك الأثاث الثمينة، فإذا ما رصدوا كلّ شيء وتأكدوا منه كانوا يتصلون بالأمير ويخبرونه بكلّ تحقيقاتهم



وسجلاتهم، قائلين مثلاً: فلان ابن العائد فلان جزيته خاصة بنا، وفلان له كذا أموال، وفلان عليه كذا سنوات لم يدفع لنا الجزية عنها، وفلان وفلان... كلهم بحسب قوائمهم التجسسية.

حينئذ يأمر الأمير بأن يذهبوا ويقصدوا دور المعنيين ويبيعوا ما عندهم من الغلات والمحاصيل، فإن قاومهم واحد من أهل الدار، أو منعهم من تنفيذ الأوامر، يتدخل السلطان بالقضية مشيراً هل لديهم شهود عليه يؤكد أو يثبت مدعاهم، فيقصد بعضهم القرية التي منها المحكوم، ويأتون بالشهود فيشهدون عليه وإن لم يكن قد رآهم من قبل، وهكذا تبتدئ عملية الابتزاز مع أصوات العويل وولولة أهل الدار، فيبيعون جميع الممتلكات، ولا يتركون له حتى لوازم عمله أو حرفته. وإذا نطق أحدهم أن لهذا المدين كفيل يهرعون إلى دار الكفيل ودون استئذان يصادرون كلّ أمواله. وإذا ما علموا أن له حقلاً أو بستاناً أو كرماً أو زيتوناً، ولم يدفع عنها منذ مدة سنتين فيضعون عليها اليد، أو ينكرون أن له أي أرض أو عمل في البستان أو الحقل أو الكرم... والسلطان يؤيد كلّ الأقوال لأن الربّح يعود إليه وليس إلى غيره. ولأجل ذلك كان الناس يخافون الخروج إلى الأسواق من الأشرار، وغالباً ما كانوا يرسلون المفتشين إلى دورهم الذين كانوا يطالبونهم برغائبهم وألا يقصدوا الأمير به ليحاكمهم ويغرمهم. وعن هذا الطريق ملؤوا بيوتهم أموالاً من الظلم والحرام، وعن هذا تنبأ ميخا النبي إذ قال: إنه يوبخ الملوك على وجوههم، واختفى الصدّيق من الأرض، ليس عند الناس استقامة، جميعهم يجلسون بالكمائن، الرجل ورفيقه يجلبون الهلاك، أياديهم حاضرة للشرور، ولا يفعلون الإحسان، الحاكم يطلب الذهب، والقاضي يرغب بالرشوة، والكثيرون يتكلمون بما تحب نفوسهم رذلوا



خبرهم كالخرقة التي تأكلها السوس، وأيضاً لا تتكلموا عن أقربائكم ولا تصدقوا محبيكم... وداود النبي قال أيضاً: إنهم سنّوا لسانهم كالسيف وكلامهم كالنبال يضربوها في الفقير ولا يراهم، نصبوا الفخ ويظنون أن الربّ لا يراهم،... يعوون كالكلاب، ويدورون بالمدينة. أحبوا اللعنات أكثر من البركات. فلبسوا اللعنات كالسلاح ودخلوا فيهم كالمياه وكالدهن في عظامهم...

كان الخاطفون والناهبون في المدينة كالكلاب الوحشية وقد فتحت أفواهها كالقبور الجيفة النتنة، وكانوا يقبضون حتى على المساكين وإذا نجا واحد منهم ألقوا القبض على غيره، وعن هؤلاء قال أشعيا النبي: كيف أن المدينة المؤمنة أصبحت زانية، التي كانت مملوءة شرعاً وصلاحاً الآن مملوءة قتلى، إن ذهبك رذل، حوانيتك مملوءة ماء، عظماؤك عصاة وكلهم شركاء اللصوص... وأضاف أيضاً: إن المستهزئين يسلطون عليهم، ويقع العالم رجلاً على رجل، ورجلاً على صديقه، ويسخر الشباب من الشيوخ، ويسبون الأعزاء ويشتمونهم، كبارها بداخلها يزأرون كالأسود، ورؤساؤها كدببة المساء والذئاب، وأنبياؤها يحبون العهر، الويل للذين يفكرون بالظلم، ويصنعون الشر، يقدمون الفجر ويرتكبون ما فكروا فيه من شرور، ويرفعون أياديهم إلى الله ويشتهون الحقول والبيوت ويأخذونها بالقوة ويظلمون الناس.

وميخا النبي عن مثل هؤلاء قال: إنهم أثمة وأشرار.

وقال أيضاً: إن أغنياءها ممتلئون بالظلم، وسكانها بالكذب ولسانهم خبيث بأفواههم. وأنا أيضاً أباشر لكي أبيدك بسبب خطاياك. تأكل ولا تشبع. يكون لك معبر ولكن تمشي ولن تنجو، وإن الشيء الذي ستصل إليه سأسلمه إلى السيف، أنت تزرع ولن تحصد، وتعصر الزيتون ولا



يخرج الدهن، وتعصر الخمر ولا تشرب منها، من هو من هؤلاء الذي لم يجر له ذلك من الدهن أو من الحنطة والخرم، لأن العمال عجزوا منهم.

إن الغضب قد وصل إلى شرّ كلّ إنسان.

ففي السنة الأولى هلك المساكين والغرباء والفقراء كما كتبنا سابقاً. وفي الثانية هلك الأحسن منهم حالاً قليلاً. وفي الثالثة الأرقى والأوفر. وفي الرابعة، هلك آكلو أموال الأيتام والأرامل حيث لم يأكلوا ما سلبوا ونهبوا وحفظوه في خزائنهم. وعن هؤلاء علّم النبي بقوله: إن الناس صنعوا وكملوا فيما بينهم.

وعلى هذا الأساس باشر سكان المدن والتجار بالشر مع القرويين إذ كانوا يشترون أموال المساكين والفقراء، كرومهم وحقولهم أو الخمر والحنطة الموجودة عندهم، والسلطان كان يساعدهم على الظلم لأنه كان يستفيد من التجار قائلين: إن كلّ تعبنا أخذه هؤلاء القرويون. فيأذن لهم السلطان بوضع اليد على الأرض، غير أنهم كانوا يهربون من أمام القرويين كالغنم من أمام الذئاب ويختفون، وينكرون ما قد أخذوه من الكروم والحقول والمواشي. وإن صادف وتخلص واحد منهم كان يخرج وحيداً ويشتري منهم الخمر من المعصرة فيدخلون عند الأمير - إن كان مقيماً في قريتهم - ويشتكون على التجار، فليرسل السلطان ختمه ويختمه بالثمن المعين.

فكم كانت الشرور كثيرة، فعلها الناس بعضهم بالبعض. والآن نضع الحد للكلام عن هذه البلايا لأنها كثيرة لا يتمكن الإنسان من ذكرها كلها، ونكتفي بما يقول أرميا النبي في ذلك: مال شعبي ولم يعرفني قال الربّ: إنهم أبناء جهلاء وليسوا حكماء، ولكنهم كانوا حكماء للبشر. الخير لا يعرفونه، نظرت إلى الأرض وأصبحت كما لم تكن. إنهم جميعاً كسروا



النير وقطعوا حباله، ولذلك يكسرهم الأسد، وذئاب المساء يمزقونهم. النمر يكمن على قراهم، وكل من خرج منها افترسه، قد كثرت خطاياهم وزادت ذنوبهم وظهرت شرورهم كالسادوميين.

السنة الثانية من الضيق وهي سنة 1085 ي/ 774م/ 158 هـ

من حيث إننا دوّنا وكتبنا عن الضيق المرّ، وعن السرقات والنكبات التي جرت على الناس من دون رحمة ولسبب أعمالهم السيئة، وما جرى على المسلمين والمسيحيين من حيث الضرائب الثقيلة والأعشار العديدة والهجرة المتواصلة مع نوائب أخرى - كما سبق وذكرنا - يجب أن نشير لكل من يفهم ما جرى من الأضعاف المضاعفة في السنة الثانية من سنوات الضيق، ليس فقط من حاصلات الأرض إنما من السماء بما أرسله الربّ من المصائب - لي النقمة وأنا أجازي يقول الربّ - فالضرائب صارت أثقل، والأعشار أكثر، فقد كان العشار يخرج إلى الطرق كالكلب المسعور لينهب كلّ من يقاومه من دون شفقة، وصاحب الجلاء (الهجرة) كان يعرقل التنقل ويزيد من العقبات والعقوبات وصلت إلى حدّ تناثر الجثث تناثر الأوراق، هكذا كانوا يمزقون الناس الفقراء حتى إنهم حفروا القبور وذرّوا ترابها كما أشار النبي أرميا عن هؤلاء في شرحه لنا عن فتح القبور وتذرية عظامهم كالزبل على وجه الأرض وليس من يجمعه. ومكتوب في هذا الزمان يقول الربّ: يخرجون عظام ملوك يهوذا وعظام العظماء وعظام الكهنة وعظام الأنبياء، وعظام سكان اورشليم من قبورهم، ويفرشونها أمام الشمس والقمر وتحت السماء، كالزبل يبقون على وجه الأرض.

وفي هذه السنة زادت الويلات عن كلّ السنين السابقة في تواصل الشرور وفتح القبور، وقد قال أرميا عن الأحياء الذين يعيشون بهذا



الزمان، فإنهم يختارون لهم الموت على الحياة، كلّ من بقي من هذه الطائفة الشريرة، فبددتهم بكل البلاد. وأضاف أرميا أيضاً: تكون جثث هذا الشعب طعاماً لحيوانات البرية وطيور السماء وليس من يخلص من القرى وأسواق أورشليم صوت الفرح، صوت الانشراح، صوت العريس وصوت العروس، لأنه ستكون كلّ الأرض خراباً، فهؤلاء أخذوا الكمال، فأعطوا جثث الناس طعاماً للحيوانات البرية وطيور السماء، إن الشعب الذي ليس له إله يشبه صوت الفرح للعريس والعروس وقد انتهى وأيضاً إن الذين تزوجوا ردّنوا نساءهم وطلقوهن لكثرة الشرور والآثام.

هذه الأمور وغيرها لا موجب لتدوينها إلّا من إشارة فنمرّ عليها مرور الكرام إلّا من ذكر ما حدث في هذه السنة ولم يحدث في سابقاتها عن الشتاء القاسي، والبرد القارس، وعن قلة المرعى وشدة جوع البهائم والمواشي لقلة العلف وهلاك الحيوانات من جراء ذلك، عن الجوع والأمراض القاسية والموت الذي كان يبيد الناس فيه كالجراد. عن السبي الذي جرى بين القرى بعضها البعض، وعن النهب والقتل الذي جرى من قلة الطعام وعن قطاع الطرق، وعن أكل المسيحيين اللحم في الصوم حتى أكلوا الجثث الميتة من قلة الخبز. وعن هذه كلها نكتب عبرة لمن يأتي بعدنا فنقول:

الحديث عن الشتاء القاسي

«مكتوب أني أجعل صيفكم شتاء». في هذه السنة كثر عصير مادة الخمر كيما يرتاح بها المساكين، ويسدّوا بها عيون القضاة وأفواههم النتنة كالقبور المفتوحة، لا يشبعون من الجثث التي يحملونها يومياً. هكذا أيضاً الرؤساء لا يشبعون من الخيرات الأرضية التي تحمل إليهم، لذلك أفاض الربّ نعمه من خزائنه الغنية والتي لا تنضب ولأجل أن يغلقوا حلوقهم الكريهة، يستغلون الناس المساكين لتكون لهم يوم



الدينونة وتنتهي ذنوبهم وتملأ كأس خطاياهم.

إن الشتاء هذه السنة تقدم موسمه فحلّ بحلول شهر تشرين الأول/ أكتوبر، فاشتد البرد، وسقط على الكروم وأعنابها الثلج الكثير، ودام أياماً، فاشتد البرد وكان قاسياً الثلج ولذا جمع أصحاب الكروم عمالاً لجنيها إلّا أنهم لم يتمكنوا إذ سقطت كلها من الثلج الذي طالت أيامه، أما المطر فلم يسقط بموسمه الاعتيادي في تشرين الأول/ أكتوبر وحتى دخول شهر حزيران/ يونيو، إنما كان الثلج متواصلاً بالسقوط والانقطاع، فيوماً يسقط الثلج، وفي اليوم الثاني تهب الرياح الشديدة التي تزعزع الجبال ويتراكم الجليد.

عن الفناء الذي حلّ بالبهائم والمواشي

في هذه السنة، حلّ الموت في المخلوقات الحية بسبب العطش الذي سبق وأشرنا إليه.

فجميع قبائل التغلبيين والمعديين صعدوا إلى المنطقة الشمالية بأهلهم وأغنامهم وجمالهم، وكذلك صعد سكان الجنوب فخربت الأرض وانتهت كلّ المراعي وأصبحت كأنها مكنوسة بالمكنسة، حتى إن التبن والعلف انتهى إذ كان قليلاً فبادت البهائم من قلة المرعى. وإذا صادف وخرج صاحب الغنم والماعز إلى المراعي، لا يجد شيئاً إذ لم يبق سوى التراب لأن أوراق الشجر أكلتها المواشي بالصيف وكذلك لم يبق العلف والعليق بسبب طول الشتاء وصعوبته. فالمرعى بالخارج والعلف بالداخل نضب وانتهى، فامتلأت الأرض من كثرة الجثث في المنطقة الشمالية، الغنم والبقر والخيل والحمير، حتى إن القرى جافت من الجثث وأصبحت كريهة نتنة بعفونة القبور.



عن الرياح الشديدة

هبت في هذه السنة ريح عاصفة لم يحدث مثلها أيام آبائنا فهلك بها أناس كثيرون وأيضاً الماشية والبهائم والطيور أبادتها، حتى إن الزروع يبست، كما أنها أحدثت تراباً كثيراً كالزوابع الثلجية. وأذكر أنه بين عيد الميلاد والريح هبت يومين متتاليين رياح سريعة وقوية، وكذلك في اليوم الثالث عشر من شباط/ فبراير، ويوم الأحد الأول من الصوم ويوم الإثنين. ولأن الأرض قد يبست من كثرة الجليد لم يبق فيها أدنى رطوبة، فيبست جميع الزروع الموجودة في الأراضي ذات التربة الهشّة والمحروثة سابقاً. وذات يوم انعقدت في الجو ظلمة معتمة لشدة الغبار الذي ارتفع من الأرض فهلكت الطيور وخاصة الحمام ولم ندر ماذا أصابه ولماذا سقط من دون كلّ الطيور، فباد من شدة البرد، حتى إنه اختفى من المساكن ومات كما في الخارج.

عن قسوة البرد

حلّ في هذه السنة برد شديد وقاسٍ لم نر مثله في أيامنا فكان الجليد فيه كبيراً ومختلف الأشكال، حافاته حادة كالسيف، وقسم من قطعه لها حدين أو ثلاثة، أو أربعة، كما أن أشجار الكروم تكسرت وخربت كلّ المزروعات وتزعزعت سقوف جميع بيوت القرميد وتكسرت وفعل فيها أضراراً كثيرة بسبب الغيوم الكثيفة والرياح العاصفة التي كانت تحمل المياه التي كانت تسقط على الأرض أو تصعد بها إلى السماء لتسقط على الأرض، فكان الناظر إليها يظن أن الأرض تصعد بالمياه إلى وجه السماء.



عودة موسى بن مصعب

عاد موسى بن مصعب ثانية إلى حكم الموصل والجزيرة وعادت الشدائد والمصائب مما حمل السكان أن ينزلوا ويقدموا الشكوى عليه عند الخليفة أو الأمير للظلم الذي أجراه عليهم هذا الرجل المتلوّن وصديق اللصوص، فالعدالة بعيدة عنه وعوضها كان يثير الشر عليهم ويفرض الفرائض والطلبات التي ضاقت بأحوال الأهالي المساكين، والملك رغم ذلك زاد في إكرام موسى وتقديره فوق جميع عظماء دولته، وأيضاً خوّله بصلاحيات واسعة يفعل بها ما يشاء مع العمال والموظفين والجباة في سائر مدن الولاية وسائر رؤسائها بأنحائها كافة.

فلما استلم ابن مصعب هذه الصلاحيات زأر كالأسد الكاسر الذي يسطو على المواشي يعيث فيها إرباً إرباً، هكذا زادت شروره بأضعاف كثيرة لأن الملك سانده وعاضده، إلّا أن الله قد أهمله كما قال أرميا النبي: خذ من يدي كأس الغضب واسقها لكل الشعوب التي أرسلك إليها فيشربون ويحتقرون وتضيق أنفسهم من أمام الخراب الذي سأرسله أنا إليهم. فأخذت الكأس من يد الربّ وسقيت الشعوب التي أرسلني إليها الربّ... وقال أيضاً: اشربوا واسكروا واحزنوا لكي تقعوا ولا تقوموا من أمام الخراب الذي أرسله بينكم... وقال أيضاً، إنكم تُغلبون ولكن لن تغلبوا لأنني أدعو عليكم بالخراب وعلى كلّ سكان الأرض قال الربّ. الربّ من العلو يزأر عليهم، ومن مسكن قدسه ويعطي صوته، فإنه يزأر زئيراً على داره، آه، آه، الذي بالمعصرة ويهزأ بكل سكان الأرض لأن الحكم هو لله على كلّ سكان الأرض.

بالحق إن الشرع كان لله مع سكان جميع الأرض في هذه السنة لأنه ليس شعباً واحداً أو مملكة واحدة مطمئنة، إلّا أنهم كلهم متساوون



يأتي عليهم الضيق بالتساوي، فجميعهم شربوا من الكأس الذي بيد الربّ. فظل المسلمون تحت الطلب، واليهود والمسيحيون والمصريون والأرمن والسنديون وكلّ الشعوب فرض عليهم الخراج القاسي والجزية الثقيلة، وهكذا شربوا من هذه الكأس. وسقاهم الربّ خمراً كدراً. حتى إن أبناء أرض الروم لم يسلموا ولم ينجوا من الضيق المر، إنما بالتساوي وقعوا تحت النير وللمحبة الكبيرة التي غرق بها رؤساء الروم للمال راحوا يسومون أبناء الشعب أنواع العذابات، فعندنا وعندهم مزيج الكأس واحد شرب منها كلّ الشعوب، مملوءة بالاحتقار عوض العز، والشتائم عوض الكرامة... قال النبي حقوق: اشرب أنت فيرجع إليك كأس عين الربّ والمذمة عوض الإكرام بسبب الخطف الذي في لبنان يوبخك، ونهب الحيوانات يقلقك أكثر من دم الإنسان... وهنا يبيّن النبي أن الكأس الأولى التي شربته الأرض وسكانها في يد الربّ، وأنه يعرفه، ويقول، ليرجع عليك كأس عين الربّ والمذمة عوض إكرامك.

ها إني سأضع في صهيون حجر العثرة وحجر الشكوك فكل من وقع عليه أغناه، وإن وقع عليها جعلته كالهباء. وهذا ما حدث مع موسى. فإن اشتكوا عليه يأتيهم الغضب، وإن لا فيأتيهم الخراب فمن كلّ جهة يأتي الشر منه وعنه كما قلنا سابقاً، والربّ أعطى المعثرة لكل الشعوب أمامه وضربهم بالبرد والثلج الجليد، كما أنهم لم يتمكنوا من الهروب من أمامه لشدة البرد وصعوبته، وإذا ما صادف أن واحداً من الناس هرب، إلّا أنه سريعاً ما يرجع إذ إن يستطيع أحد اللحاق به فيعيش كالأسير وأحد المضطهدين، فيعود إلى داره، وهذا أيضاً أشار إليه النبي القائل: إذا جعلت مقرك في الأعالي أني أنزلك وإذا نزلت إلى الجحيم أصعدك من هناك وأسلمك بأيدي الذين يطلبون نفسك، وأيضاً قال: يدوسونه كوحل الأسواق، وكالزبل على وجه الأرض ولا يكون له مخلص. وإن



هذا يعلن بأنه من عند الله فجاء علينا. وهو لما عاد إلينا، عاد كالأسد الذي يزأر على الفريسة.

وهكذا كان شأن العامل الظالم مع الناس الذين جعلهم عمالاً في مدنهم وخاصة على المساكين الذين اشتد عليهم البلاء من دون رحمة. علماً أن هذا العامل انتخب له من رؤساء هذا الإقليم وعظماء مدنه وجعلهم رفاقاً له. الذين كانوا يسرقون علانية وبوضح النهار وليس من يعترض عليهم وأضحى عامة الناس في ضيق شديد وانحلت أياديهم، فسقط قلبهم بداخلهم، وقصم ظهورهم عند سماعهم بعودة المنافق ومات رجاؤهم في وسطهم، لأن الخوف كان مسيطراً عليهم ويفزعون لأدنى حركة من حركاته فلم تهدأ مهجهم، ولم يرتح بالهم، ولم ينشرح صدرهم بل زاد القلق فيهم وأحاط بهم الغضب كما قال أيوب:

فأقام الظالم عاملاً في كلّ قرية، يعاونه موظفون آخرون، كما أنه زاد من قيمة ضريبة الجزية إذ كانت طلباتهم هي الأخرى تزداد أكثر وأكثر فكانوا بذلك سراقاً ولصوصاً وقاطعي طرق، منهم انتخب قضاة للشعب ومكتوب بأن الملوك الإثمة خدامهم أثمة أيضاً، فكانوا يعاملون المساكين بالقتل والضرب والجلد القاسي عند مطالبتهم بالخراج الكثير، ولهذا فإن أكثر من نصف ما يَجبُونه كانوا يأخذونه لهم لقاء أجورهم ومن ثم يعودون ثانية ليسلبوا منهم ما يملكونه ويرغمونهم على بيع مقتنياتهم بأرخص الإثمان، فملؤوا بيوتهم بأموال تعب الأرامل واليتامى. وإذ صادف وسافر أحدهم إلى بلد آخر وهو لا يملك شروى نقير، فيبتدئ أولاً بالعمل لقاء أجور معينة، غير أنه ما ينفك أن يصادفه الجباة فيلتزم ببيع كافة أمواله ليدفع الضريبة التي هم قدروها عليه، فأي إثم هذا وأي حالة مرّ منها، حتى إن رؤساء الأقاليم والحكام كانوا في هذا النفاق، والأنكى من هذا أنهم كانوا – أعني الرؤساء – شركاء اللصوص



وذوي ملكة في السرقة. فبمثل هذه الشدة ومصائبها كانوا يجبون ضرائبهم مرتين أو ثلاث، وبذا لم يعرف لهم نهاية ولا بداية، ولا ماذا يأخذون ولا ما يعطون، فجميع تصرفاتهم كانت كاللصوص والسرّاق وقطاع الطرق. فألقوا القبض على أناس أحرار لهم مكانتهم في الإقليم وباعوا جميع مقتنياتهم أو قتلوا واختفى اسمهم من وجه الأرض. ولم يكتفوا بهذا فقط إنما راحوا يطالبون بالكثير فمن كان عليه عشر دراهم طالبوه بثلاثين أو أربعين، أو قضى منهم أيامه في العبودية لأنه لا يملك ما يدفعه من المسلمين والمسيحيين حيث كانوا يلقون القبض على كلّ عابر طريق لأجل أن يدفع الرسوم ليسدّوا منافذ أطماعهم بالمال من دون بيان للأسباب ولا معرفة للنتائج. وعن هؤلاء صرح أشعيا النبي قائلاً:

الويل لي، فإن الإثمة فعلوا ظلماً، قاموا بالإثم والخوف وجعلوا عليك الحفر والفخ، ساكن الأرض، ومن الذي يهرب من صوت الخوف، يقع في الحفرة، ومن يخرج من الحفرة تلزمه الفخ لأنها انصبت من الأعالي وانفتخت فتزعزعت أساسات الأرض، ذوباناً تذوب الأرض، وانحناء تنحني الأرض، وترتجف الأرض ارتجافاً كالسكير، وترتج كما تهتز العرزالة، فيقوى عليها إثمها، وتقع من قارة إلى قارة ومن بلد إلى بلد، وكثر الشرّ بين الناس وجاء الخيال على الأرض وتهدم وجهها واختفى الناموس حيث أصبح عجلاً كصاحبه والكاهن كالشعب والمدين يقسو على الدائن وأكثر من صاحب الذنب يكون الذي أذنب عليه وقد قال عن هؤلاء أشعيا النبي أيضاً: إن الربّ يمحو الأرض ويخرّبها ويخرّب وجهها ويفرّق سكانها.

فصار الشعب والخادم كسيده والجارية كسيدتها والمدين والدائن والملاك كالبائع، وكالمذنب الذي يذهب اليه فتخرب الأرض خراباً وتنهب نهباً من حيث إن الربّ تكلم اخذت الأرض تبكي وتولول



وتحزن، لأن الأرض تشبهت بسكانها، بطلت الشريعة وتبدلت الوصايا الصالحة إلى الشريرة وانتهت الوعود الحقيقية من العالم التي من الأبد، وجعلوا عوضها الإثم والنفاق والسرقة؛ قال الشيكان للأثمة: ها إن عيني قد أبصرتهم. قال هذا للخدمة الذين طردوه وأدركوه، ألّا يتمرد أحد، ولا يترك الإنسان النفاق القليل والكثير. فرش شبكته ليصطاد. بها وجد جميع أبناء آدم يده كأنها عش لجميع الشعوب، ولن ينجو إنسان من الخطيئة، لا الأُسقف ولا الكاهن أو الحاكم من الخطف والسلب لبعضهم والهجاء والمسبّة والافتراء والبغضاء والتذمّر والسرقة والزنا وفتح القبور وكل بذور الشيطان التي ذرعها بين الناس وكل واحد كان يفعل السوء حسب درجته وقوة تمكنه، وعن هؤلاء قال النبي:

لأجل هؤلاء تجلس الأرض في الحزن في كلب قلب. بطلت الأفراح ولات الطرب، وصوت الانشراح والدفء والغناء، ولم يعد هناك شرب للخمر، ويقال لشاربه أنت سكران. نبهت الفدية، وسدت المدن منافذها وولولت على الخمر المراق في الأسواق. وبطل كلّ الفرح وكل الانشراح وحلّ الحزن والقلق والخبال وهذه لم نعرفها عن طريق السمع، ولكن رأيناها أمام عيوننا.

فعل الناس كلّ الشرور مع بعضهم، وتجاسروا على الرهبان والمتوحدين والحبساء والعموديين، فأنزلوا الكثيرين من على أعمدتهم، وأخرجوا الحبساء من منازل عبادتهم، والرهبان من القلالي والاديرة، أولئك الذين كانوا مجتمعين بروح التقوى والقداسة، فتحمّلوا الاضطهاد والجلد القاسي والشدائد أكثر من الجميع من أجل الإيمان. فليعلم ويفهم الذي يقرأ، بأنه لم يحدث في العالم اضطهاد أقسى مما حدث في هذه السنة، وكنت معجباً لأمدح روح الاستشهاد الحالي، إذ لم يكن باستطاعة المرء الهرب، إنما كان مكتوفاً وأسيراً، يسلب ما بين



يديه، حتى لم يبق له شيء، وإذا أطلق سراحه كان يهرب إلى جهة أخرى، وفي الطريق يسلب ما بقي لديه أن بقي لريه مال. ولو رغب في دفنه ببطن الأرض التي كانت تصرخ وتخبر بما فيها. وإذا ما تركه أمانة عند امرئ ما كان يأخذه اللصوص والسراق. وعن هؤلاء قال عوبديا النبي: إذا ارتفعت كالنسر، وإن وضعت مقرك بين النجوم، أنزلك من هناك يقول الربّ... وأيضاً يقول: كما أن وجد عبد بعد الفحص وأخرج خباياه. وهذا كان واجباً للنظر في أن أحداً يخفي شيئاً سريعاً ما يظهر.

وقال هوشع النبي أيضاً: من كثرة الإثم ازدادت الشهوة الفاسدة في كلّ واحداً. وإلى الإثم والمراءاه مال شعبي ولم يعرفني. هم أبناء جهلاء وفي الشرّ حكماء والخير لا يعرفون. نظرت على الأرض فإذا هي خالية خاوية.

وقال أرميا: أصبحت الأرض كلها خاوية خالية وانعقدت الظلمة والخطيئة والإثم على وجهها. وكما بين لنا ناحوم: بيعت جميع أموال الأرض كثر تجارها أكثر من نجوم السماء.

إن المعزى الحامل، اثنتان أو ثلاث بدرهم كذلك المعزى والثور بدرهم، والحمار بدرهم، والبغل بعشرة دراهم، أما باقي الأشياء فكان مآله إلى الخراب الذي يذهب مع الريح، ثيابهم الجميلة وكل مقتناهم من الحلي الفضية والذهبي والزينات البيتية نهبها القضاة الظالمون، أو بيعت بأرخص الأثمان، فما كان ثمنه عشرين و ثلاثين درهماً بيع بدرهمين أو ثلاثة. وهكذا تلوث وجه الأرض بالبغي والإثم، فلما جاءت أيام الصوم المقدّسة ودخلت الأسابيع المسماة (أسابيع البسما) لم نسمها سنتئذ بأسابيع البسما ولكن بأسابيع الضيق والمرارة والتنهد إذ كثرت فيها الشدائد أكثر من باقي السنين الماضيات، وهكذا تعاقب



الضيق جميع أيام الصوم المقدّس إلى ما بعد الأحد الجديد، وبطل بذلك الأحد والعيد، وبطلت الطلبات التي كانت تقام في أيام الصوم والشعانين والآحاد الباقيات، وقد بلغ الأمر بالمسيحيين أن قلعوا كلّ المصنوعات الحديدية والخشبية كالأبواب والشبابيك من دورهم وباعوها وفي الأخير باعوا الأبواب بذاتها وقلعوا الشبابيك أيضاً من بيوتهم وباعوا ليقتاتوا بأثمانها، وفي الأخير تركوا بيوتهم خربة وفروا حفاة عراة يحملون شدة البرد والضيق وقصدوا قرى أخرى يرحلون من قرية إلى قرية ومن بلد إلى آخر.

والآن نهتف مع أرميا النبي: إن الشعب يأكل المرارة ويشرب المياه المرة وبذا تبدد. مع أشعيا النبي الذي قال: يكونون كالظبي التي تهرب، وكالغنم من دون راعٍ يجمعها، فالإنسان يرجع إلى شعبه والرجل يهرب إلى ارضه... وأيضاً: تمتلئ بيوتهم أصواتاً والأبالسة ترقص هناك. ويحل هناك بنات آوى وتغني سيرينس في ساحاتها، والثعالب في هياكل انشراحهم. وليس لنا فقط أن نقول: لقد انتهى السميذ والخمر من بيت الله، إلّا أنه تركت الكنائس عزتها، وتخلت عن زينتها وباعوها. وما بقي احترق بالنار، وأواني الخدمة فقدت، والكروم خربت، والكرمة بكت. الحقول أنبتت الشوك والحسك، والتينة يبست وكذلك الزيتون ذبل، وأيضاً الرمان والتمر والتفاح وجميع الأشجار يبست لأن الفرح زال وانتهى والناس هربوا، وأضحت بيوتهم مأوى للحيوانات.

عن الضيق الذي سببه الشر والظلم بين القرويين

رأينا من اللزام علينا أن نكتب هذه الأمور هنا، فلقد سبق وكتبت عن الويلات والبكاء والآلام القاسية. أما الآن فأذكر ما هو أكثر شراً وأمرّ من السابقات، وما جرى من الأعمال في هذا الإقليم إذ لم يكن الهمّ همّ



الأكل والشراب. فإن قليلي الأموال والأدنياء الأراذل لم يتركوا ولو وتداً في الحائط إلّا أخذوه هؤلاء اللصوص ذئاب المساب، فصاروا هؤلاء العراة الحفاة أغنياء من جراء أعمالهم وسرقاتهم، هؤلاء قطاع الطرق السكارى والزناة وأرباب الكمائن والمؤامرات الليلية ومخربو البيوت، أصبحوا اليوم هم القضاة والمسؤولون عن الحياة الجناة فانظروا أيّها الأخوة ماذا فعلت خطايانا التي أوقعتنا بأيدي الظالمين القساة وهكذا تم ما قيل، أن الأثيم ينتقم من الأثيم، فإن خطايانا هي التي ألقتنا بأيدي القساة الذين لا يعرفون الرحمة، حتى إن الجزية وغيرها من الضرائب فرضت علينا بأضعاف مضاعفة ولذا باع الناس كلّ ما يملكونه لأجل أن يدفعوا ما فرض عليهم.

وليس فقط الجزية كانت المقيتة أو ما كانوا يأخذون، إنما كانوا يفرضون بالتساوي على كلّ الناس، فليس لديهم المراتب، الأغنياء والعامة والفقراء بل كانوا يقولون: هذا عقاب وجزاء من جل المنطقة الفلانية حلّبكم وعليكم. فلم يكن يجرؤ أحد للكلام بل الكل يخافون من الحكم الصادر عليه، فقبضوا على عظماء القوم وقتلوهم من دون رحمة. وخاصة أن بعض القرويين كانوا سعاة أمام الظالمين وساعدهم الأيمن هؤلاء أفاعي الشر، فكانوا يهدمون على الناس ويسلبون أموالهم ويبيعونها ظلماً بحجة أو بأخرى كان يتهمونهم مثلاً: إن لك في قريتنا كرماً أو حقلاً أو بستان زيتون، أو انك كفيلنا عند الرجل أو إنك ابن الجزية العائدة لنا، وقد مضى كذا سنوات ولم تدفعها، لذا تلزمك بدفعها الآن. فكانوا يقبضون على الناس المساكين ويضايقونهم، وإذا ما قدموا شكوى إلى القاضي لمحاسبة هؤلاء الجباة كان القاضي يردّ شكواهم ولا يحاسب الظالمين عن أعمالهم. أو أحياناً كانوا يقبضون على عابري الطرق ويقيمون عليهم شهود الزور من أنهم لم يدفعوا



الجزية، رغم أن هؤلاء يحلفون بأنهم لم يروا هؤلاء الجباة ولا يعرفون هؤلاء الشهود، ولكن يذهب قولهم أدارج الرياح فتباع أموالهم ويدفعون الجزية صاغرين. وهكذا كنت ترى الجباة كالكلاب المسعورة يدورون في المدينة وهم يتمرغلون على الأرض أمام أرجل أصحابها ويسلون عن الذي عنده الحنطة والغنم والبهائم و الحديد أو أي شيء تجاري فيأخذونه وينصرفون إلى المدن زمراً زمراً يتجولون في الشوارع والأسواق، يتشاجرون مع الناس وهم يقولون نحن وراءكم إلى انقضاء الأيام يحرثون الأرض تحت أقدامهم مفتشين عن الأموال والذهب والفضة والحلي، فإذا بالأرض كالمرأة الحامل التي يأتيها ألم الوضع. بهذه الصورة غيرها كان الناس يسلكون في أيام الصوم المقدّس.

والآن ننتقل إلى شرور أخرى كان يفعلها القرويون بعضهم ببعض فكانوا يذهبون من معسكر إلى معسكر، ويحنّون من شر إلى شر، وينتقلون من قيء إلى قيء والتائب على التائب، ومن ثم الصالح على الصالح... إلخ.

المرارة التي رآها الناس بالإصلاح، والسبي الذي فعله القرويون ببعضهم

إن الكمال والفرائض التي وضعها الربّ على جميع الأرض، لم يسلك الناس بموجبها ولذا غضب الربّ ولم يهدأ غضبه عنا، فزادت شرورنا كثيراً ويوماً بعد يوم نقترف من المآثم باختلافها، فنحملها على ظهورنا حملاً ثقيلاً ولا نريد تخفيفها ولأجل ذلك صرخ أرميا النبي:

هكذا قال الربّ: «إذا وقف أمامي موسى وصموئيل، فنفسي لا تريد هذا الشعب، أخرجهم من أمام وجهي، فليخرجوا وإن قالوا لك



إلى أين تخرج، قل لهم» هكذا قال الربّ، الذي للموت للموت، والذي للقتل للقتل طعاماً للكلاب وطيور السماء وحيوانات البر وللخراب.

الآن طردنا الربّ من أمام وجهه لم يبق مقدّس ولا غفران ولا أناس طاهرون بيننا، ليرضى الربّ علينا، فخربت البلاد وخرج الناس من بيوتهم فهجم عليهم الجباة كالكلاب لإبادتهم، وكالطيور لقتلهم من دون رحمة، غير أنهم كانوا أشرّ من الكلاب والطيور، فهذه تأكل ولما تأكل وتشبع يرتاح الآخرون من التمزيق... هؤلاء يدسون الفضيلة بأرجلهم، كالحيوانات المفترسة، يأكلون وما يبقى من فضلاتهم يضعونه في بيوتهم ولا يردعهم كلّ الشرور السابقات.

هذه كلها جرت على آدم وأرزين (أرزون) وميافرقط وآمد إذ وجد فيها أناس قساة أردياء وادنياء، ماتت المحبة بينهم وسادت عليهم الشرور عمل... سبعون ألفا لإصلاح الحالة. وأرسل إلى ابن مصعب لئلا يدخل... أرزين... عليهم كالذين يفعلون هم شهواتهم النجسة... تلك التي فعل... أضعافاً كثيرة. وليس فقط سبعين ألفا فطالبهم بثلاثة أضعاف فوقها، وفرض على كلّ واحد كما... إن يأتي له، وإذ كلّه... كلّ ما يملك. وأرغم أيضاً المساكين والغرباء وعابري الطرق... وأيضاً المساكين والغرباء وعابري الطرق... وأيضاً على التجار وسكان المدينة سلبوهم ظلماً قالين... في... يا... والعامل يساعد هؤلاء وكل من يعرفون أنه لديه ولو فلساً واحداً وجهوا أنظارهم اليه وتفوهوا عليه وسلبوه ذلك الفلس أو الحنطة أو الشعير أو أي حاجات تجارية أخرى، فإذ سلبوا جميع الناس علت أصوات العويل من كلّ الجهات.

ولما رأى الناس أن هؤلاء المسؤولين وجوههم صفيقة لا تخجل من الناس ولا يهابون الله، فتحقق لديهم أن هذه الأعمال الأثيمة الت



يفعلونها يومياً في البلاد كلها بتحريض من رئيسهم... فإلى متى لا يشبعون من لحومنا، لا نعرف من أين نأخذ لنجلبه لهم هذا الذي يصفق بيديه ويصرّ بأسنانه كالذب الذي لحس الدم، الذي اجتمع حوله اللصوص والقتلة وسافكو الدم.... هؤلاء العظماء من القرويين قساة القلوب غليظي الرقاب وليس عندهم رحمة، فجمع من القرى صبياناً كثيرين وجعلهم في المعسكر وسلم لهم السلاح الحراب والقلاع وهؤلاء شرعوا باقتراف كلّ الآثام ضد إخوتهم، أن اللسان عاجز عن وصفها أو سردها.

وكان بين هذه المنطقة وبين الجبال من الجهة الشمالية أرض تسمى توتيس، وكان الشعب الذي يعيش فيها مسيحياً اورطياً. وكان هؤلاء الأورطيين يتقاسمون الأرض مع أرمينية، أي أنها أرمينية الرابعة ويوجد فيها مناجم ستخرج منها التبر والفضة، مع أنواع الحديد. ولشدة الضيق الذي حلّ بالناس، قصد هذه المنطقة جمع غفير لاستخراج التبر منها، فتكون هناك معسكر عظيم أقاموا عليه عاملاً من قبل الملك فشرعوا بحفر الأبار العميقة والكبيرة لاستخراج التبر.

غير أن الفرس فإن عمالهم لم يرغبوا في إعطاء المعلومات عنهم قائلين: إن أكثرهم من إقليمكم وانهم يعطون الجزية والضرائب لكم. ولذا شنّوا الحرب عليهم وسلبوا كلّ شيء ومروا بطردهم جميعاً لئلا يدخلوا إلى أراضيهم ولما رفضوا ترك الأرض باشروا بقتلهم، فهرب هؤلاء الباحثين عن التبر من أمام حدّ السيف، وإذا كان الفصل شتاء والثلج كثير والجيد جامد على أفواه الآبار المطمورة بالثلج والمملوءة بالماء والهاربين لا يعرفون أمرها، كانوا يقعون بالآبار وكثيرون منهم غرقوا واختنقوا وهكلوا تحت الجليد الذي على فم البئر، وكثيرون قتلوا بحدّ السيف ولم يرحموا أحداً فسلبوا ونهبوا جميع المعسكرات التي



انشئت هناك. وعن هؤلاء قال أرميا النبي ومعه نقول:

إن أعداءنا فتحوا علينا أفواههم جميعاً، ووقع فينا الخوف والرعب.... عيوننا أجرت سواقي الماء على انكسار ابنة شعبي، صيداً صادوني من دون تعب، سكنت حياتي في الجب، ألقوا عليّ الحجارة، طافت المياه فوق رأسي... ونضيف ما قيل في الآخرين:

من يفرّ من صوت الخوف يقع في الحفرة، من ينجو من الحفرة يقع في فم السيف. ومن يخلص من فم السيف يقع في الأسر.

وهنا تحقق كلّ شيء، فالذين اختنقوا وقتلوا، تحنن عليهم قلب رفاقهم المسيحيون، فأخرجوا جثثهم ودفنوها. وصادف إذا أخرجوا واحداً منهم عرّوه من ثيابه... وتركوه على فم الجب عرياناً بسبب الشرور التي اقترفوها ولا حاجة لسردها ثانية هنا، لأنهم لا يصدقونها لشرّهم، وثانياً لئلا يطلّع عليها المجوس، فيقولون ليس لديهم مخافة الله (لدى المسيحيين) وأعمالهم أشرّ من المجوس. ولأجل ذلك حلّت علينا هذه البلايا والمصائب والنكبات.

ولأجل مجد الربّ وطول أناته على خطايانا وكثرتها ندرج قليلاً منها للاتعاظ فنقول:

رغم كثرة الثلج المتراكم على وجه الأرض لم يهرب الناس، وإذا صادف وهربوا كان القساة يقتفون آثارهم، فإذا لحقوا بهم وهم ملقون على الأرض فوق الثلج وقد جمدت اوصالهم مع نسائهم وأولادهم وهم يرتجفون، ويتفرقون كالملح على النار من شدة البرد، فعوض أن يساعدونهم بأفعال الحرمة كانوا يعرّونهم من ثيابهم الرجال والنساء، والأطفال ويتركونهم عراة لا غطاء حتى إنهم كانوا يأخذون سراويلهم



من دون حياء فيموت قسم منهم خجلاً من انكشاف عوراتهم، كما أنه لنجاستهم هؤلاء القساة كانوا يفعلون الفحشاء مع النساء والبنات أمام بعضهم البعض من دون حياء، وفي الآخر ينهبون أموالهم ويهربون، وكل ذلك بأوامر ذلك المنافق الذي كان يتزعمهم والذي سمح لهم أن يحتفظ كلّ واحد بما يحصل عليه، أولئك اللصوص الذين التحقوا به ودخلوا معه إلى تلك المنطقة من أجل شهواتهم الحيوانية النجسة التي أكملوها بأولئك المساكين بتحريض من أولئك القرويين ورؤسائهم الذين كانوا أشرّ قسوة من المجوس، فلم يتحننوا على إخوتهم، لا بل فعلوا الشر لهم بالاتفاق مع قطاع الطرق الذين خربوا المنطقة حتى إنهم أحرقوا الخشب، وكسروا أواني الفخار وهي بعد في الكور وسلبوا كلّ الأدوات الحديدية والنحاسية مع كلّ الفرش والمنامات والأبواب والكؤوس والصحون فلم يتركوا شيئاً إلّا واحرقوه بالنار إضافة إلى كسرهم الأكواز والجرار والدسوت والقوارير. وأما الخمر المحفوظ في الزقاق فشربوه حتى اكتفوا والبقية سكبوه على الأرض. وإن صادف أن اكتشفوا بعض الأواني مطمورة في الأرض ولا مجال لكسره، فإن واحداً منهم يتبرع بايغال حربته في الآنية ويكسرها من الأسفل أي يثقبها فيسيل الخمر في الأرض. أما العسل الذي وجدوه عند الناس فأكلوا منه قدر طاقتهم والباقي منه سكبوه على الأرض، إضافة إلى أن جميع خلايا النحل كسروها وغمروها بالماء لأجل أن يموت النحل الذي يعيش فيها. حتى بلغت خسارتهم – بمشورة الشيطان – فأكلوا اللحم والجبن بأيام الصوم المقدّسة وأعمال أخرى فعلوها بنجاسة أكبر من المجوس...

إننا حقاً لمتعجبين لما حدث من السوء الذي حلّ بالناس الذين تجاسروا على الكنيسة فسرقوا كتبها وجميع أوانيها مع أواني الخدمة



المقدّسة لأنهم سجنوا أهاليهم في الكنائس ودخل معهم الكفار الذين عبثوا وخربوا معهم وارتكبوا كلّ منكر.

والآن يجب أن نبكي مع أرميا النبي ونقول: لقد فقدت صهيون هيبتها، هكذا الكنيسة المقدّسة، فكهنتها كانوا يُحتقرون فيها، لأن العدو قد ارتفع، نفرش يديه على كلّ شهواتها... ووجدت بأن الشعوب دخلوا مقدّسك وقد أوصيتك أن لا يدخلوا مجتمعين لأنهم قد ذموا النساء في صهيون...

هذه الشرور صنعوها في الأرض، الرجال جاؤوا بهم مقيدين كأنهم قتلى وقد سلبوا كلّ مقتنياتهم وأموالهم، وهكذا فعلوا بأبناء كثير من القرى. ففي أرزين وميافرقاط التي عبروا عليها من أرزين سرقوا كلّ المواد التي امتدت عليها اياديهم القذرة.

أولئك الجناة حكم عليم بالعذابات القاسية والجلدات الأليمة، حتى سرى الدود بأجسامهم فماتوا من جراء ذلك. وآخرون كسرت أياديهم وأرجلهم لثقل السلاسل التي كانت مربوطة بها، هكذا سلمهم الله بيد الظالم الأثيم، جزاء كلّ النجاسات التي فعلوها.

فكانوا يقبضون على الصبيان (الخدم) في الأسواق يرتكبون معهم الفحشاء، أما الكتّاب والصيارفة الأشرار رغم كونهم مسيحيين كانوا من دون حياء ولا خجل يرسلون ويأتون بالعذارى ويفضحونهن بالاعتداء عليهن، وليس مع الإماء والجواري إنما مع بنات الأحرار والأشراف. هؤلاء هم الذين تجاسروا على عروس المسيح (الكنيسة) قد وقعوا في الفخ وأوقعهم الربّ بيد المنتقم الأثيم، فالأثيم سقط بيد الأثيم وكلاهما ينتقم منهما الربّ، حيث من جراء أعمالهم المنكرة تسلط عليهم القوي الشرير فثقب مناخرهم ووضع فيها حلقات كحلقات الأبل، كما ثقب



عيونهم وصنع لهم سلاسل ليجذبونهم بها ولما... أعطوا للصبية أن يكرزوا في الأسواق. ومن ثم القاهم في السجن، ولم يكن يعطي لهم إلّا الخبز للقوت اليومي. والدار التي كانوا مسجونين فيها كان يفوح منها الرائحة الكريهة من كلّ جانب...

اكتفي بهذا القليل اليسير من الأخبار، كتبته هنا ليطلع عليه الرؤساء فيعيشوا بمحبة الله الذي سبحانه يجب أن يعيش في قلوبهم؛ ويضعوا الناموس (القانون) نصب أعينهم وإلا يسقط عنهم اسم الرئاسة ويحملوا اسم العصاة المملوءة كلّ غباء وفناء.

عن الجوع الذي حلّ بالناس،

والوباء القاسي الذي حدث هذه السنة

مكتوب في سفر النبي: ها إني أطعم لهذا الشعب المرارة، وأسقيه ماء مراً، وأبدده بين الشعوب الذين لا يعرفونه، وأرسل عليهم الجوع والموت والسلب والقتل. فتحق ما قاله النبي من دون زيادة أو نقصان، فقد صار ضيق شديد في البلاد الجنوبية من سبب العطش الذي سبق وذكرناه. وإن الشدة والقسوة التي فعلها موسى بن مصعب امتدت على أرض المنطقتين الجنوبية والشرقية، فصعد إلى أرض بين النهرين الشعب الجائع، فامتلأت البيوت والمحلات، والقرى والمدن، ولم يبق مكان لأحد كي يجلس أو يمشي، فاشتد الضيق وعمّ الألم على المساكين الذين في ما بين النهرين ولاسيما العمال الذين لم يكن يعطي لهم الأجرة، إنما كان رب العمل يستأجر الفعلة للخدمة يأكل البطن ليس إلا، وإذا ما اشتغل الفعلة لدى أحدهم فلم يكن يقدم لهم سوى الخبز، فكنت تجد الرجال والنساء والأولاد والشيوخ يدورون على البيوت طول النهار طلباً للطعام، فإذا ما وجدوا داراً بابه مفتوحاً يقفون على



عتبته نحو الثلاثين والأربعين رجلاً كأنهم شخص واحد، إذ كلهم كانوا يطلبون بصوت واحد ما يسدّ الرمق، وهكذا أصبحت يد جميع الناس ممدودة للاستعطاء والاستجداء... ولما صار عددهم فوق ما يتصوره المرء لكثرة الفقراء والغرباء والمحتاجين، امتنع الناس من العطاء خوفاً من الأيام المقبلة لئلا تسوء حالهم هم أيضاً وتتعسرّ الحياة كما أن المأمور - قسوة على قسوة - سلب كلّ الغلات من أصحابها وباعها ظلماً وبذلك عمّت الحاجة إلى الطعام.

فما كان من المساكين والمحتاجين إلّا أن سقطوا بذات الخطأ حيث صنعوا لهم أكياساً كالبرص والعميان والمضروبين - رغم كونهم شباباً أقوياء - إلّا أنهم رفعوا من وجوههم برقع الحياء ولم يعودوا يخجلون، فأخذوا يدورون على البيوت مستعملين كلّ حيلة، فأحنوا ظهورهم وكالمرضى المطعونين، وكانوا يهددون كلّ من لم يعطهم ولا يغادرون الدار حتى ينالوا ما يطلبوه. وفي الآخر ينزلون إلى السوق ويبيعون الخبز الذي استجدوه ويشترون بثمنه اللحم والخمر.

فلما رأى الناس هذه الأعمال منعوا أياديهم حتى من المساكين الحقيقيين فحلّ في الناس ضيق شديد بسبب هؤلاء الأغبياء المحتالين. ولم يعد الناس يقرضون ولو فلساً واحداً للمحتاجين، كما أنهم داسوا شريعة الصوم فأكلوا فيها اللحم والحليب. وبادت كلّ المواشي من تلك المناطق حتى الخبز لم يعد له أثر في السوق فاشتد الجوع على سكان تلك المناطق لكثرة الغرباء والمهاجرين، حتى إنهم شرعوا بالتفتيش على جثث الموتى للتغذّي عليها...

إن الغرباء الذين فرّوا من ديارهم هرباً من الجوع، اصطدموا بالبلاء أمامهم ومعهم ووراءهم، فأينما اتجهوا كانوا يواجهون الخراب



والموت، فأكلوا المرارة وشربوا المرارة، وتفرقوا بين شعوب لا يعرفوها، وأرسل الربّ إليهم السيف والسبي والجوع والموت قضى على أغلبهم، وقضوا فصل الشتاء بأكمله في ضيق شديد إلّا من بعض الأيام التي كانت حرارتها أكثر من غيرها، التي بها باشر النبات بالنمو، فخرج الناس إلى البرية كالبهائم يجمعون من تلك النباتات ويأتون بها إلى السوق ويبيعونها ويشترون بثمنها الخبز، وكانت تبدو على وجوههم لون الخضار، ولم يكونوا يشبعون كالحيوانات، فتمت فيهم كلمة النبوة القائلة: تأكل ولا تشبع، لكي تكون لك العبرة، إذ كانوا يأكلون ولا يشبعون، فوقعوا جميعهم في مرض وجع البطن، وامتلأت بهم المنازل والأسواق وتكوّموا مام الحوانيت والأبراج والهياكل وفي كلّ الأماكن... فازدادت الأمراض وتفشت كالشحطة والدمامل ووجع البطن ومرض العيون والحمى وأمراض أخرى لم تكن معروفة آنذاك. كما كثر فيهم مرض الباسور والاستسقاء.

وحينئذ جاءنا خبر من الموصل مفاده أنه تفشى فيهم مرض ورم الرأس فكان المصابون يسقطون حالاً ويموتون لا يسعفهم أحد إذ لم يكن بامكان الواحد أن يصل المريض إلّا وقد فارق الحياة. وهذا الخبر كان عندنا حديث المجالس، ولم تطل الأيام حتى وصل إلينا المرض وسرى في البلاد ببطء، فمن كان يصيبه كان يختل عقله ويزول نظره ويسقط الإنسان كالميت، ويبقى أياماً كثيرة وهو لا يعي على نفسه، ولذا المصاب به إن لم يكن يكمل الأسرار في اليوم الاول أو الثاني لا يمكنه بعدئذ أن يدرك شيئاً. وإذا صادف ورجع عقل المصاب اليه بعد أيام، كان كالذي يستيقظ من سبات عميق، حتى إنه لم يكن يتذكر أنه كان مصاباً بالمرض ومنَّ الله عليه بالشفاء. كما أنه لم يكن يتمكن من النهوض لممارسة العمل لضعف جسمه وثقل رجليه. كما أن المرض هذا كان



يعاود المصاب أو الإنسان أكثر من خمس أو ست مرات. فالمصابون به كانوا يموتون ربما في الإصابة الأولى أو الثانية أو الخامسة والسادسة. وآخرون كانوا لدى الإصابة يظهر فيهم أو على أجسامهم خط ابيض يبقى يوماً أو يومين ويختفي ليظهر خط آخر لونه أحمر، وهذا أيضاً ييبس فيظهر خط ارزق كامد، والمريض يتحمل هذا الألم أياماً كثيرة على امل أنه سيشفى، فتقبض بطنه، وإذا تخلص من هذا أصابه مرض الدمامل حيث كانت تظهر في مكان واحد أربع أو خمس دمامل، وكل واحدة منها لها نوع من الألم، فمنهم من كانت تظهر الدمامل في بطنه، وخطوط، وباسور ومرض القلب... هذه الأمراض أحياناً كانت تظهر في الشخص الواحد وفي وقت واحد، وهذا يتحمله المصاب حتى يفارق الحياة بعد أن عانى من العذاب وشدة الجوع والعطش. ولهذا السبب كانوا يلقونهم في الهياكل والأروقة والكنائس والبروج والأسواق ويدفنونهم في المزابل بعد معاناة الأوجاع المتنوعة.

وآخرون لشدة الضيق والجوع كانوا يتجولون في المدينة ويقفون على باب واحد أكثر من عشرة وعشرين وثلاثين شخصاً، وبينهم المصابون بالدمامل والخطوط أو وجع البطن وغيرها... وكل ذلك من جراء الجوع والعطش القاسيين، والضعفاء منهم يزحفون على أيديهم وارجلهم يطلبون الخبز، والخبز بعيد عنهم، حتى إن الذين كانوا يحبون توزيع الصدقات لم يعد يتجاسروا أن يعطوا الذين يقصدون ابوابهم لكثرة الناس الذين هم داخل الدار. أما الذين قد افترشوا أرض الأسواق فكانوا يتعذبون من شدة الجوع والعطش. كما أشار النبي القائل: يكونون منطرحين في أسواق اورشليم من جراء الجوع والموت وليس من يدفنهم هم ونساءهم وأولادهم، فيلقي عليهم شرّهم.

أما في البرية، فكنت تجد من يقتلون في السيف، وإذا دخلت قرية



تجد المعذبين من الجوع، وفي المدن الوباء إذ كانوا كالجراد يموتون. فتردد الناس في دخول المدن خوفاً من السلطان والأمراض والوباء، فشرع البعض يهجمون على الناس ويقطعون الطرق وينهبون العابرين ويسلبونهم وأحياناً يقتلونهم، وكل ذلك طمعاً بالحصول على الذهب والفضة، وإلى جانب ذلك كانوا يستجدون الخبز، حتى ازداد عدد الموتى والقتلى فوق الحد، من أجل الحنطة أو الطحين الذي كان يحمله البعض إلى نسويه فكانوا لأجل حفنة من الطحين أو خمسة ارغفة يسكنون دم الأبرياء. فكثر نهب القرى وقطع الطرق على الناس والسالكين بها فيدخلون إلى المدن ومنظرهم أخضر كالنبات (الحشيش) فيبيعوا ما عندهم ويشترون الخبز إذ كانوا يأكلون بلا قياس حتى إن بعضهم كانوا يثلون إلى حافة الموت للشراهة التي أصابتهم. ومنهم من يتناول الخبز بيده وما أن يأكله حتى يسودّ لونه كالشعر ويسقط إلى الوراء وقد فارق الحياة. وقد حيرت هذه الحالة الكثيرين إذ مات فيها الكثيرون، ولم يكن يقترب أحد منهم كي يدفنوهم في ذلك اليوم.

وعلى أي حال، فإن الله لم يغفل المساكين إذ حلّت عليهم نعمته وعمّت رحمته إذ حرّك قلوب المؤمنين بالمحبة والغيرة للعطف على المصابين بالداء الوبيل والمتروكين في الأسواق وقد نتنت... وفي أماكن أخرى أناس يئنون وهم في لنزاع الأخير. فتغيّرت الأحوال إذ قبل زمن قصير كان الناس يبتعدون عنهم وتتقزز نفوسهم أما الآن فصاروا باجتهاد كبير يهتمون ويعتنون ولاسيما الناس العظماء ذوي المكانة والمنزلة إذ شرعوا بإكرام الموتى ويدفنونهم باحترام ولياقة فيجلبون لهم الثياب والنعش ويخرجون بهم إلى المقبرة لوضعهم في مثواهم الأخير وسط الصلوات والمزامير على حسب عادة المسيحيين وكما هي العادة الجارية.



ثم شرعوا يجمعون الذين في الأسواق والمعذبين من جراء العطش والجوع ويأخذونهم إلى الهياكل، وعيّنوا اناساً لخدمتهم، ثم بدأوا بجمع التبرعات كلّ بحسب اقتداره وطاقته من أجل المصاريف لهؤلاء المعوّزين.

وهكذا بسبب شدة الضيق تساوى الجميع فأضحى الأغنياء متسولين وكذلك أصحاب النقود والذين يتنعمون بالطعام والبذخ وأصبحوا منبوذين في الأسواق، والذين كانوا يلبسون الحرائر الآن يضطجعون على المزابل... وقد قال أرميا النبي: إن أنظارهم أظلمت وأضحت سواداً حتى إن منظرهم تغيّر ولم يعد يعرفون بالأسواق، يبس جلدهم على عظمهم ويبس كالعصا، إن قتلى السيف أفضل من قتلى الجوع، وهم يزحفون كالمطعونين وألقوا بأنفسهم في الحقل.

هكذا أيضاً المرضى والمعذبين، كانوا يجمعونهم من الأسواق والاموات منهم يدفنونهم. ففتك ذلك الغضب بسكان المدن وأصبحوا كلهم سواء. إذ أصيبوا جميعهم، الكبار والصغار والأطفال والشيوخ والشباب والشابات إلى حد أنه إذا دخلت عشرين داراً، بالكاد تجد فيها واحداً يتمكن أن يناول الماء لرفيقه، بل كانوا كالموتى يفترشون الأرض وواحدهم لا يميز المضر من المفيد، وكما قلنا آنفاً، لم يكن دار إلّا وفيه ميت، والآن نقول لم يبق بيت إلّا وفيه مريض وكما قال أرميا: إن لسان الطفل التصق بسقف فمه من العطش، الأطفال طلبوا الخبز وليس من يعطيهم. وإذا ما (يصيب) من البيت الواحد شخص أو اثنان، كانوا يواجهون الجوع والقلق والضيق أكثر من المرضى حيث لم يكن من يخبز لم الخبز كما أن المرضى كانوا يعانون من ذات الألم من الجوع والعطش لانه لم يكن من يوزع لهم الماء أو الطعام، وهكذا كان يومياً جنازة أو جنازتين وحتى ثلاث، الأب والأبن والأم وابنتها أو آخرين سوية. ويصادف أن



يكون الأخوان كلّ في جانب من جوانب المدينة، فتلتقي الجنازتان مع بعضهما في القبر ويوضعان الواحد فوق الآخر، وهذه الحالة صادفت كثيراً إذ يكون الأخوان يعيشان الواحد في الجانب الشرقي والاخر في الجانب الغربي أو بالعكس وكثير من رؤساء المدينة آمد ونبلاؤها ورؤساء بيوتها وجمع كهنة كنيستها ماتوا بهذا الوباء الذي استمر فترة ثم بدا يتناقص إلى أن انتهى من القرى والمدن ومن ثم الكورة كلها.

وهنا تمت كلمة أشعيا: شربتِ من يد الربّ كاس غضبه وليس لكِ مسلياً... مع جميع أبنائكِ، ولا يوجد من يمسك بيدها من كلّ الأولاد الذين ربيتهم. اثنتين وصلتك... فعلى من تصعب عليك السلب أو المرض أو الجوع أو السيف، فمن ذا يسليك، أولادك يتوجعون وينامون في رؤوس كلّ الأسواق، كالسلق المضروب بالوجع، مملوئين من غضب الربّ إلهك مثل السلق في الجليد، هكذا أصبح لون الذين نجوا من هذا الوباء. وجميعهم أصبحوا صلعاً إذ سقط شعر رؤوسهم، كما أنه لم يعد يُعرف الكاهن من الراهب من ثيابهم ولا أحد يفرق بين الكاهن والعلماني لأن جميعهم أضحوا محلوقين بيد الربّ، حتى إن نظر أعينهم فقدوه وكذا السمع. كما أن قوتهم لم تعد إليهم إلّا بعد زمن طويل وكلما كان يشتد الحر، كان يشتد الحر، كان المرض يقسو.

ولما اقتربت أيام الحصاد في بلاد العرب، اجتمع كلّ الشعب في الشمال حتى الغرباء وانحدروا جميعهم إلى الحصاد ليشبعوا الخبز، فقصد حقول الحصاد النساء والخدّام (الأطفال) بحسب العادة عند الشماليين الذين كانوا يرافقون أطفالهم معهم إلى الحصاد، وهكذا نزل الشيوخ والأطفال والنساء والشباب، ولما نزلوا وأكلوا الخبز أخطؤوا إذ وقعوا في أوجاع مختلفة، فامتلأت منهم كلّ الطرق والروابي والسهول والمدن والقرى، يحصدهم الموت كالجراد.



أما الأجرة فلم يكن سوى الخبز الذي يأكلونه مجبولاً بعرق الجبين وكثير منهم كانوا يخرجون إلى الحقل طمعاً بأكل الخبز ويشبعوا فيسقطون ويموتون، إذ كانوا يخرجون للحصاد عشرين فيعود في نهاية النهار خمسة. ولما علم أصحاب الحصاد بهذا الأمر لم يعد يسمحوا بدخول الحقل إلّا الذي منظره حسن وجسمه قوي معتدل. كما كانوا يعطون للفعلة خمسة فلوس كأجرة يومية ومن ثم أصبحت عشرة فلوس إلى أن أكمل أرباب الحصاد حصادهم، القساة القلب والغليظي الرقبة، إذ لم يكونوا يحنون على هؤلاء المساكين وإن كان بالخبز اليابس فضربهم الربّ لسوء تصرّفهم وإرادتهم الشريرة كما سنبين...

فصل في سرقة القبور وتعرية الموتى

أشار أرميا النبي إلى سرقة القبور وتبذير عظام الموتى وليس من يجمعها، إنما تبقى كالزبل على وجه الأرض. قال النبي: يكون في ذلك الزمن يقول الربّ، يخرجون عظام ملوك يهوذا وعظام عظمائهم، وعظام كهنتهم وعظام انبيائهم وعظام سكان اورشليم من قبورهم... ويفرشونها أمام الشمس والقمر وكل عناصر السماء التي أحبوها وعبدوها وتبعوها واستعانوا بها وسجدوا لها، فلا يُكنسون ولا يُدفنون لكنهم يكونون كالزبل على وجه الأرض.

أما نحن فقد جاهد الشيطان في سبيل ايقاعنا بفخه لكثرة خطيانا عبر أجيال بعيدة حتى بلغ بالناس الأمر أن يفتحوا قبور موتاهم ويذروا عظامهم بلا احترام، كانوا كذلك الرجل الذي يخرج التبن العنيق ليذريه خارجاً، هكذا كانوا يخرجون العظام من القبور ويلقونها خارجاً بحثاً عن غاياتهم الفاسدة في العثور عن الفضة والذهب ولذا لم يكن يعيدون تلك العظام إلى اماكنها ولا يخافون الله رغم توبيخ الغيورين وزجرهم إياهم



بسبب الإثم والنفاق هذا الذي يفعلونه، قائلين: ماذا أنتم فاعلون، وماذا ستجنون؟؟ فيردّون عليهم، إننا نرغب بالمأثورات التاريخية والأثرية، وبذا كانوا يتمسكون بكلام الشيطان دليلهم ومعلمهم قائلين إننا وجدنا ما كنا نتحقق لأجله، ففلان وجد كذا وكذا مراود ولجام الخيل وعقود الذهب. والقرية الفلانية وجد سكانها كذا ألوفاً من الذهب وبمثل هذه المبالغات المغرية كان الشيطان يصوّرها لهم تغطية لفشلهم، وإذا صادف وإن شخصاً عثر على مرودة من نحاس أو ركاب الفرس من النحاس أيضاً، كان الأمر هذا يغريهم بتخيلات الأبالسة الذين كانوا يصورون لهم كلّ الأمور. وهكذا حقق الشيطان حلمه بأولئك المؤمنين الذين لم يستطع من ايقاعهم في تجاربه في حياتهم على الأرض لإيمانهم القوي وعبادتهم الخالصة فانتقم من عظامهم التي لم يتكرها هادئة في قبورها فجنّد جنوده لأن يفتحوا القبور ويذرون العظام الصالحة.

ومن أجل فتح القبور وتذرية العظام انتشر بالناس الأمراض المختلفة وتمّ ما كتب بالكتاب القائل: عندما تفتح القبور تنتشر أوبئة كثيرة بين الناس في المدن. وهكذا انتشرت أيضاً فتنة حفر القبور حتى الحديثة منها وتعرية المدفونين من الثياب وتركها عارية من دون دفنها ثانية وكير ما شوهد على سرّاق القبور ثياب الموتى، مما حمل الناس من استئجار حراسٍ لحراسة المدفونين نهاراً وليلاً لئلا يطمع السرّاق في أحذيتهم أو ثيابهم أو الزينة التي كانت توضع معهم قبل أن يسري فيها الانحلال وتتفسخ، ولذا كان اليهود والمسلمين والمسيحيين يطلون ما يدفن مع الميت بالقطران لئلا تبلى... وكان الحراس يمكثون في حراسة القبور ريثما تمر فترة على المدفونين يتأكدوا بها من تفسخ الجثث مع ما يوضع معها.

هكذا بلغت بالناس الجسارة حتى إن اللصوص كانوا يتباهون



بارتداء ثياب المدفونين والتزين بالزينة التي يستخرجونها من القبور مثل المناديل المنقوشة والعقود (المغشوشة) وغيرها...

بهذا تحقق ما قيل عن فتح القبور وسرقة ثياب الموتى وبذا ارتكبنا جميع الشرور والآثام والنفاق، ونشكر الربّ على كلّ مراحمه غير المحدودة علينا نحن الضالين.

فصل عن الوباء والحيوانات الوحشية التي ظهرت بعده

في هذه الأيام سقطنا في النفاق والإثم، وارتكبنا كلّ الأعمال الممقوتة الكذب والخطف والشتم والنهب والهجو والزنا والدعارة والسرقة وشهادة الزور والقتل والنميمة والصاق التهم بعضنا بالبعض، وبذا أحاطتنا الشرور من كلّ الجوانب، لذا ينبغي ممارسة التوبة والعودة إلى الربّ قبل أن ينتقم منا كما قال النبي: سأجمع عليهم الشرور كلها، وسِهامي تأكل فيهم، يتوجعون من الجوع فيسلمونهم إلى أرواح نجسة، والطيور والحيوانات الوحشية، نكثر الخراب في منازلهم وكذلك المخاوف.

وقال أشعيا النبي: يُتركون جميعهم لطيور الجبال ولحيوانات الأرض وأجمع عليهم الطير وحيوانات الأرض تغضب عليهم.

وقال حبقوق: شبعت من المذمة عوض العزّ، فاشرب إذن أنت وتوجع. ويرجع عليك كاس يمين الربّ، والمذمّة مكان عزّك وإن اختطاف لبنان يقع عليك، وسلب الحيوانات تقلقك من دم الإنسان والتوجع الذي على الأرض والمدينة وكل سكانها.

وقال أرميا: أخرجهم من أمام وجهي ويخرجون، وإن قالوا لك إلى اين تخرج، قل لهم هكذا. قال الربّ من يموت فإلى الموت والخراب



إلى الخراب والجوع إلى الجوع والسلب إلى السلب. وأقسم على أربع ضربات قال الربّ: السيف للقتل والكلاب للسحل، وطير السماء، وحيوانات الأرض للأكل والخبال وأتركهم في الفزع والخوف.

وقال أيضاً، إذ خرجت إلى البرية، فتجد المقتولين في السيف وإن دخلت إلى القرية تجد المتوجعين من الجوع، وإن البلايا كثيرة بالأعمال والعسر والجوع والأوجاع المختلفة والموت على البشر، تركوا بيوتهم وصعدوا فجلسوا في الجبال والوديان، وهناك يبيدون كالجراد من الجوع والموت والبرد وتأكلهم الحيوانات لأنه ليس من يدفنهم.

فانتشر الموت في سائر القرى والمدن إلى حد أنه كان من بعض الدور أخرجوا أربعين أو خمسين شخصاً، وأصبحت خالية خاوية، فمثلًا من الموصل كان يخرج منها في اليوم الواحد ألف جنازة وكذلك من القرى وسائر المدن، فمات عظماء القوم جميعهم من الأرض، كما أباد الموت سائر الكهنة في المدن والقرى، فمات في دير قرتمين خمس وتسعون نفساً وأكثرهم معروفون، ومن دير مار صليبا[197] جميع رؤسائه، فأضحت أغلب العمارات والقرى والمدن خاوية خالية.

وترافق مع هذا الوباء، أن حيوانات مخيفة مفترسة ظهرت في البلاد كانت لا تخاف من أي شيء ولا تفرّ أمام قوة الإنسان، افترست عدداً كبيراً من الناس. هذه الحيوانات كانت تشبه الدببة، إلّا أنها تختلف عنها قليلاً، لها ذيول طويلة وقوية، آذانها طويلة كآذان الفَرَس أو الخنزير ولها شعر في وسط ظهرها كشعر الخنازير منتصباً. فهذا الحيوان الغريب فتك

(197) دير صليبا بنواحي دمشق مقابل باب الفراديس ويعرف بدير خالد أيضاً لأن خالد بن الوليد لما نزل محاصراً لدمشق كان نزوله به. (**معجم البلدان**، ج 4، ص 151).



بالناس وخاصة في منطقة طور عبدين. وأخبرنا بعض الناس أنه من قرية واحدة أكلت مائة شخص. ومن قرى أخرى بلغ عدد الذين أكلتهم هذه الحيوانات نحو عشرين وأربعين وخمسين وهكذا. والناس لم يتمكنوا من طردها أو إبعادها، حتى ولا قتل واحدة منها. كما أنه لم تكن تهرب من الإنسان، وإذا ما حاول بعضهم في مطاردتها، فنهم كانوا يجهدون عبثا، لا بل كانوا يخافون منها ويهابون شراستها فلا يواصلون ملاحقتها ولا هي تهرب أمامهم، إنما كانت ترتد راجعة إليهم فيفزعون وترتج اياديهم ومفاصلهم حتى يسقط السلاح من أياديهم، فتقفز عليهم وتأكلهم...

وقد رأيناها تدخل البيوت وتفترس الأطفال وليس من يعترضها، كما كانت تصعد في الليالي إلى السطوح العالية وتفترس الأطفال من بين ذويهم وتنزل، والكلاب لم تكن تنبح على واحدة منها.

ولهذا السبب أصاب الأرض ضيق شديد أكثر مما سبق وذكرنا، حتى إن الناس لم يعد يتمكنون على السير اثنين أو ثلاثة إلّا جماعات جماعات. كما أن البهائم والمواشي لم تعد ترعى في المراعي الخارجية، وذلك لان هذه الحيوانات إذا ما دخلت إلى قطيع من الماعز أو الغنم فانها لم تكن تفترس سوى الراعي فقط.

من أجل كلّ ما جرى، يمكننا أن نقول إن سبب هذا العذاب الأليم الذي ألمّ بنا، أرسله الله علينا عقاباً عن خطايانا الجسيمة التي ارتكبناها، والتي باستحقاقنا حلّ بنا الجوع والمرض والموت إضافة على السبي والنهب والطرد من بلد إلى آخر، كلّ ذلك حلّ بالبشر الذين كانت تأكل جثثهم طيور السماء، والحيوانات الوحشية تقطع عليهم الطرق، حيث كانت تترك الماشية وتطمع بالناس.



الحيوانات الوحشية التي ذكرناها سابقاً، عبرت إلى منطقة ارزن وعاثوا بها خراباً وكذلك في منطقة ميافرقاط وفي جبل العشطان، أما في آمد فكانت الأضرار قليلة.

ومع هذا كلّه كان غضب الربّ علينا عظيماً ولم يرفعه عنا لأعمالنا الشريرة، إنما كنا قد انغمسنا في الخطايا والآثام إلى أعماق الهاوية ولذا زاد علينا الربّ التأديب فوق التعذيب...................... فكانوا يقبضون على العرب والمسيحيين بسبب الميراث والمعاملة القاسية التي كانوا يتعاملون معهم بها، فكانوا لا يعطون لأقرباء الشخص كما هو مكتوب في شرع الملوك إلّا ما هم يقدّرونه حيث كانوا لا يخصون بالميراث سوى الابن مع أبيه، والأب لابن عمه، والعم لابن أخيه، وابن الأخ لعمه. وأما في حالات الضيق فهؤلاء أيضاً يحرمون. قال يوئيل النبي: أسنانه كأسنان الأسد، وأنيابه كأنياب ابن الأسد، جعل كرمي خراباً، وتينتي يابسة وابيضت أغصانها. هكذا جرى لمن طلب وأخذ والبقية أخذها الأمير (موظف الميراث أو حاجب المراث) فسلب الناس ابيضت أغصانهم في قلة الثمر.

الخبر السادس: عن موت أمير آمد، وعن الوصية التي كتب والراحة للمسجونين في آمد

لعلّ المجال ضيّق للحديث عن الشرور التي وقعت خلال هذه السنة، ذلك أن جميع المدن كانت تعاني من الضيق المادي والأمني بسبب بقاء رأس رئيس سيد الخراب في البلاد. إن أول بلية حلّت - بحسب أشعيا النبي - أنه رأى شرورهم بعين النبوة وعرف مآثمهم أكثر منّا ويتفق معه رفيقه أرميا النبي، وهكذا؛ من فم هذين الشاهدين تثبت كلّ كلمة. فالقرية القوية هزّها الاضطراب، وسادتها الضوضاء، لأن



القتلى ليسوا مقتولين بالسيف ولا هم ضحايا معركة. جميع حكامها ارتعشوا وكُتّفوا جراء هذا الغضب وابتعدوا هاربين، ولأجل هذا قلت: اتركوني كي أبكي على حزن ابنة شعبي، بسبب ما حلّ في ذلك الوقت من البكاء والقلق والحزن يدعو الربّ القوي في هذا اليوم إلى البكاء والحزن واللكم ولبس المسوح - ذكرها أرميا النبي -. إن صراخ ابنة شعبي من الأرض البعيدة بسبب المصيبة التي أصابتها أحزنني وحيّرني تأخّر شفائها. من الذي يعطيني رأس ماء صرت ينبوع دموع وبكيت الليل والنهار على انكسار ابنة شعبي. ما الذي جعلني أبقى وأنا في البرية عرضة لعابري الطريق، وأترك شعبي وأرحل عنهم، لأن جميعهم زناة وسفلة، ولا يعرفون الربّ، يطلقون ألسنتهم كنبال القوس، لتكثر في الأرض شهادة الزور فالشر يخرج الشر.

كلّ هذه الشرور وأكثر حلّت في مدينة آمد والجزيرة تلك السنة، على يد ذلك العامل (الحاكم) الأثيم القاسي الذي استلم السلطة فيها، وهو رجل من قلينقوس اسمه مبذول، منافق قاسٍ لا يعرف الله ولا يخجل من الناس في حركاته وتصرفاته ولهذا أسموه «مبذول»...

(في الصفحة التالية من الكتاب الأصل أجوبة كثيرة لا يمكن قراءتها لأنها تالفة. جاء فيها ذكر هذا المنافق والبلايا الكثيرة التي أصابت بسببه الناس إذ نهبهم وسلبهم حتى اليتامى والأرامل والمساكين في مدينة آمد وضواحيها وفي جبل أشوما وفي أرض شميشاط. وكالعادة يستشهد الكاتب هنا بأقوال الأنبياء).

لم يستطع الناس المرور أو الوصول إلى الدار بسبب رائحة الجيفة الكريهة التي كانت تفوح من ذلك البيت وكانت تُشمّ من بعد طويل، وقد دامت الرائحة هناك يوماً أو يومين.

وهنا نستطيع أن نهتف مع أشعيا النبي: أين تجتمع البنات اللواتي



يتركونهن، اجمعوا كلّ الأرض ولن تجدوا من يرفع جناحه أو يفتح فمه ويتكلم. ليجتمع المسلمون والمسيحيون ولاسيما العظماء والأقطاب، أصحاب الدور والغرباء، وليأتِ داود النبي ليرى هل نُجّس الهيكل المقدّس أم جعلوه محلاً للخلاء يشبه بيت البعير.

ويقول: اللهم قد دخل الشعوب على هيكلك (ميراثك) ونجسوا هيكلك المقدّس، هكذا فعلوا بكنيستك المقدّسة وجعلوها بيتاً خرباً للخلاء، وصعدت منها رائحة كريهة بدل رائحة البخور. وأشار أشعيا النبي بقوله:... إن الأرض غارقة في الحزن وآثمٌ كلّ سكانها. ناحت وجلست كامرأة مسكينة لأن جميع الموائد امتلأت... كما قال لهم النبي الذي يخبّر بفم الربّ: إن هذه هي راحتي أُريح المتعذبين، ولكنهم لا يسمعونني. وكانت كلمة الربّ عندهم كالقيء على القيء وقيء فوق قيء. لذا تراهم وجميع موائدهم مملوءة من قيئهم، وأي دمع أو أي ألم يكفي، فالناس الأغنياء يمسكون بأيديهم الخبز، ويأكلون وأمامهم أكوام على أكوام من الزبل، وآخرون يتنجسون أمامهم لضيق المكان وعن هؤلاء يشير يوئيل النبي صارخاً: الكهنة لبسوا المسوح وناحوا، خدام المذبح يصرخون بالعويل، ادخلوا أيّها العبيد، والبسوا المسوح وناموا، لا لانقطاع السميد والقربان ولكن لأن الكنيسة أصبحت مرذولة ومطلقة من الربّ بيد الغرباء.

وفي كلّ هذا الضيق الكبير كان الناس يعانون من هذا المنافق الذي كتب كتاباً في رأس السنة يشمل تعديلاً في أسماء الناس، وكلّ من لم يجد له اسماً أو لم يكن (مختوماً) على يده، فرضت عليه ضريبة قيمتها ستون درهماً، وشمل هذا التعديل المساكين والفقراء فامتلأت بهم السجون، يتعذبون من جور الجوع والرائحة الكريهة، لأنهم لا يستطيعون دفع الضريبة.



كذلك ألقي القبض على الأكابر والعظماء من أجل أبنائهم وإخوتهم وأبناء عشيرتهم غير المدوّنة أسماؤهم في الكتاب المعدّل. كل هذا ولم يسلم حتى ذوو الأسماء المدونة من شرّه وأذاه.

هذا العامل الأثيم اختار له أناساً سكارى وعاهرين وجعلهم له رفاقاً وأعواناً، فلم ينجُ أحد قط من أيديهم الدنسة، إذ كانوا يتّهمون الكبار ويسرقون ما يستطيعون منهم، ويفرضون عليهم غرامات بحجج وتهم مزورة وملفّقة. وبهذا الأسلوب قبض على أغلب أبناء البلد وأرغمهم على أن يقيموا معه العهد والصلح. وعاث فساداً عظيم في البلاد وجلد عظماء المدن حتى الموت. وقتل وألقى القبض على كلّ إنسان كما شاء وكيفما اتفق. ولم يستطع أحد أن يمنعه أو يسأله لماذا فعلت هذا وهذا. ورغم أنه نال منهم كل أراد لم يعدل عن شرّه فاستمر بفرض ضرائب جديدة والإساءة بحجج متنوعة، فيخرج رجاله إلى الطرقات ويقبضون على العابرين ويسلبونهم ما في حوزتهم من مواد أو أموال.

قد شاء الله، وهو وليّ الرحمة، أن يكون هذا الضيق في شهر أيار/ مايو، فكان الناس يختبئون في الجبال كالحمام، ويتخفّون في الوديان، وانقطعت جميع الطرق من القادمين والذاهبين إذ كانت جميع الأقاليم تحت سطوة الغضب الجاثم عليها، وبسببه هلك الناس من الجوع إذ كانوا يخافون الخروج إلى القرى أو المدن. وإذا كان لأحدهم حاجة ما فيلجأ لبيعها في المدينة ويشتري بثمنها خبزاً، فإذا ما اقترب من المدينة كان يرسل أمامه النساء ليدخلن إلى المدينة لقضاء حاجته عوضاً عنه. أما الرجال فكانوا يختبئون في المزارع منتظرين من أرسلوهم، وكان بعضهم ينتظر يومين أو ثلاثة أو أربعة وأحياناً يمتد الانتظار من يوم الأحد إلى يوم الأحد حتى هلك بعضهم من الجوع.



وكل ما يمكن أن نقوله في هذا الزمان أن السيف والخوف كان يتربص الناس في الخارج، والجوع والفقر في بيوتهم من الداخل.

إن هذا الغضب، عمّ أهالي تلّلا وأهالي الرُّها والحرّانين بشدّة. وقد قال النبي: إن هذا هذه هي اللعنة التي ظهرت على وجه الأرض كلّها.

كذلك فإن أهالي نصيبين قد وصل إليهم هذا الغضب العاتي فعانوا منه كثيراً فقد فرض الحاكم وموظفوه على أهالي المدينة والقرى ضريبة الجزية بأضعاف مضاعفة، ولم يشبعهم شيء، فألقوا القبض على الناس المتخلفين عن الدفع وأرسلوهم إلى السجن في الموصل وسلسلوهم بالحديد وأقسم حاكمهم ألا يخرجهم من السجن ما دام حيّاً على الأرض، متجاهلاً نداءاتهم واستغاثاتهم وطلبهم العفو، وهكذا مكثوا في السجن إلى أن سمح الربّ بالخلاص، ونال المتجبّر هذا جزاءه وما يستحق من عقاب. وهكذا كان الزمان يتأرجح من سوء إلى أسوأ ومن شرّ إلى أشرّ.

الخبر العاشر عن مأموري الأعشار والضرائب

قيل: إذا خرجنا من عقر الحية، خرج علينا التنين، وفراخه الطائرة والسامة. وإن الحية الرقطاء أخطر من التنين وأشرّ. فإن الحاكم الشرير، أرسل جباة ومأمورين إلى الأرض كلها، الذين دخلوا المدينة، فراحوا يسجلون على الناس الضرائب من دون رحمة، حتى إن المرء الذي لا يملك حنطة أو شعيراً أو أي غلّة، بل بالكاد يشتري احتياجاته من السوق سجلوا عليه ألف غرفة، وآخر ألفين وبعضهم سُجل عليم خمسة آلاف أو عشرة آلاف، حتى إن البعض سجلوا عليهم الأربعين أو الخمسين ألف غرفة، فقد كانوا يسجلون من دون الدخول إلى البيت ومعاينة المحصول، إنما كانوا يكتبون بما يشير الشيطان عليم. كذلك سجلوا الضرائب على



أصحاب الحوانيت، والرحى، والبقالين الجوّالين والتجار في السوق، من دون رحمة أو شفقة، حتى بلغ الأمر بالبعض أنه لو باع الفرد ما عنده في الدكان (الحانوت) مثلاً لا يساوي نصف ما يطلبون منه من ضريبة، وإضافة إلى هذا الضيق الشديد الذي وقع فيه الناس من ضريبة العشر والجزية والخراج، فإن مأمور الضرائب كان لصاً فسبى وسرق ونهب الداخلين والخارجين.

وهكذا يمكننا أن نقول إن الذي تركه الجراد الطائر أكله الزحّاف والذي بقي منه أكله العصفور، والذي بقي منه أكله الماشوط (الجندب) وما بقي أخذه مأمور البقايا وما زاد عن هذا أخذه العشّار والذي تركه هذا أخذه مأمور الضرائب. ومن يخاف من الصوت فرّ وسقط في الحفرة ومن صعد من الحفرة وقع في الفخ ومن نجا من الفخ أكلته حيوانات البرية.

عن المأمور الثاني للحظيرة

لما مات خليل بن ردين مأمور الحظائر الذي ذكرناه سابقاً، وعُيّن مكانه أبو عون، الذي شنّ حرباً على عمال ابن مصعب وطردهم من المدينة. فأرسل الملك رجلاً فارسياً قاسياً ومتعصباً وسافك دم، فزعزع هذا الرجل الأرض وأرعبها ودخل معه جميع المسلمين من سكان المنطقة، وفعل ما كان يفعله الفرس في قوانينهم القديمة، التي كانت تسمح بعقوبة السجن الطويل من دون رحمة. وشرع يجلد ويضرب ويقتل ويشنق، فحلّ ضيق عسير وصل إلى المسيحيين، بسبب ما كان يفرضه عليهم في تسديد مصاريف الخيل وغيرها من مواشيه من علف ونفقات. كذلك مصاريف جنوده الذين كانوا يحلّون على دور السكان ويأخذون منهم علف الخيل ومصاريف الجند، وقد قال النبي في هذا المقام: «جميعهم يأتون للنهب».



نعم، فكان هذا العاتي يقدّم له برجل يسبقه ليخبر بقدومه، كيما يستعد صاحب الدار لاستقباله ويهيئ له المكان ويرسل له الدواب بالسخرة وذلك قبل مجيئه بعشرين يوماً إلى المدينة أو القرية، فيحلّ الخراب والدمار بعد تلك الزيارة، إذ يتفشى الشرّ والخطف، فيخرج رجاله إلى الطرق والقرى حيث يجمعون البغال والخيول والحمير ويودعونها وراء الأسوار بحجة إضرام النار بها ليدفع صاحبها درهمين عن بغله أو فرسه فيطلقون رباطه، وهكذا كانت تستمر العملية يوماً بعد يوم، يخطفون الخيول والبغال والحمير اليوم ويطلقونها في الغد وتستمر الحالة في الخانات والبيوت والحظائر. وهكذا تفشّوا في الإقليم كلّه، واخذوا بذلك مبالغ ضخمة، إذ كانوا قد فرضوا على كلّ رأس درهماً أو درهمين عن الحمار والبغل والحصان، بعد أن جمعوا حيوانات المنطقة كلّها من الطرقات وحقول العمل والدور والأسواق وسجنوها في الساحات والأحواش. والناس ضاقت بهم وبمصاريف دوابهم. وبلغ بهم الأمر أن قبضوا على دواب عابري السبيل والتجار والمساكين أياماً وأشهراً كثيرة ولم يطلقوها حتى إنهم باعوها لأصحابها، ومن ثم باعها أصحابها ثانية لأجل المصاريف. وبذلك شهد الكتاب بقوله: إنهم أزيد شراسة من ذئاب المساء، ويطيرون كالنسر الجائع... وقال أيضاً: إنهم أتوا للخطف جميعهم...

ولما انتشر هذا الخبر في البلاد لزم جميع السكان الخوف والفزع من هذا الحاكم الذي باشر عمله بالقتل والشنق من دون رحمة وكل مدينة دخلها كان يشنق فيها اثنين أو ثلاثة وحتى خمسة ولذا كان الناس يرتعدون خوفاً منه وكانوا يقولون.............. القتلى وقطاع الطرق هو يهلك ونحن نعلم............ كثيرين إلّا أناساً من الموصل الذين يدعون الغيورين من الحضر والموصل، فمرّ بكل المداجن السفلى من



الجزيرة وكان يقتل ويضرب ويشنق، فوصل إلى آمد وأقام فيها وهو.....

الراهب الزوقنيني

المؤرّخ سنة 775

سنة 775م، ألف راهب فاضل من دير زوقنين القريب من آمد تاريخاً كبيراً في مجلدين منذ الخلقة حتى زمانه. ونقل عن المؤرّخين القدماء إلى يوحنا الآسيوي سنة 587. وبعد ذلك وقف على بعض من الأخبار، دوّنها ولم يدقق في ضبط السنين ولما قارب زمانه سنة 720 بسّط القول بما كان فيه من الأحداث الدينية والمدنية والكوائن الطبيعية، فأورد وقائع مفصّلة تتعلق بآخر أيام الدولة الأموية وصدر الدولة العباسية التي هي زمان المهدي. وتفرّد بكثير منها، فلا تجده في أي تاريخ كان سريانياً أو يونانياً أو عربياً كاشفاً الستار عن النكبات التي أحاطت بالأهالي في بلاد الجزيرة واضطراب حبل الأمن بنوع خاصّ، فاستوعبت أحداثه الأخيرة مئتي صفحة فقط. وكان إقدامه على التأليف باقتراح كوركيس خورفسقفوس آمد وأوتيليوس رئيس ديره ولعازر الزائر وانسطاس والرهبان قاطبة.

وفي سنة 1895 نشر القس يوحنا شابو الجزء الرابع منه أي نصف المجلد الثاني منقولاً إلى الفرنسية ومحله لمار ديونوسيوس التلمحري بطريرك أنطاكيا (+ 845) معتمداً على نسخة قديمة في خزانة الفاتيكان (عدد 172) كتبت قبل سنة 932م التي حملت فيها إلى دير السريان. وكان الأولى به وبمن نقل عنه أن يفقهوا أن لغة التلمحري ليست من إنشاء هذا الراهب الذي لا تخلو لغته من ضعف وأخطاء وألفاظ دخيلة، وقد قعد به طبعه من مجاراة البلغاء دع عنك اضطراب السنين، وإن التلمحري لم يتخرج في دير زوقنين بل في دير قنسرين وإن لم يؤرّخ إلى سنة 775



بل حتى سنة 843. ثم انتبه المستشرقون أنه تأليف كاتب مجهول. وَهِم فرنسوا نو خطأ أنه من إنشاء الراهب يشوع العمودي نفسه. والصواب ما ذكرناه في أعلاه، نشره شابور وفي مجلدين وقعا في 732 صفحة بالقطع الكبير سنة 1927 – 1933 وأسماه التاريخ المجهول ونقله إلى اللاتينية.

(**اللؤلؤ المنشور**، رقم 137 ص 320 – 321).

الراهب الزوقنيني

المؤرّخ خيونيسيون التلمحري

في سنة 775 قام راهب من دير زوقنين الواقع بالقرب من آمد (ديار بكر) بوضع مجموعة تاريخية تتناول الأحداث منذ الخلقة حتى زمان المؤلف غير أن اسم المؤلف ضاع بضياع الصفحات الأولى من المخطوطة. فنسبه السمعاني خطأ إلى ديونيوس التلمحري إلّا أن النقد الصحيح دفع العالمين (نو) و(نولكه) إلى القول إنه من وضع راهب عاش إلى سنة 774 في دير زوقنين وإلى الفريادوط لعازر.

إن هذا التاريخ دوّن بغير اعتناء ولم يدقق بضبط السنين ولكنه يتضمن أخباراً عديدة غير معروفة من قبل. ويقسم إلى مجلّدين بأربعة أجزاء يمتد الجزء الأول منذ بدء العالم إلى حكم قسطنطين الكبير، ويعطي المؤلف فيه موجزاً لتاريخ أوسابيوس تتخلله مقتطفات من تاريخ يوليوس الأفريقاني وتاريخ الرُّها وغار الكنوز وأسطورة الإسكندر وأهل الكهف وكتب أخرى منحولة كثيرة. أما الجزء الثاني فيمتد من قسطنطين إلى زينون وقد استقاه المؤلف بكامله تقريباً من سقراطس وأكمله ببعض وثائق منقولة إلى السريانية مثل مرسوم الاتحاد (هينكوتيكون) وغيره. وأدخل المؤلف بين الجزء الثاني والثالث الأخبار الأخرى التي نسبت



قبلاً إلى يشوع العمودي. ويبتدئ الجزء الثالث من زينون ويتوقف عند يوستينس الثاني وهو ينقل حرفياً الجزء الثاني من التاريخ الكنسي الذي وضعه يوحنا الآسيوي أو الأفسسي والذي كان يتضمن وثائق مهمة منها رسالة سمعان الأرشمي. أما الجزء الرابع فهو عمل المؤلف الشخصي وجاء موجزاً من سنة 487 إلى سنة 705 ومطوّلاً للسنين التالية، وأورد فيه المؤلف وقائع تتعلق بأواخر الدولة الأموية وصدر الدولة العباسية إلى زمن المهدي، وبينما يتطرق إلى المصائب والنكبات التي ألمّت بالمسيحيين سنة 767 وسنة 775 يروي الأمور بإسهاب ممل. وقد نشر الأب يوحنا شابو الجزء الرابع منقولاً إلى الفرنسية سنة 1895 ونشر بعدئذ التاريخ كلّه بنصه الآرامي ثم بترجمته اللاتينية وذلك سنة 1927 – سنة 1933 في م. ك. م. ش وأسماه التاريخ المجهول أو المغمور.

أما إنشاء هذا الراهب الزوقنيني فحدّث عن رداءته ولا حرج حتى إن الأب شابو لا يتردد في مقدمة النص، الآرامي ص 1 بالقول إنه من الصعب أن نجد كاتباً آخر يجاريه في رداءة الإنشاء وركاكته وقد يُعزى ذلك إلى السنين المضطربة التي مرت على الكاتب وشعبه بعد منتصف القرن الثامن...

آلبير أبونا

أدب اللغة الآرامية

رقم 59 ص 276 – 381



التاريخ الزوقنيني المنحول

لديونوسيوس التلمحري

قبل دراسة مصادر هذا التاريخ، دراسة كرونولوجية تحليلية، أرى لزاماً عليّ أن أعرّف بهذا التاريخ وأقدّم وصفاً لمخطوطته الأصلية؛ ومكان العثور عليها، واختلاف العلماء في تحديد مؤلفه وشيوع نحله للبطريرك ديونوسيوس التلمحري المؤرّخ المشهور.

المخطوطة

جاء هذا التاريخ الكبير، في الأصل، في مخطوطة سريانية فريدة محفوظة في الخزانة الفاتيكانية تحت الرقم 162، ينقصها سبع ورقات (1 – 7)، وقد عثر على هذه الصفحات السبع العلّامة أوجين تيسران في المتحف البريطاني تحت العدد 14665.

تضم النسخة الفاتيكانية 173 طليحة من الرق، بقياس 240 × 153 ملم. ويلاحظ أن بعض هذه الرقوق كانت قد استعملت من قبل، ثم بشرت الكتابة الأولى، وعولجت الرقوق مرة أخرى، ودوّن عليها جزء كبير من هذا التاريخ وتشمل هذه الرقوق الصفحات (1-65, 67-120, 169, 170, 173).

قدّم تيسران وصفاً لهذه المخطوطة النادرة، عند قيامه بإعداد **الكتاب المقدّس**، العهد القديم، للنشر في روما عام 1911م. ولكن هناك وصفان آخران لهذه المخطوطة، أقدم عهداً من وصف تيسران، جاء الأول في الـ *Apographa Codidis Roma* كتبه المستشرق أوتو نولبرغ في أوبسالا عام 1848. وكتب الوصف الثاني الأب بول مارتان في باريس حوالي سنة 1876.



قرأ تولبرغ الصفحات (2-43) من المخطوطة قراءة جيدة، كما يبدو من ملاحظاته المدوّنة على هوامش هذا الجزء من المخطوطة. وتابع الأب مارتان قراءة الصفحات (44 – 154). وقد حفظت مسودات هذه الصفحات في خزانة المكتبة الوطنية في باريس تحت الرقم – 285) .284 Syr.)

ويرى العلّامة شابو أن الهوامش مكتوبة بقلم الرصاص، وأنها واضحة كلّ الوضوح، غير أنها لا تخلو من بعض الهفوات.

موطن المخطوطة

قدم السمعاني بهذه المخطوطة إلى مدينة روما في حدود سنة 1717م من برية الأسقيط. وزعم أنها كتبت في دير السيدة العذراء للسريان في مصر. ولكن الأرجح أن المخطوطة المذكورة كانت من جملة الكتب والمخطوطات النفسية التي حملها الراهب موسى النصيبيني (944–907 م) رئيس دير السريان في مصر، من بلاد الرافدين، في في أثناء رحلته من مصر إلى بغداد، التي طالت ست سنوات، وانتهت عام 932.

ووهم السمعاني بسبب قدم الرقوق، وعثوره على النسخة في مصر، أن الكتابة الأولى الممسوحة، على الرقوق كانت باللغة القبطية. إلّا أن العلّامتين ماي (Mai) وتولبرغ ورايت (Wright)، نقضا ما ذهب إليه السمعاني، بعد أن درسا هذه الرقوق دراسة متأنية، مثبتين أن الكتابة الأصلية تحت السريانية كانت يونانية من دون شك[198].

---

(198) مجلة المجمع العلمي العراقي، بغداد المجلد 8/ 1984. وانظر: يوسف حتى إسحق، التاريخ الزوقنيني المنحول الديونوسيوس التلمحري، ص 65.



ولعل تاريخ الانتهاء من كتابة المخطوطة واسم المؤلف كانا مدونين في مقدمة المخطوطة وخاتمتها كما هي الحال في أكثر الكتب السريانية، إلّا أنهما سقطا، بسبب تلف أصاب المخطوطة في صفحاتها الأولى والأخيرة. وتتوقف سلسلة الأحداث في المخطوطة عند سنة 1086 يونانية الموافق سنة 1581م (775هـ)، ولعلها سنة وفاة المؤلف.

ويمكن أن يُستشفّ مما بقي من المقدمة، ومن أسماء الأشخاص الذين أُهدي إليهم هذا الكتاب(199)، أن المخطوطة نقلت حوالي سنة 1087ي إبان حكم ليون الرابع الذي ابتدأ حكمه في أيلول/ سبتمبر عام (775هـ). وذهب الأب شابو إلى أن المخطوطة ليست نسخة المؤلف، بل نقلت عنها في مطلع القرن التاسع للميلاد.

وبالإمكان تقسيم محتويات هذا التاريخ على النحو التالي:

1- (ص 1 – 2) مقدمة تالفة، لا يقرأ منها غير الإهداء.

2- (ص 2 – 43) يضم هذا القسم أحداث الخليقة إلى فترة حكم الامبراطور قسطنطين. ويعتمد المؤلف في نقل أخبار هذه الحقبة على مؤلفات المؤرّخ أوسابيوس القيصري، ويوليوس الأفريقي، كما يدمج فيه جزءاً من تاريخ مدينة الرُّها. وكتاب **مغامرة الكنوز** و**سيرة الإسكندر المقدوني**، المنحولة لكاليسيثنيوس، وقصة أهل الكهف ومؤلفات يوسيفوس اليهودي.

3- (ص 44 – 64) يمتد هذا الجزء من حكم الامبراطور قسطنطين إلى فترة رئاسة ثاودوسيوس الثاني. وقد اقتفى المؤلف في ترتيب أحداث

---

(199) أهدى المؤلف تاريخه إلى الخرفسقوفوس كوركيس الآمدي ويوثاليوس رئيس دير زوقنيني ولعاز البريودوط (الزائر)، والراهب أنسطاسيوس وبقية رهبان الدير.



هذه الفترة خطى المؤلف سقراط في تاريخه الكنسي، كما استعان بتاريخ مواطنه يوحنا الآسيوي.

4- (ص 65 – 86) تناول المؤلف في هذا القسم الأحداث المريرة التي وقعت في منطقة الرُّها، وما والاها من الأصقاع، مقتبساً أخباره من تاريخ يشوع العمودي. وتضم هذه الحقبة أحداث اثنتي عشرة سنة من فترة حكم الامبراطور أنسطاسيوس أي من سنة 495 – 507م.

5- (ص 66). جددت هذه الصفحة في نهاية القرن التاسع على الأرجح، جددها راهب يدعى اليشع من دير زوقنين ويرى الأب شابو أن هذا التجديد يعتريه شيء من الخلل والارتباك ذلك لأن ما جاء في نهاية هذه الصفحة لا يتفق مع بداية الصفحة 67، لذا يعسر على الباحث التكن بما قد يكون حذفه مجدد هذه الصفحة، أو إضافة إلى النص، الأصلي.

6- (ص 86 – 121) يتناول الكاتب في هذا الجزء أحداث الحقبة الممتدة ما بين فترة حكم الامبراطور زينون وجستنيان. وينقل مجمل أخباره من تاريخ يوحنا الآسيوي الجزء الثاني والرسالة التي أرّخها شمعون الأرشمي عن الشهداء الحميريين.

7- (ص 121 – 173). يضم هذا القسم أحداث السنين الممتدة من حكم الامبراطور جستيان إلى نهاية عام 1086ي الموافقة لسنة 158 هـ.

يسوق المؤرّخ روايته من عام 898 – 1027 للإسكندر، أي فترة 130 سنة باختصار شديد يجعل القارئ يلهث من سرعة تتابع الأحداث، ثم لا يلبث أن يطنب في ذكر الشدائد والمحن التي اجتاحت بلاد ما بين النهرين. وقد اتكأ في روايته لهذه الحقبة على ما وقع له من وثائق وأسانيد مدونة اطّلع عليها بنفسه في أمهات خزائن الكتب المحفوظة



في مدينة الرُّها وملاطية وآمد ودير زوقنين وغيرها. إضافة إلى الروايات التي التقطها من أفواه شيوخه وأحداث وقعت في أيامه.

وكانت المخطوطة كما يرى الأب شابو حسنة الحظ، مقروءة على العموم، ولكنها مليئة بأخطاء لغوية وتصحيفات في أعلام الرجال والأمكنة ولاسيما في القسم الرابع منها. ذلك لافتقار الناسخ إلى معرفة دقيقة في علوم اللغة وجغرافية بلاد ما بين النهرين، وتاريخ شعوب المنطقة، وقد أحصى محقق هذه المخطوطة طائفة كبيرة من هذه الأخطاء وثبّتها في مقدمة النسخة المحققة، ونشرها عام 927 – 1933. وعن هذا التحقيق ترجمنا القسم الثاني من الكتاب، وهو القسم الذي يتناول أخبار الدولة العربية منذ مبعث الرسول الكريم وإلى وفاة الخليفة أبي جعفر المنصور.

وجد ناشرو المخطوطة الأوائل، مشقة كبرى في نشر كلّ أجزائها، وذلك لسقوط بعض الألفاظ، وصعوبة قراءة ما اختلط منها مع ألفاظ الكتابة الأولى الممسوحة من الرقّ لإعادة كتابة هذا التاريخ عليه. إضافة إلى تشقق الرقّ وانكسار بعض أجزائه. وقد التجأ الأب شابو عند تحقيقه لهذه المخطوطة إلى تصويبات العلامة تولبرغ ومارتان. واتكأ كذلك على تواريخ يوحنا الآسيوي، ويشوع العمودي، وغيرها من التواريخ السريانية المقدّمة لملء بعض الفراغات الحاصلة في الكتاب.

نقل السمعاني جزءاً من المخطوطة إلى اللاتينية ونشرها مع الأصل السرياني. وأعاد كلازر ترجمتها إلى اللاتينية، ونشرها عام 1884. وفي عام 1895 ترجم الأب شابو الجزء الأخير من المخطوطة إلى الفرنسية ونشره فور نقله.



المؤلف

نسب السمعاني هذا التاريخ خطأ - وكان أول من عثر عليه، وقدم وصفاً لمحتوياته في مكتبة الشرقية - إلى البطريرك ديونوسيوس التلمحري (818 - 845) المؤرّخ المشهور[200]. واقتفى المستشرق الإنجليزي وليام رايت أثر السمعان في كتابه الموسوم **مختصر تاريخ الأدب السرياني**. وتبنى الأب شابو رأي السمعاني أيضاً، واعتمد تقسيم وليام رايت للكتاب. إلّا أن هذا الرأي، عورض بشدّة من قبل العلّامة ثيودور نولكده وفرانسوانو لعدم وقوفهما على دليل ثابت يجيز نسبته إلى ديونيسيوس. ونقّبا عن البديل الأقرب في نظرهما إلى الصحة، تسنده الأدلة الداخلية من نصوص التاريخ المومأ إليه، فخرجا بفكرة مفادها أن المؤلف لهذا التاريخ يكون على الأرجح، الراهب يشوع العمودي، لو ورد اسمه في تضاعيف المخطوطة؛ إلّا أن الأب بول مارتان كان قد سبقهما إلى هذا الاستنتاج ولم يفز في حينه بتأييد مطلق من مؤرّخي الأدب السرياني.

وكان علماء الاستشراق في هذا النقاش فريقين: فريق نحل التاريخ ديونوسيوس التلمحري المؤرّخ، وفريق آخر نسبه إلى الراهب يشوع العمودي. وكان لكل طائفة من هؤلاء، آراء وافتراضات مختلفة. فارتأى

---

(200) ولد ديونوسيوس في بلدة تل محرى (بليدة بين الرقة وحصن مسلّمة على نهر البليخ) وتتلمذ في دير قنسرين وما إن أتت النيران على هذا الدير وتفرّق من كان فيه من الرهبان وطلاب العلم حتى رحل ديونوسيوس عنه، والتحق بدير مار يعقوب الكيسومي في مقاطعة سميساط، مكرّساً حياته للدراسة التاريخية وظل مواظباً على ذلك بكل هدوء إلى عام 818 حيث تم انتخابه بطريركاً للكرسي الأنطاكي ومات ديونوسيوس في اليوم الثاني والعشرين من شهر آب/ أغسطس سنة 854 ودفن في دير قنسرين (انظر: ابن العبري، **التاريخ الكنسي**، 1: 347 - 349 و355 - 357 و365 و373 و381).



من نحله التلمحري أن ديونوسيوس هذا كان من المؤرّخين البارزين في غضون القرن التاسع للميلاد، وأنه ألف تاريخاً مطولاً عن أحوال العالم باللغة السريانية، وعنه نقل الكثير من مؤرّخي السريان في القرون المتاخرة، كميخائيل السرياني (1199+) وأبي الفرج الملطي المعروف بابن العبري (1246 – 1286). وأنه كان متداولاً بين المؤرّخين السريان على نطاق واسع إلى أن اغتالته يد الدهر وفقد مع ما فقد من كتب التراث في الفترة المظلمة. وما أن عثر السمعاني سنة 1717 في دير السيدة العذراء في مصر على مخطوطة سريانية كبيرة تضم تاريخاً يتناول أحداث العالم منذ الخليقة وإلى أواخر القرن الثامن الميلادي، ومرتباً على النظام الحولي، حتى أعلن للملأ أن هذا التاريخ، وكان خلوّاً من اسم المؤرّخ لخرم أصاب مقدمته وخاتمته، هو تاريخ ديونوسيوس التلمحري المفقود. وقبل إجراء أي دراسات موضوعية دقيقة وعقد مقارنة بين ما جاء في هذا التاريخ من أخبار، وبين ما نقله المؤرّخان ميخائيل السرياني، وابن العبري، في تاريخيهما، أقدم السمعاني على نشر مقالة إضافية عن اكتشافه وطرفاً من محتويات هذا الكتاب في المكتبة الشرقية (1: 260 – 283). فشاع منذئذٍ رأي السمعاني بين المؤرّخين وعلماء الاستشراق حتى إن وليام رايت ذهب في كتابه **مختصر تاريخ الأدب السرياني** إلى أن ديونوسيوس التلمحري كان قد ترك وراءه كتاباً في التاريخ جليل القدر في نسختين: الأولى مطولة والثانية موجزة شديدة الإيجاز. أما النسخة المطولة، فهي التاريخ الذي كثر تداوله بين الكتاب السريان، وكان قد صدّره بإهداء إلى يوحنا مطران دارا الذي اقترح عليه تأليفه، فضم أحداث العالم من الخليقة إلى سنة 837م مقتفياً بذلك نهج يوحنا الآسيوي في توزيع مؤلفه إلى أبواب، تشمل فصولاً عدة. وقد ضاع هذا المؤلف خلال شذرات عثر عليها في المخطوطة السريانية الفاتيكانية تحت رقم 162 ونشرت في المجلد الثاني من المكتبة الشرقية. ويرى أن



النسخة الموجزة كانت أقل شيوعاً بين المؤرّخين السريان، من التاريخ المطوّل، وهي التي عثر عليها السمعاني. وقدّم من ثم وصفاً لمحتوياتها، مشيراً إلى أن أحداث التاريخ الموجز تنتهي عام 775 بينما تقف أحداث التاريخ المطوّل عند سنة 838 م.

أما من نحل التاريخ يشوع العمودي، فقد بنى رأيه على رسالة إضافية جاءت في هذا التاريخ، تقع في سبع صفحات، يقول كاتبها، ويدعى الربّان يشوع العمودي، أنه دوّن مذكراته هذه بناء على اقتراح من رجل يدعى سرجيس كان رئيس دير (**تاريخ يشوع العمودي**، المقدمة) وارتأى هذا الفريق، أن اسم المؤلف - يشوع - قد سقط من الصفحة الأولى بسبب تلف أصاب المخطوطة نتيجة تقادم العهد بها، بينما ظل اسمه بذيل الرسالة التي بعث بها إلى سرجيس رئيس الدير. إلّا أن نظرة متأنية إلى محتوى هذه الرسالة يثبت خلل ما ذهب إليه هذا الفريق. فيشوع العمودي مؤرّخ مغمور، لا يُعرف عن مراحل حياته، ونشاطاته الكتابية أكثر من أنه كان نزيل دير زوقنين. «وأنه أقام فترة في الرُّها في مطلع القرن السادس، وأنه كان يدرّس في مدرستها ثم كان خازناً للدير» (كامل والبكري، **تاريخ الأدب السرياني**، ص 176) وإن الرسالة المشار إليها ما هي إلّا مقدمة كتيب، ألّفه «يشوع العمودي» عن المحن التي أصابت الرُّها وآمد وبلاد ما بين النهرين. فجاء مؤلف التاريخ المنحول ديونوسيوس التلمحري، وضمّ كتيب العمودي إلى تاريخه، ليغطي به أخبار أحداث اثنتي عشرة سنة من حكم الامبراطور أنسطاسيوس، تماماً كما ضمّ طرفاً كبيراً من تاريخ يوحنا الآسيوي، ورسالة شمعون الأرشمي في الشهداء الحميريين، ومنشور الامبراطور زينون وقصة أهل الكهف. ويتبين من مقابلة الإهداء الوارد في التاريخين أنهما يختلفان في هذا أيضاً، اختلافاً واضحاً.



إن التاريخ المنحول ديونيسيوس، يضم أحداث العالم من بدء الخليقة إلى سنة 775 م. بينما يتناول تاريخ يشوع العمودي، أخبار فترة وجيزة تمتد بين عام 494 – 506، كرّس معظمها للأحداث العصيبة التي مرت بها مدينة الرُّها وآمد وغيرها من بلاد بين النهرين. وكما لا يمكن نحل هذا التاريخ سمعون الأرشمي أو يوحنا الآسيوي، لمجرد ورود اسميهما في مقدمة النصوص التي اقتبسها المؤلف عنهما، كذلك لا يجوز نحل هذا التاريخ يشوع العمودي لمجيء اسمه في ذيل رسالة الحقت بكتيب كان ألفه الراهب الموما الي، في فترة سبقت وضع هذا الكتاب، وبالتالي هي أحد مصادره.

أما الإهداء، فقد جاء فيما بقي من المقدمة المخرومة للتاريخ المنحول ديونوسيوس ويبدو أنه اهدى إلى الخوفسقوفوس كوركيس الآمدي، ويوثاليوس رئيس دير زوقنين، ولعازر البريودوط، والراهب انسطاسيوس وبقية رهبان الدير. بينما جاءت الرسالة التي هي جزء من تاريخ يشوع العمودي، معنونة إلى سرجيس رئيس الدير والفرق كما لا يخفى واضح بين رئيس الدير يوثاليوس، ورئيس الدير سرجيس.

بقي أن نقول بعد أن رأينا عدم صحة نسبة التاريخ إلى يشوع العمودي أنه من الخطأ نحله ديونوسيوس التلمحري أيضاً لعدة أسباب.

1) لاختلاف التاريخين في المحتوى والترتيب.

لقد بقي من تاريخ ديونوسيوس شذرات كما مرّ معنا، ونشرت في المكتبة الشرقية (2: 72 – 77). واقتبس المؤرّخ ميخائيل السرياني طرفاً كبيراً منها، وأدمجه في تاريخه المطوّلن منوهاً بهذا الاقتباس، كما نقل مقدمة تاريخ ديونوسيوس برمتها ليشير بها إلى المراجع التي اعتمدها في تاريخه، مقدِّماً وصفاً شاملاً لهذا التاريخ بقوله: ديونوسيوس البطريرك



الملقب بالتلمحري، ختم تاريخه هنا، ويريد بها سنة 843 م. وإن تاريخه يقع في مجلدين كبيرين، ألفه تلبية لرغبة إياونيس مطران دارا، ويضم أحداث 260 سنة أي من سنة 894 – 1154 يونانية، وهي السنة التي توفي فيها الامبراطور ثاوفيلوس، وأبو إسحق العباسي ملك العرب، وهي السنة التي بويع فيها هارون بن أبي إسحق بالخلافة على المسلمين، واختير فيها امبراطوراً للرومان، ميخائيل الفتى الذي ساست له أمه شؤون مملكته. (ميخائيل السرياني، **التاريخ العام**، ص 554).

إذن، يختلف تاريخ ديونوسيوس كما يصفه المؤرّخ السرياني ميخائيل (+ 1199 م) في فحواه، وترتيب مواده عن التاريخ موضوع الدراسة، فيبتدئ تاريخ ديونوسيوس بسنة 894 يونانية / 583م وينتهي سنة 1154 ي / 843م ويقع في مجلدين، كلّ مجلد موزع على ثماني مقالات وكل مقالة مقسومة فصولاً. بينما يبتدئ الكتاب المنحول ديونوسيوس بخبر الخليقة، وينتهي بأحداث عام 1086 ي/ 775 م. مع أن الكتاب يقع في مجلدين كمؤلف ديونوسيوس، إلّا أنه ليس موزعاً على أبواب وفصول بل يتخذ الطريقة الحولية أساساً لأخباره فيفصّل في بعض العناوين، غير أنه لا يعتقد بأي نظام في ترتيب رواياته، فيشبه بذلك كتب المذكرات.

2) لاختلاف في الأساليب الإنشائية والبيانية:

يعتبر ديونوسيوس التلمحري من بلغاء الكتّاب السريان في القرن التاسع (**اللؤلؤ المنثور**، ص 400) وتقوم الشذرات المتبقية من تاريخه، والفصول لمنقولة إلى تاريخ ميخائيل السريني، وابن العبري، خير دليل على صحة هذا الرأي. بينما يميل أسلوب مؤلف التاريخ موضوع الدرس، إلى البساطة والإطناب والبعد عن انماط الكتّاب البلغاء في



القرن الثامن للميلاد. (**اللؤلؤ المنثور**، ص 321) وفي الوقت الذي يخلو إنشاء التلمحري من الدخيل والأعجمي، من الألفاظ، نرى أن مؤلف **التاريخ المنحول** ديونوسيوس لا يتورع عن استعمال الدخيل والغريب مع وجود ألفاظ تقابلها في اللغة السريانية. (انظر: النص، السرياني، ص 150، 152، 153، 154، 162، 169، 172، 174، 265، 266، 279، 341، 347).

3) لعدم تخرج التلمحري في دير زوقنين:

من دراستنا لسيرة حياة البطريرك ديونوسيوس التلمحري، لاحظنا أنه ولد في بلدة تل محرى، وترهيب في دير قنسرين، وصرف طرفاً من حياته في دير مار يعقوب الكيشومي في مقاطعة ميساط إلى أن نصّب بطريركاً في مدينة آمد (ديار بكر) (المصدر نفسه، ص 205). ويقول المؤلف في مقدمته أنه أقدم على تأليف تاريخه بطلب من كوركيس خورفسقفوص مدينة آمد، وأوثيليوس رئيس دير زوقنين... إلخ. ويولي منطقة ديار بكر أهمية خاصة فيعدد المحن التي أصابتها، ويشير إلى الأمراء، وعمال الخراج والصيارفة والكتّاب الذين أقاموا في المدينة أو في جوارها، منوهاً بالعسف والظلم الذي لحق سكان المنطقة من جرّاء جمع الخراج والجزية. كما يكثر من الحديث عن دير زوقنين، ذاكراً ما كان له من فضل بين أديار السريان، مشيراً إلى رؤسائه، وفواضل رهبانه ومن نال منهم رتبة الأُسقفية. (المصدر نفسه، ص 266–270 و286–290) وخلاصة القول لا يمكن أن يكون هذا التاريخ، كما وهم السمعاني ووليام رايت من ذهب مذهبهما، من تأليف التلمحري. كما لا يجوز إسناده لى يشوع العمودي على حد زعم ثيودور نولكده وفرنسوا نو والأب مارتان. فهو تاريخ مستقل في أحداثه وأساليبه وتركيبه ومنهجه. وهو على الأرجح من



تأليف راهب من رهبان دير زوقنين، كان موجوداً في غضون سنة 720–776، وأمضى جل حياته في بلاد ما بين النهرين، وبخاصة منطقة آمد وما والاها حيث قام الدير المذكور (**اللؤلؤ المنشور**، ص 321) ويبدو أنه كان كثير التجول، شأنه بذلك شأن قدماء الرهبان السرين. فطاف في أطراف الجزرة الفراتية حيث انتشرت الأديرة واتصل بشيوخها ورؤسائها، وافاضل علمائها، وتزود بالكثير من أخبار المنطقة. كما جاء في أرمينية الداخلية، وأحاط بمعرفة أقسامها ومواردها، وتقسيماتها الإدارية. ويبدو أن جلّ أخباره في القسم الرابع من هذا المؤلف، استقاه من أفواه الشيوخ الذين صادفهم في تلك الأصقاع، فأفاد من علمهم، وأغنى بذلك تاريخه غاية الإغناء. فجاء فريداً في الكثير من رواياته وأحداثه.

أسلوبه ومنهجه

تأثر الزوقنيني كما يبدو من مراجعه المثبتة في مقدمة تاريخه بأنماط الحوليات البيزنطية وبخاصة تلك التي أولت النواحي الدينية الاجتماعية والسياسية والاقتصادية اهتماماً كبيراً، فاقتبس أجزاء غير قليلة منها لتغطية أحداث تاريخية، فتراه يمزج بين التاريخين المدني والديني كما يرد في **الكتاب المقدّس**، وبين ما جاء في هذه الحوليات فتبتدئ أخباره بقصة الخليقة مروراً بالآباء الأولين وملوك بابل واليونان وأباطرة الروم إلى عصره (النص السرياني، ص 2، 57 – 91، 97، 223 – 230) مقتفياً أثر مدوني الحوليات، وبخاصة أوسابيوس القيصري (المصدر نفسه، ص 2) وسقراط (المصدر نفسه، ص 169) في التواريخ الكنيسة، والتواريخ العامة، وليس هذا وحسب، بل تجده يتقيد بالتقويم اليوناني تقييداً لا يخرج عنه إلّا نادراً. (أشار مرة واحدة إلى التقويم الهجري – النص، السرياني ص 146).



ويغلب هذا النمط على تاريخ الزوقنيني أيضاً، في تسلط الجوانب العاطفي وبروز الميول القومية والطائفي والتركيز على الفوارق والآيات وذكر الشخصيات التي تمتاز بمواهب وطاقات معجزية واعتبار الحوليات القديمة وثائق لا يرقى إليها الشك فيعتمدها بثقة متناهية. فجاء هذا التسليم المسبق بصحة روايات مصادره سبباً في الجمع بين غث الأخبار وسمينها. (النص السرياني، ص 135 – 143، قصة أهل الكهف) أما منهجه في انتقاء أحداث عصره، فقد بناه على المشاهدة الشخصية اليومية وعلى ما أخذه عن شيوخه ورهبان ديره والأديار الأخرى المنتشرة في بلاد ما بين النهرين، أو من عاصره من المؤرّخين السريان. (النص السرياني، ص 46 – 47). أما فيما يختص بالأساليب الانشائية وفنون الأدب، فالزوقنيني لا يخرج عن الأساليب والأشكال الجافة المعقدة، وعن الإسهاب الذي اتسمت به معظم الحوليات القديمة والمتأخرة، إلّا أن هناك ميزة خاصة غلبت على أسلوب المؤرّخ وطبعه بطابع فريد إلّا وهي محاولته تطبيق النبوات الواردة في **الكتاب المقدّس** على الأحداث اليومية (النص السرياني، ص 136، 147، 178 – 179...). ولعل عمله هذا نابع في الأساس من نظرته الشاملة إلى التاريخ. فالتاريخ عنده: ميدان عمل الله ونشاطه، وإن كلّ ما يصيب الناس من خير وشر من عسر ويسر، لا يخرج عن دائرة معرفته وسماه. إن شاء أذوى الحقول بالبرد، وإن شاء أينع في حمّارة القيظ» (النص السرياني، ص 205).

وللتاريخ عنده غرضان: أولهما، التذكرة «رغبتنا في الحديث عن هذه الأمور بالتفصيل لنترك وراءنا تذكرة لاستخراج العبرة الصالحة والموعظة الحسنة – وهو غرض أكثر شمولاً وأوسع تطبيقاً – فتقف الناس: «على الضربات التي نزلت بالأجيال الأولى فيحيدو عن الإثم لئلا يصيبهم ما أصاب القدماء من شديد العقاب».(النص السرياني، ص



147) ويرى المؤلف بناء على ما مر، أن الضيقات والأوبئة والحروب، إن هي إلّا عصا بيد الله يرفعها على خلقه لردع الإثم عن آثمه، وإيقاف الشر عند أول حدوده» (النص السرياني، ص 146، 147، 154، 155). والناس رهينة بيد السلطان إن صلح صلحوا، وإن ساء ساؤوا، وينطبق هذا عنده حتى على أمور الكنيسة وأحوالها. (النص السرياني، ص 223، 243).

ولا تخرج التواريخ السريانية عن مثل هذين الفرضين، ولاسيما في العصور المتأخرة. فقد ذهب ابن العبري هذا المذهب أيضاً في مقدمة تاريخه الموسوم «مختصر تاريخ الدول» حيث قال: «قصدت في اختصاره على ما أوتي في ذكره اقتصاص إحدى فائدتي الترغيب والترهيب من أمو الحكام والحكماء، خيرها وشرها» (النص السرياني، ص 2 لمختصر الدوا) كما لا يبتعد عن الأغراض التي سعى إليها المؤرّخون العرب ولاسيما الطبري الذي يتحدث في مقدمة تاريخه عن الغرض الذي دعاه لتأليف تاريخه بقوله: «هو الوقوف على الأحوال الماضية. وفائدته العبرة بتلك الأحوال والتنصح بها وحصول ملكة التجارب بالوقوف على تقلبات الزمن ليتحرز عن أمثال ما نقل عن المضار ويستجب نظائرها من المنافع. وهذا العلم كما قيل علم آخر للناظرين والانتفاع في مصدره بمنافع تحصل للمسافرين». (الكبري، المقدمة).

مصادره التاريخية

اعتمد المؤرّخ الزوقنيني، مؤلف التاريخ المنحول ديونوسيوس التلمحري طائفة من المصادر السريانية واليونانية إلى جانب الروايات الشفوية التي أخذها من أفواه شيوخه في شتى الأديرة والمناسك في بلاد ما بين النهرين، كما نوهنا سابقاً. وفيما يشبه التوطئة للقسم الرابع من



مؤلفه الكبير، نوّه الزوقنيني ببعض مصادره، وأغفل بعضها الآخر وليس غريباً على مؤرّخي السريان إغفال الإشارة إلى بعض مصادر مؤلفاتهم. فقد طالما نقل الكثيرون منهم مؤلفات تاريخية برمتها، من دون إيماء إلى كافة المصادر التي نقلوا عنها. (ابن العبري، **تايخ الأزمنة**، ص 16. ميخائيل الرياني التاريخ العام ص 387). وسأتولى في معرض حديثي هذا دراسة مصادر الزوقنيني دراسة كرونولوجية لتقدير قيمتها التاريخية والحضارية.

وزع المؤرّخ تاريخه على أربع حقب زمنية وأتى في صدر كلّ حقبة من تلك الحقب الأربع على ذكر بعض المؤلفات والوثائق التي استقى منها بعض معلوماته، مشيداً بفضل مؤلفيها. ولن أحاول في هذه الدراسة ترتيب مصادر الكتاب بطريقة تختلف عن الطريقة التي وردت بها في صدر القسم الرابع من الكتاب، إلّا انني سأضيف إلى قائمة تلك المصادر ما فات المؤلف أو أغفله عمداً.

1 – مصادر الحقبة الأولى

تضم الحقبة الأولى من تاريخ الزوقنيني أخبار الخليقة، وتمتد إلى مولد إبراهيم الخليل، وتاريخ بني إسرائيل، حتى فترة حكم الامبراطور قسطنطين الكبير (+ 337) ولم يذكر المؤرّخ من مصادر هذه الحقبة الطويلة إلّا مؤلفات المؤرّخ اليوناني المشهور اوسابيوس القيصري. غير أن الدراسة المتأنية للأخبار الواردة في هذه الحقبة الزمنية تحتم على الكاتب اعتماد طائفة كبيرة من الكتب التاريخية، والوثائق الرسمية، والمؤلفات الدينية التي تناولت تلك الأحداث. فأرجح والحالة هذه أن المؤلف اقتبس الكثير مما ورد في تاريخ يوليوس الأفريقي، ومؤلفات يوسيفوس اليهودي، وتاريخ مدينة الرُّها وكتاب **مغارة الكنوز**، وطرفاً من قصة أهل الكهف، وسيرة الإسكندر المقدوني إضافة إلى الترجمة



السريانية للكتاب المقدّس المعروفة «بالترجمة البسيطة»[1].

(1) للتفصيل في تحليل المصادر انظر مجلة **المجمع العلمي العراقي**، مج 8 (1984)، ص 97 – 80.

2 – مصادر الحقبة الثانية

تضم هذه الحقبة أخبار الأحداث الممتدة ما بين فترة حكم الامبراطور قسطنطين الأول وثيودوسيوس الثاني (408 – 450 م).

3– مصادر الحقبة الثالثة

تشتمل الحقبة الثالث على أخبار الفترة الواقعة بين حكم الامبراطور ثيودوسيوس الثاني، ويوسطنيان الثاني (669 – 711).

4– مصادر الحقبة الرابعة

تتسع هذه الحقبة لأحداث قرن من الزمان، أي من عام 674 – 775م. ويقول المؤرّخ في معرض حديث عن هذا القسم من تاريخه: إنه لم يقف على مصادر مكتوبة ووثائق تتحدث بالتفصيل عن هذه الفترة، فاعتمد روايات شيوخ أجلاء من مختلف الأديرة التي أمّها لجمع مواد تاريخه. ولعل وقوعه في بعض الأخطاء الزمنية وبخاصة في الفترة العربية متأت من اختلاف هذه الروايات. ولكن مع كلّ هذا يبقى تاريخ الزوقنيني من أهم المصادر لدراسة تاريخ بلاد الرافدين، وبخاصة صدر الدولة العباسية إذ يقدم الكثير من المعلومات عن الحالة الاقتصادية والفوضى وعدم الاستقرار في مناطق الحدود العربية البيزنطية، كما يقدم عرضاً لنظام الخراج والجزية وما رافق هذا النظام من اختلاط وتعسف في بعض المناطق النائية.



أهمية هذا التاريخ

يعد هذا التاريخ من أهم التواريخ المحلية التي تناولت تاريخ الجزيرة وبلاد ما بين النهرين العليا في فترة كانت «من أشد فترات التاريخ الإسلامي فعالية سياسياً ونشاطاً فكرياً» (فوزي، **طبيعة الدعوة العباسية**، ص 42). فقد أفرد المؤلف طرفاً كبيراً من تاريخه لتسجيل ردود الفعل السياسية لسكان البلاد ضد السلطة العباسية التي أخذت تمدّ نفوذها إلى أطراف البلاد، كما أشار إلى إنكارهم الشديد للمركزية الإدارية والضغط الذي كان يمارسه الوالي العباسي.

ويفصّل كذلك في شرح الحالة الاقتصادية والاجتماعية التي أدت في النهاية إلى ظهور الكثير من مدّعي النبوة، وقطاع الطرق، والخوارج، إضافة إلى تقديمه معلومات اقتصادية واجتماعية ومالية تضمن إشارات وفيرة إلى نوعية الأراضي والممتلكات في المدن والقرى، وتوضح العلاقة بين سكان المدينة والقرية والريف، التصادم الشديد الذي كان ينشب بين طبقات المجتمع ذات المستويات الاقتصادية والاجتماعية المختلفة. ويتحدث بشكل خاص عن الطبقة دون المتوسطة وعن الفلاحين والزرّاع، بحيث لا يضاهيه في هذه الأخبار أحد من مؤرّخي عصره، وذلك لارتباطه المذهبي والقومي بجماعة «ذوي الطبيعة الواحدة» (السريان). وكانت هذه الفئة تؤلف أكبر شريحة من مجتمع بلاد ما بين النهرين في القرنين السابع والثامن، ولا ترتبط بأية طبقة ارستقراطية أو سلطة حكومية.

ولا يقلّ تاريخ الزوقنيني أهمية عن تاريخ الموصل لأبي زكريا الأزدي من حيث كونه تاريخاً محلياً، لأن كليهما «يشمل بحثاً للحالة السياسية لمنطقة الجزيرة وكذلك الحالة الاقتصادية والاجتماعية.



ويتفق كلاهما في موقفه العدائي تجاه السلطة العباسية المركزية». ومع أن الزوقنيني يفصّل في معلوماته الاقتصادي، والازدي بمعلوماته السياسية، إلّا أنهما يتفقان في أن كثرة الضرائب وعنف أسلوب الجباية هي التي أجبرت الفلاحين على الهجرة، وبالتالي أدت إلى تدهور الحالة الاقتصادية في بلاد ما بين النهرين. (فوزي، **طبيعة الدعوة العباسية**، ص 44. **والجزيرة الفراتية**، ص 20).

وتنحصر أهمية كتاب الزوقنيني إضافة إلى ما مر، تفرّده بمجموعة من أخبار لا ترد في المطولات التاريخية، لعدم تنبه المؤرّخين الرسميين إليها من جهة، ولموقعها في منطقة الثغور الداخلية حيث عاش المؤرّخ، من الجهة الخرى، كما جمع طائفة من أخبار متفرقة ترتبط ارتباطاً مباشراً بالكنيسة المسيحية الشرقية وبخاصة السريانية، ومدى علاقة هذه الكنيسة بالدولة العباسية الأمر الذي يهيئ فرشاً تاريخياً للمؤرّخ المعاصر الذي لا يستطيع أن يقف على ما يضارعها في التواريخ المماثلة. وفيما يلي تفصيل عناصر هذه الأهمية.

«1» ردود الفعل السياسية ضد المركزية

العباسية والضغط الذي كان يمارسه الوالي:

بدأ رد الفعل السياسي عندما أخذت طلائع الجيوش العباسية تغزو سورية. «ففي سنة 749 دخل الفرس (يريد بالفرس القوات العباسية، إنظر: النص، السرياني ص 207) أرض سورية، واخضعوا العرب (**يريد بالعرب أعوان بني أمية، النص، السرياني ص 382**). وحكموا البلاد عوضاً عنهم». وتطور رد الفعل عند السكان إلى حمل السلاح: «فنازلهم العرب لصدهم» (النص السرياني، ص 193) ويذهب المؤرّخ إلى أن حركة المقاومة في بلاد ما بين النهرين أثمرت بعد سنة من



اقتحام القوات الفارسية لبلادهم، إذ ثاروا، على شكل جماعات كبيرة، وبيضوا، واقتحموا معاقل العباسيين، وقتلوا منهم خلقاً كثيراً وطردوهم من بلادهم (النص السرياني، ص 196) ويربط المؤلف ردّ الفعل هذا بما ارتكبته القوات الفارسية من الظلم والتعسف وما فرضته من مركزية متصلبة، ويقول: «كان أول عامل للفرس على الجزيرة، عكي... ففرض على الناس ارتداء السواد» (النص السرياني، ص 195) ويضيف إلى هذه الأسباب سبباً آخر هو: «أن الفرس أنزلوا بهم (سكان الجزيرة) مساوئ شتى من دون رحمة إذ كانوا يذبحونهم كالخراف، وينهبون أموالهم» (النص السرياني، ص 196).

وأخذت عملية النقض هذه شكل ثورت وفتن متفرقة انتشرت في طول البلاد وعرضها. ففي هذه الفترة المبكرة، نقض بريكة، وخرج بالحرورية مع رهط من أعوانه، فأرهق بذلك السلطة وأربك عمالها إرباكاً شديداً، كما فتن عرب مدينة ميافارقين في حوالي سنة 751 م، وأودوا بحياة الكثيرين من السكان جيرانهم، الأمر الذي دعا السلطة العباسية للنظر في مر تبديل واليها وعمالها، وعقد تسوية عاجلة مع سكان جبل عطشان، ومنحهم نوعاً من الحكم الذاتي. وفي إقليم سيس: «اجمعت آراء العرب والسريان على محاربة الوالي - الذي عسف الناس واستباح دماءهم، ونهب أموالهم - وأقصائه عن حصن قولب الذي كان جعله مركزاً لغزواته وطغيانه في تلك النواحي» (النص السرياني، ص 197). وبلغ رد الفعل أشده عندما هاجم الوالي طائفة من قرى المنطقة وسبى الكثير من ابنائها. فثار في وجهه رجل من إقليم طور عبدين يدعى يوحنا، نظم جيشاً وهاجمه وقضى عليه وعلى أعوانه. ولم تقف المعارضة عند هذه الحدود، بل تطورت إلى حد إيقاف العمليات العسكرية وإغلاق المنافذ الجبلية في وجه القوات العباسية المتقدمة في تلك الأقاليم والقضاء على بعض أمراء الحملات. (النص السرياني، ص 198). وثار



في الوقت نفسه، خارجي آخر يدعى عبيد الله البختري في منطقة الرُّها، واخذ يضرب مصالح السلطة العباسية ويرهق جيوشها في مناطق وعرة إلى أن قضي عليه (النص السرياني، ص 200).

«2» الحالة الاقتصادية والاجتماعية في بلاد ما بين النهرين

كانت بلاد ما بين النهرين كما يفهم من تاريخ الزوقنيني بلاداً زراعية بالدرجة الأولى. ويقول في وصفها «كانت هذه البلاد بهية المنظر بكثرة سكانها، كثيفة بالكروم والزروع وبشتى أنواع الشجر...» (النص السرياني، ص 157، 230) وكانت إلى جانب الزراعة، تضيق – على رحبها – بالماشية. وكان الفقراء وحتى المعدمون منهم، يمتلكون أفدنة وحميراً وماعزاً، ولم تكن تلى أرض غير مزروعة البتة. لأن الفلاحين لم يدعوا بقعة استطاعوا بلوغها، إلّا ونقبوا فيها كرماً، أو نصبوا بستاناً. ويذهب المؤرّخ إلى أن وفرة الزراعة وتقارب تخوم البساتين، والحقول الواسعة، صارت سبباً في احتدام المنازعات الكثيرة بين الفلاحين أدت في أغلب الأحيان إلى المقاضاة، وربما إلى سفك الكثير من الدماء، كما قادت إلى المهاترات والفتن بين العمال المسؤولين عن جباية الخراج والعشور والصدقات وبالتالي أدت إلى اعتزال طائفة منهم لمناصبهم. (النص السرياني، ص 243).

ويتطرق المؤرّخ في معرض حديثه عن طبقات المجتمع في بلاد ما بين النهرين ويقول: كان هناك أربع طبقات: المعدمون، ويشكلون شريحة كبيرة من المجتمع ويمكن أن يطلق عليهم «طبقة العمال المزارعين»، الفلاحون وهم الطبقة التي تأتي فوق الطبقة الأولى، ثم الطبقة المتوسطة، وهي الطبقة التي أولاها المؤرّخ اهتماماً كبيراً لأنه ينتمي اليها. (فوزي، **طبيعة الدعوة العباسية** ص 42) وكبقة الأثرياء أو



ما يمكن تسميتها «بالطبقة الارستقراطية» وكانت تمثل رؤساء البلاد والموسرين وبقية موظفي الدولة. (النص السرياني، ص 330).

وكانت طبقة عمال الزراعة تقوم بخدمة الفلاحين الكبار ممن يمتلكون الحقول الواسعة والكروم والبساتين. فيحرثون حقولهم ويغرقون بساتينهم وينقبون كرومهم، ثم يقومون بجمع المحاصيل الزراعية في شتى فصول السنة. ولا يجنون من تعبهم هذا أكثر من سد رمقهم. (النص السرياني، ص 317) وكانوا يقومون كذلك بزراعة حقول الصيارفة والقضاة وأصحاب الحوانيت ممن كانوا يمتلكون أراضي زراعية في الريف. (النص السرياني، ص 313، 330، 331).

ولما كان المجتمع يتألف من هذه الفئات المختلفة، كان لا بدّ من قيام صراع طبقي بين هذه الشرائح المتناقضة المصالح. ويذهب المؤرّخ إلى أن الصرع كان على صعيدين: الأول بين الفلاحين ممن يمتلك أرضاً، وبين العمال المزارعين، الذين انتشروا في الريف انتشاراً واسعاً، وقاموا بمختلف أعمال الزراعة أن كان للمالكين الكبار (الاقطاعيين) أو للفلاحين الصغار عندما تشتد بهم الحاجة لطلب المزيد من الأيدي العاملة في الحراثة وفي جني المحاصيل ألوفيرة. (النص السرياني، ص 217). أما الثاني، فقد احتدم بين الفلاحين ككل، وبين الإقطاعيين والمرابين والصيارفة من سكان المدن المجاورة للريف. وبلغت حدة هذا الصراع عندما شددت الدولة في تحصيل ضرائب الخراج والجزية والأعشار بشكل عشوائي. فهرع الفلاحون إلى المرابين والصيارفة والإقطاعيين للحصول على المال اللازم لذلك، عن طريق الربّا، أو رهن أجزاء من حقولهم أو كرومهم. وفي فترة قصيرة استطاع المرابون والإقطاعيون والصيارفة من إخراج الفلاحين عن مزارعهم وممتلكاتهم التي كانت المورد الوحيد الذي يعتاشون عليه. (النص السرياني، ص



325). وفي غمرة اليأس، ثار الفلاحون من الفئتين، على إقطاعيي المدن، وأصحاب الأموال واستولوا على كلّ ما اختلسوه من حقول وكروم وبيوت وموارد، ولم يستطع أحد أن يقف في وجه هذه القوة الساحقة لأنها كانت تؤلف أكبر طبقة في مجتمع بلاد ما بين النهرين من جهة، ولكونها كانت تموّل الدولة عن طريق دفع الخراج والجزية بصورة مستمرة من الجهة الأخرى. (النص السرياني، ص 313، 330 – 331).

«3» الإجراءات التي اتخذتها الدولة في البلاد

يتحدث المؤرّخ عن تولي موسى بن مصعب قضاء الموصل عام 769م ويصفه بقوله: إنه كان شريراً باغياً لم يقم والي آخر بمثل قسوته... فضايق الناس ضيقاً شديد، لم ير مثله منذ خلق العالم. (النص السرياني، ص 252 – 253) ويطلق على موسى لقب «انتي خريستوس» أي ضد المسيح، ويعني به إبليس، ويسمي بطانة الوالي من عمال وقضاة وصيارفة «رسل الشيطان» ويقول إن الوالي العاتي لا يجمع حوله إلّا بطانة باغية. وكان موسى يبعث ببطانته إلى القر والمدن والارياف لجمع الخراج والجزية ووال العشور والصقات والصوافي، فيدخل القرية الواحدة بصنعة من هؤلاء، ولغايات مختلفة فيعسفون الناس ويجبرونهم على دفع الضرائب مقدماً (النص السرياني، ص 303، 304) وكانوا يحصون عدد الأسواق في المدن وأماكن البي والشراء في الساحاتو ويستصفون الحوانيت والأرحية غير المسجلة في قوائم الخراج والصوافي القديمة ويضموها إلى ممتلكات الدولة (النص السرياني، ص 266، 382) وقاسوا الأسواق بالحبال وابتدؤوا من أسوار المدينة وبواباتها. وحصروها شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً، مسافة أربعين ذراعاً، وأحصى عمال موسى الحوانيت، وسجلوا ما وجدوا فيها من بضائع، وحاجيات وأخذوا على كلّ ما قيمته مئة دينار، خمسة دنانير في بعض



الحالات عشرة (النص السرياني، ص 266، 267) وبلغ العسف بهؤلاء الجباة أن جبوا الناس حتى على نبات كان يسمى الفوة ويخرج الناس لالتقاطه من البرية ويستخدمونه في صبغ ملابسهم أو يبيعونه لقاء بعض المال. (النص السرياني، ص 268).

ويرى المؤرّخ أن عملية الوشم كانت أقسى الإجراءات التي اتخذها الوالي في بلاد ما بين النهرين، إذ بعث عمالاً يشرفون على وشم سكان القرى مخافة أن يتركوها إلى أقاليم أخرى فيقول: كان هذا الوشم لا يمحى أثره مدى الحياة فيختمون الرجل في جبهته وعلى يديه وصدره وظهره. (النص السرياني، ص 269). وذهب إلى أنه بسبب هذا الإجراء القاسي خوت المدن من السكان وأقفرت الطرق من المسافرين وأقفت الحوانيت، وشلت حركة الناس. وكان العمال بعد الوشم إن قبضوا على آبق ترك قريته، يذيقونه مرّ العذاب، ويغرمونه مالاً كثيراً، كما يغرمون من آواه في داره أو في قريته. (النص السرياني، ص 256).

ولم يقتصر هذا الظلم على الفلاحين والطبقة المتوسطة من سكان البلاد بل تعداها إلى العرب والمسلمين، ويذهب المؤرّخ إلى أنهم أجبروا على دفع الصدقات التي كانت بمثابة الخراج لمفروض على السريان، وذاقوا الواناً من العنت والضيق إذ طاف العمال حقولهم، واحصوا مواشيهم وغلالهم ولم يتركوا شيئاً إلّا دونوه في قوائم الصدقات. وأساء إليهم الجباة في تحويل حصة الصدقة التي تصيبهم إلى أموال واستوفوها نقداً، خلافاً لما درج عليه الملوك الأقدمون (النص السرياني، ص 299) ويقول في وصف عمال الصدقات: حقودون، أثمة، لا يوجد للرحمة مكان في قلوبهم، لا يتوقون الله، لا يخجلون من شيخ طاعن، ولا يحرمون يتيماً بائساً، ولا يشفقون على ارملة. ويذكر أنه عندما كان يعسر على الناس دفع جزيتهم، يجر الجباة وجوه القوم والشيوخ



الأفاضل ويشبعونهم جلداً وضرباً ولطماً، ويعلقونهم من اذرعهم والأغلال في ارجلهم حتى يشرفوا على الموت. وكان المسلمون – كالسريان – يبيعون معظم ما ملكت أيمانهم لدفع ضريبة الصدقات. (النص السرياني، ص 299 – 300) ويرى أن المسلمين اعترضوا مراراً على هذا العسف، وطالبوا المسؤولين بالعودة إلى الشريعة الإسلامية التي كان يطبّقها الملوك السابقون (يريد خلفاء بني أمية)، واستيفاء القمح بدل القمح، والماشية بدل الماشية فيكفونهم شر هذا التقدير المجحف. (النص السرياني، ص 300).

ومن غريب ما يقول المؤرّخ هو أن الجباة في بعض حالات عدم استطاعة دفع الصدقات، كانوا يأخذون أطفال العائلة أرقاء بدل ما يترتب عليهم من مال، الأمر الذي أهاج السكان، وأوعز صدورهم حقداً على العمال والقضاة الموكلة إليهم عملية جمع الضرائب، وصمموا على رفع شكاية إلى أمير الجزيرة موسى بن مصعب إلّا أنهم خابوا إذ ابى قبول شكوتهم، (النص السرياني، ص 301) ففكروا في التوجه إلى بداد العاصمة لبسط الأمر أمام الخليفة بالذات، ولكن بديل أن يسمع الخليفة إليهم وينصفهم، امتنع عن مقابلتهم، فمكثوا في بغداد قرابة ستة أشهر من دون أن يفوزوا بشيء، فعاد من بقي على قيد الحياة خائباً مقهوراً، ومات الآخرون بأوبئة شتى في بغداد. (النص السرياني، ص 314).

«4» أحداث فريدة لم تتناولها المطولات التاريخية

– **1** – من الأحداث الفريدة التي يتناولها المؤرّخ الزوقنيني ويسكت عنها أصحاب المطورات خبر هبوط القائد الروحي فرقوفي بعد اندحار جيوش الروم في سورية (النص السرياني، ص 150 – 152) وتقدم الجيوش العربية بقيادة حبيب بن مسلّمة الفهري في بلاد ما بين



النهرين في الفترة الواقعة ما بين 652 – 653 م. النص، ص 152). ويبدو من الأحداث المتلاحقة في هذه الحقبة، أن فرقوفي فشل في مهمته واستمر زحف الجيوش العربية في بلاد ما بين النهرين حتى تم لها فتح معظم أجزائها.

- **2** – ومن طريف أخباره عن عام 723م أن يزيداً الثاني الذي تولى الحكم أربع سنوات، قام بأمور مخالفة لما عرف عن الخلفاء الأمويين الذين يصف بعضهم بالحكمة والدراية (النص السرياني، ص 195) فأزعج بذلك رعاياه من الطوائف المختلفة. ففي سنة 723 بعث بعض عماله يحطمون الصور والتماثيل أينما وجدت: في البيوت أو القصور أو الهياكل. (النص السرياني، ص 164، 154، 195). ولم يكتف بهذا، بل أمر بقتل الكلاب والقضاء على الحمام والديكة البيضاء وإعدام من ثبتت زرقة عينيه. كما أمر بتعديل عقوبة قطع يد السارق بعقوبة قطع كمّ ثوبه. ويقول: ولولا تدخل بعض الفقهاء واهل المروءة من رجال الدين، من جهة مدة خلافته من الجهة الأخرى لأفنى بفعله هذا العباد، وخرّب أجزاء وافرة من البلاد. (النص السرياني، ص 165).

- **3** – ويفرد المؤرّخ طرفاً كبيراً من تاريخه لتعداد الأضرار التي الحقتها جيوش الفتح ببلاد ما بين النهرين العليا وبخاصة ما تاجم حدود الروم والارمن. ففي حملة قام بها الجراح بن عبد الله الحكمي بعيد سنة 731 لتأديب الترك، «اتلف المنطقة بكاملها... وألحق بالفقراء والمساكين من جراء احتياز قواته خسارة كبيرة» (النص السرياني، ص 170) ويذهب المؤرّخ إلى أن وفود سكان المنطقة وتوسلات الفقراء، عجزت عن إيقاف الخراب والدمار الذي ألحقته تلك الجيوش بالبلاد. (النص السرياني، ص 170 – 171).



- **4** - ويتطرق في رواياته عن الخوارج إلى اثنين منهم كانا قد دوّخا الثغور وأتلفا الكثير من المدن والقرى والمزارع. أولهما عتيق الذي ثار بالحرورية عام 736م أيام الخليفة هشام بن عبد الملك وخرج بنواحي سنجار الداخلية ومعه كوكبة من أعوانه. ويرى أن عتيقاً وهو في نفر من أصحابه استطاع أن يهزم جيشاً بقيادة أحد مشاهير قادة الأمويين في تلك المنطقة، ويقضي على جانب من جيشه. ويقول عن عنيق: إنه هجر زوجته، وتخلى عن أمواله لدى خروجه في الحرورية كما للعرب عادة. ويصفه بالبسالة والقوة والبطش (النص السرياني، ص 174 - 175) وكان الثاني ويدعى البختري قد خرج في منطقة الرُّها، وعسف الناس وأذاقهم مرّ العذاب «وأساء إلى الكثيرين وبخاصة سكان رية بيت معدا التي قبض على رؤسائها وشواهم على النار كما يُشوى السمك بغية الحصول على أموالهم. فقتل فريقاً، وسبى آخر، وهدم جميع الأديرة الواقعة في نواحي الرُّها وحرّان وتلّا». ويعدد المؤلف أسماء القرى التي محقها عبيد الله البختري وهو يعيث فساداً في بلاد ما بين النهرين العليا وأشهر تلك القرى والأديار: دير قوبى، ريش مات، دير قتارا، دير حسمي الكبير، دير لعازر، قرية بيت معدا، دير ميجوس. (انظر النص السرياني، ص 199 - 200).

- **5** - وبين الفرايد من أحداث الزوقنيني، تواطؤ الأقلية اليهودية في مدينة نيو قيسارية مع مسلّمة إبان غزوته لهذه المدينة، عام 729م فقال: إن فئة منهم انسلت خلسة تحت جنح الظلام وخرجت إلى معسكر العرب وقطعت عهداً مع قائد الحملة، على إدخاله المجينة من نفق سري كان يتصل بسورها، شريطة أن يحافظ عليهم، ويحملهم برفقته إلى سورية (النص السرياني، ص 171) ولعل هذه الحادثة جاءت رداً على ما فعله الامبراطور فوكاس عندما حاول إجبار يهود فلسطين على



اعتناق النصرانية وقبول المعمودية قبل ذلك بفترة ليست بالقليلة. (النص السرياني، ص 148، 149).

- 6 - ويسجل في أحداث عام 833م خبر غزوة سليمان بن عبد الملك لبلاد الروم واجتياحه لمدينة بفلاغونية وسبى من كان فيها من السكان. ومن أطرف ما يقوله عن هذه الغزوة هو أن الامبراطور قسطنطين نفسه بعث من يقول لسليمان: اذهب إلى مجينة بفلاغونية، انهبها، وافعل ما تهواه نفسك لأنه ليس في المدينة من يقاومك أو يرفع في وجهك سيفاً. ويذهب المؤرّخ إلى أن قسطنطين أتى عملاً كهذا انتقاماً لنفسه من سكان المدينة الذين زروا أرطباس صهره في تمرده واستيلائه على العاصمة. (النص السرياني، ص 171، 172).

- 7 - ومن بين أخباره الفريدة، خبر رجل من نصارى مدينة مارِدِينن ادّعى النبوة، وتقمص شخصية موسى كليم الله، وانحدر إلى السامرة في فلسطين، وأوهم فريقاً من اليهود بأنه موسى أعاده الله اليهم، ليجدد آمالهم ويقودهم ضد أعدائهم ويجعل منهم أمة من أقوى الأمم. (النص السرياني، ص 173) ويقول إن الرجل فعل هذا لا حباً ببني إسرائيل، بل كرهاً لم، وإمعاناً في إذلالهم والانتقام منهم. لأنه ما إن صدقوه، حتى جعل يخرج ببعض فتيانهم ويجهز عليهم ويقتلهم ويسلب ما معهم حتى أثرى، وصار صاحب عبيد وإماء وأملاك كثيرة. ويرى أن كره الرجل لليهود كان بسبب ما لحقه من أذى يوم كان نزيلاً في ديارهم. فغاب فترة، ثم عاد وقد تعلم فنون السحر من بلاد الآراميين، فأغواهم، منتقماً لنفسه المُهانة. ولكن ما عتم أن انكشف زيفه، وبانت نواياه، فسيق إلى هشام بن عبد الملك فأذاقه مرّ العذاب وصلبه على خشبة. (النص السرياني، ص 174).



– **8** – ويتطرق في أحداث عام 751م إلى ذكر فتنة أثارها عرب ميافرقين ضد سكان جبل العطشان الأمر الذي أدى في النهاية إلى قيام تمرد في الجبل قاده رجل من أبناء طور عبدين يدعى يوحنا بن ددّي، يعاونه قائد آخر يسمى أسطفنا بار فولوس. (النص السرياني، ص 196 – 197). ويذهب المؤرّخ إلى أن هذا التمرد جاء نتيجة فتك قرة بن ثابت وإلي الإقليم بسبعة رؤساء من خيرة رجال المنطقة نزولاً عند رغبة أهل ميافارقين. ويرى أن يوحنا هذا، استطاع رغم كلّ الدسائس التي حيكت ضده من تحقيق ما يشبه الحكم الذاتي لفترة ليست يسيرة، ويذكر أن أبا جعفر المنصور، وكان أمير الجزيرة يومذاك، استدعى يوحنا بن ددّي إلى حرّان وتفاوض معه، وثبته رئيساً على المنطقة وزوده بكتاب إلى صالح ابن صبيح والي أرمينية يوصيه بإطلاق سراح جميع الأسرى الذين كانوا في حوزته من سكان الجبل العطشان موصياً خيراً بيوحنا مزوجاً إياه بالتحف والهدايا (النص السرياني، ص 207) وعلى إثر هذا هدأ سكان الجبل وأخلدوا إلى الطمأنينة والسلام.

– **9** – وبين ما سكتت عنه التواريخ العامة، خبر هجوم غريغوار الأرطي على مناطق الثغور الجزرية في النصف الثاني من القرن الثامن بقوة كبيرة وأعماله في اهلها السيف والسبي. ويقول الزوقنيني: إن غريغوار داه أبناء نهر حاوي وقتل منهم جمهوراً غفيراً، وساق من تبقى منهم أسرى، ومثَّل بهم شر تمثيل: فصلم آذانهم وجدع أنوفهم، وفقأ عيونهم بالنار. ويذهب إلى أن ما فعله غريغوار صار سبباً في اجتماع الناس حول يوحنا بصورة أقوى وأشد لأنهم وجدوا فيه المنقذ الوحيد من الأعداء في الوقت الذي كانت البلاد تعيش حالة من التسيب وعدم الاستقرار بسبب عدم بسط السيادة العباسية على كافة أطرافها.

– **10** – وفي الفترة الواقعة بين عام 764 – 766، ينظم المؤرّخ في



سلك أحداثه، خبر الزندقة المانوية، معللاً سبب دعوة أتباعها بـ «عبدة الرؤوس» فيرى أنه كان للمانوية وبخاصة في مدينة حرّان، أتباع وسدنة ورئيس عظيم الشأن يقيم بدير في ظاهر المدينة. ويربط بين هذه التسمية وبين أحد أعيادهم السنوية حيث تقام خلاله الكثير من الاحتفالات وتمارس ألوان السحر والشعوذة، وتنحر الأضاحي. وكان ابتداء العيد بأضحية بشرية تنحر في الدير المذكور سابقاً، ويوضع رأسها في هيكل يسجدون أمامه ويتفاءلون به إلى أن انكشف أمرهم بهرب الأضحية وإبلاغ أمير حرّان بالأمر. فنكل بهم شرّ تنكيل، وصادر أموالهم، وغرّمهم أربعمائة ألف قطعة من الذهب (النص السرياني، ص 264 – 266).

– **11** – وبين أحداث عام 768م خبر إعادة بناء حصن أرشمشاط الواقع على نهر ارسينوس. والإشارة إلى بعض تقاليد الجيوش الرومية قال: ابتدأ العرب بأقامة الحصن «ولما رفع البناؤون البناء قرابة قامة واحدة، أقبلت قوة كبيرة من الروم وخيمت على الضفة المقابلة للحصن». ولم يتلق الروم أمراً بعبور النهر، والقيام بهجوم مباغت على الحصن، لأنهم بلغوا المكان يوم الأحد، فانصرفوا إلى الصلاة ومن ثم أقاموا وليامة وشرعوا يأكلون ويشربون ويمرحون، فلما عاين العرب ما كان من أمرهم، أخذهم الخوف، ولاذوا بالفرار مخلفين وراءهم جميع عددهم ومؤنهم، فعبر الروم النهر في اليوم التالي، واحتووا ما خلفه العرب وراءهم، وأحرقوا ما تبقى، وحملوا أسلابهم وعادوا من دون أن يكلفوا أنفسهم مؤنة الحرب والجلاد. غير أن العرب عادوا مرة أخرى، ومعهم الصنّاع والعملة، وباشروا بناء الحصن من جديد. (النص السرياني، ص 251).

– **12** – وفي فترة إمارة العباس أخ أبي جعفر المنصور على الجزرة يسجل المؤرّخ خبر فتنة تزعمها العبيد في مدينة حرّان. ويرى أن ابتداءها



كان عندما اجتمع ما يقرب الخمسمائة منهم وهم مدججون بالسلاح، فأحاطوا ببيت مال المسلمين بغية احتوائه أولاً. وقطعوا الطرق المؤدية إلى المدينة واجهزوا على المارة مخافة أن يفتضح أمرهم. إلّا أن العباس استطاع، بعد أن جمع رجاله، هزمهم، وتشتيت شملهم، وقتل فريق منهم. ولم يكتف بهذا الإجراء، بل جمع أسيادهم وكبّدهم عقاباً شديداً. فجلد بعضهمن وقتل البعض الآخر، ليصيروا عبرة لمن اعتبر. (النص السرياني، ص 262).

- **13** – ويتحدث الزوقنيني عن سبب عزل العباس عن إمارة الجزيرة حديثاً طويلاً أغفلته الكتب التاريخية. ويقول عن العباس إنه: «كان رجلاً مشهوداً له بالرحمة وحب السلام والطمأنينة». ولما قدم المنصور لزيارة الرقة، أمر العباس السكان بإخلاء قراهم والاختفاء عن أنظاره مخافة أن يزيد عليهم الخراج، لأنه كان عنيفاً عاتياً. إلّا أن السكان لم يتقيدوا بالنصيحة، بل أقاموا في قراهم. كان الوقت بداية الحصاد، وبلاد ما بين النهرين وفيرة الحقول، نزهة، عميمة الخيرات. فلما رأى أبو جعفر ما كانت عليه من غنى، غضب على أخيه لأنه لم يستوف من سكانها الكثير من الخراج، وأمر بطرده من الإمارة واستصغاء جميع أمواله. ويرى أن المنصور كان قاسياً شديد القسوة حتى مع أقرب الناس إليه. (النص السرياني، ص 263).

- **14** – ومع كثرة انتشار الخوارج من ديار مضر منذ الفترة الأموية وإلى صدر الدولة العباسية، يلمع الزوقنيني إلى ظهور تجمع ديني بين النصارى – يسميه فتنة ويسمى قائده مضل – حوالي عام 770 م. ويتحدث بالتفصيل عن الجذور الأولى لهذا التجمع وعن قائده، ويذهب إلى أن الرجل كان يدعى ماروثا، من مدينة قريبة من تكريت تدعى «بيت راما» تيتم وهو في ميعة الصبا، فرحل إلى دير بجوار الموصل يدعى «دير ما متى»



لينقطع هناك إلى العبادة والتهجد. وبعد أن صرف نحواً من ثلاث سنين، ترك الدير وعاد إلى بيته ليشرف على ما تركه له ابواه من ثروة، فيصرف طرفاً منها على الفقراء وأهل الفاقة من سكان مدينته. إلّا أنه انصاع إلى رفاق السوء وصرف أمواله في اللهو والبطر. (النص السرياني، ص 283) وفيما كان يفكر بوضع حد لحياته المسرفة، خطر له أن ينقطع إلى البرية، ويمارس أقسى أنواع الزهد والفضيلة. فذهب إلى البرية الممتدة بين تكريت وسنجار، وتفرغ كلياً لأعمال التقشف حتى استحال جلده إلى لون التراب. وهناك، ابتدأ يتنبأ، ويتحدث عن الأمور الغيبية، فأجمعت اليه الناس من كلّ فجٍّ عميق تطلب العون والأبد، الأمر الذي ساق رئيس النساك في البرية – وكان يدعى زعورا – إلى إنذار ماروثا وأمره بالإقلاع عن تلك الأعمال خشية أن يقوده إبليس إلى الهلاك لأن اموراً كهذه لا يستطيع القيام بها إلّا من تملكه الشيطان. (النص السرياني، ص 284). ولما لم يرعو، طرده من المنطقة، وحرم علي ممارسة النسك بين زهّاده. فتحول ماروثا إلى بلاد ما بين النهرين، ودخل قرية كبيرة تدعى «حاح» وابتدأ يعظ الناس في الشوارع ويهددهم بالخراب والدمار على غرار ما فعل الله بأهل نينوى (سفر يونان 3 : 1 – 5). فخاف السكان، والتصقوا به، وطلبوا إليه أن يصلي عليهم ويغفر لهم لئلا يدركهم العقاب ويفنوا مع ذراريهم. (النص السرياني، ص 286). فطيّقت منذئذ شهرته الخافقين، وزحفت إلى الجماهير المسحوقة من كلّ جانب لتجد عنده حاجتها. ولما أخذت الكنيسة تشعر بالخطر على مؤسساتها، ابتدأت تضايق الرجل وتحاول أن تمنع الناس من الذهاب اليه، إلّا أن الجماهير أبت الإصغاء إلى رجال الكنيسة، وذهبت وراءه، وكانت مستعدة للموت في سبيله. ولما بلغ الأمر قصاراه، تعاونت الكنيسة مع الدولة وحكمت عليه بالسجن، فالقي في حبس مدينة حرّان، وضيق عليه حتى مات (النص السرياني، ص 289). ومع أن المؤرّخ يسند إلى ماروثا الكثير من



الخوارق، إلّا أنه ينسبها إلى الشيطان، مستنداً بذلك على أقوال **الإنجيل** المشيرة إلى ظهور أنبياء كذبة يضلون الكثيرين. (انجيل متى 24 : 5).

- **15** - وبين الأحداث الواقعة ما بين سنة 768 - 774 شاع خبر انفجار عام شمل إقليم سيس بسبب ما أصاب الناس من عنت وإرهاق جرّاء جمع أموال الخراج والجزية والعشور: «لما عاينوا أن هذه السرقات المكشوفة لا تقف عند حدّ، وأن وجوه الجباة لا تخجل من طلب المزيد، ولا يتقّون الله فيما يفعلون... تمردوا قائلين: وفينا ما علينا. وسددننا العجز الذي أصاب أصحابنا، ودفعنا الكميات المترتبة علينا وعلى غيرنا حسب ما نصت عليه «وثيقة الصلح» فالى متى لا يشبع هؤلاء من تقطيع لحومنا؟ لن ندفع ضريبة بعد اليوم» (النص السرياني، ص 351). إلّا أن إصرار السكان على الامتناع عن دفع الضرائب لم يفد شيئاً، لأنه ما إن بلغ عمال الخراج خبر هذا التمنع حتى جمعوا حولهم جيشاً كبيراً من المنتفعين والغوغاء، وداهموا سكان ذلك الإقليم، وكان إقليماً مشهوراً بالتعدين، فقتلوا قوماً، وأسروا آخرين، ودمروا مناجم الرصاص، وحطموا بهراواتهم جميع أدواتهم الصناعية، كما خرّبوا المكان وتركوه قاعاً صفصفاً. (النص السرياني، ص 352 - 355) ولم يعمّر ذلك المكان فيما بعد، فخسر الناس أعمالهم، وخسرت البلاد أفضل مناجم الرصاص في ذلك الإقليم.

- **16** - ومن الأحداث المثيرة في تاريخ الزوقنيني خبر ظهور حيوان غريب الأطوار في إقليم طور عبدين، عقب مجاعة شديدة ضربت البلاد شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً (النص السرياني، ص 376) يذهب المؤرّخ إلى أن هذه الوحوش كانت رهيبة مذهلة لا تخشى إنساناً أو حيواناً فأودت بحياة الكثيرين من أبناء تلك الأقاليم. وكانت هذه الوحوش تشبه الذئاب في هيآتها، ولكنها تختلف عنها بجملة أمور: بخرطومها



الأكثر دقة والأكثر طولاً، وبآذانها الكبيرة الشبيهة بآذان الخيل وبشعرها الطويل القاسي الشبيه بشعر الخنازير. (نص ص 386) وكانت تهاجم القرى فتقتل دفعة واحدة ما بين عشرين ومئة رجل، من دون أن يقوى الأهلون على إيقاع الأذى بها. (نص ص 368). وكانت من القوة بمكان إذ تستطيع أن تتسلق القصور العالية، وتدخل الدور وتخطف الأطفال من أسرّتها وتعود أدراجها من دون أن تقدر الكلاب على النباح في وجهها أو مداهمتها. فأقفرت نتيجة ذلك القرى من سكانها، وخوت الطرقات من السابلة، وعاش الخلق في خوف ورعب متواصلين من هجماتها. (النص السرياني، ص 396).

أحوال الكنيسة في بلاد ما بين النهرين

وتقوم أهمية هذا الكتاب على ما جمعه المؤلف من أخبار الكنيسة في الفترات المتعاقبة من تاريخها. فيؤرّخ للبطاركة ويذكر طرفاً من حياتهم والأديرة التي نشأوا فيها وسنوات جلوسهم في كراسيهم وموتهم وأماكن دفنهم ويشيد بمن اتصف بالسيرة الحميدة، ويذمّ من ساءت سيرته. (النص السرياني، ص 148، 149، 152، 155). ويتطرق إلى ذكر الكثير من أساقفة الأبرشيات السريانية المنتشرة في بلاد ما بين النهرين، ويذكر من اتصف منهم بالزهد والتقشف وممارسة الفضائل الروحية كالأُسقف حبيب مطران الرُّها. (النص السرياني، ص 161). وثاودوطا أُسقف آمد، الذي تخلى عن ابرشيته وتنسك فوق عمود بالقرب من قرية قلوق (النص السرياني، ص 165) وشمعون القيدوني أُسقف الرُّها الذي أحبته كافة الطوائف في المدينة وأكرمته شديد الإكرام. (النص السرياني، ص 218 – 221).

ويذكر طائفة من الأديرة التي انتشرت في البلاد وكانت مراكز



للدراسات اللاهوتية واللغوية، حيث تخرج فيها رهط من العلماء كيعقوب الرُّهاوي (النص السرياني، ص 148) وأثناسيوس البلدي، وكوركي البطريرك، وغيرهم كثير. وأشهر هذه الأديرة: دير زوقنين قرب آمد (النص السرياني، ص 151).

دير قمسريم (ص 211) وقرقفتا (النص السرياني، ص 212) ومار شيلا (النص السرياني، ص 155) ودير يوحنا الارطي. وأشار إلى بعض الكنائس المشهورة في البلاد ككنيسة آمد التي بناها هرقل، وكنيسة الرُّها الكبرى، وكنيسة مار زعورا التي دفن فيها البطريرك يوحنا وكنيسة مار يوحنا المعمدان (النص السرياني، ص 152).

ولا يقف المؤرّخ عند ذكر الأحداث العظيمة في الكنيسة بل يتطرق إلى الانشقاقات والفتن التي شجرت فيها. فيلمع إلى النزاع الذي حدث بين الأساقفة في حياة البطريرك سويرا بن شقا حوالي عام 683 م. ثم الاضطرابات التي وقعت في الكنيسة إثر انتخاب إسحق بطريركا غير شرعي على الكرسي الرسولي إثر تدخل أبي جعفر المنصور بسبب الصداقة الحميمة بينه وبين إسحق. ويقول المؤرّخ أن الفتنة يومئذ لم تدم طويلاً لأن أبا جعفر عاد بعد سنة وقتال إسحق (النص السرياني، ص 210 – 212). ثم يعود للحديث عن النزاع الذي انفجر إثر انتخاب البطريرك كوركي، وكيف أن الخليفة أبا جعفر المنصور أمر باعتقاله في مدينة بغداد تسع سنين وأمر برسامة داود خلفاً له (النص السرياني، ص 212 – 140) ويعود للحديث عن كوركي الذي خرج من السجن بعد وفاة الخليفة وعاد إلى كرسيه وحلّه بعض المشاكل المستعصية في الكنيسة إثر رسامة داود وغيابه هو عن كرسي الرئاسة (النص السرياني، ص 226 – 249). ومن طريف أخباره عن الكنيسة حديثه عن اعتناق الكثير من ابنائها للدين الإسلامي في النصف الثاني من القرن الثامن. ويقول إن عدد الداخلين في الإسلام كان كبيراً، وكان سببه الرئيسي ثقل



الجزية المفروضة عليهم (النص السرياني، ص 382 – 385) ويذهب إلى أن الذين دخلوا الإسلام كانوا يتهمون من بقي على نصرانيته بالكفر (النص السرياني، ص 385 – 386) ويسجل أول نقاش بين الفريقين بصورة كاملة، ويبدو من أحاديثه أنه كان على اطلاع تام على الديانة الإسلامية وعلى القرآن الكريم. (النص السرياني، ص 389). ثم ينقل الطريقة التي كانت تتبع في عملية الدخول في الإسلام فيقول: فيسأل الرجل: أتهجر المسيح؟ فيجيب: أجل أهجره. وهل تجحد المعمودية؟ فيقول: نعم، فقد جحدتها. أتكفر بالصليب والقريان وبكل العقائد التي يؤمن بها النصارى؟ أجل، أكفر. ثم يسأل: هل تؤمن أن محمد رسول الله وأن القرآن قد أنزل عليه من السماء؟ أؤمن. وهل تعترف أن عيسى المسيح كلمة الله وروح منه، وهو نبي كسائر الأنبياء، وأنه ليس الله؟ فيجيب الرجل: نعم. ثم يحل حزامه، ويجلس للصلاة باتجاه الجنوب (النص السرياني، ص 391). ويقول عن الذين اعتنقوا الإسلام: بأنهم خسروا سيماءهم وفقدوا وسامتهم وأسماءهم، لأنه لم يطلق عليهم لقب مسلمين أو محمديين بل سموا «موالي». وهل المولى غير العبد؟ (النص السرياني، ص 387). ويخدم حديثه بقصتين طريفتين عن شماس وقسيس كانا اعتنقا الإسلام وعادا إلى النصرانية مرة أخرى وهما في حالة يرثى لها (النص السرياني، ص 387). ثم ينهي المؤرّخ كتابه بموعظة طريفة عن عمل المسيح، يتطرق فيها إلى الكثير من المبادئ والتعاليم والممارسات المسيحية (النص السرياني، ص 393).

د. يوسف متى إسحق

التاريخ الزوقنيني المنحول وديونيسيوس

التلمحري مجلة **المجمع العلمي العراقي**

الهيئة السريانية، بغداد 1984

المجلد الثامن، ص 63 – 135



التاريخ الزوقنيني

وضعه راهب مجهول على الأرجح من دير زوقنين بالقرب من آمد (ديار بكر) وقد فرغ منه سنة 775 وكان السمعاني قد نسبه إلى البطريرك ديونوسيوس دو تلمحري، غير أن نولدكه ونو فندا ذلك. الكتاب ناقص ومحفوظ في مخطوطة يتيمة تمتلكها مكتبان: الفاتيكانية تحت رقم 162 واللندنية تحت رقم 14665. الوراق 1 – 7 ناقصة أو مخرومة. عني شابو بنشره.

يشمل هذا التاريخ على ما يلي:

أولاً: قسم ناقص كتب سنة 1087 ي / 5 – 776 في عهد الخليفة المهدي معنون إلى كوركيس مطران آمد والأنبا أوكافيوس وعدد من رهبان زوقنين، وقد طبعه شابو (المجلد 2، ص 418 – 420).

ثانياً: منذ الخلقة وحتى سنة 313 وتقول حاشية فيه إن مادته مستقاة من تاريخ اوسابيوس، كما من مصادر أخرى أضيفت عليه فيما بعد قصة الأسكندر المخولة مضافة من كتاب **مغارة الكنوز** كما أضيفت عليه قصة المجوس مستقاة من كتاب لاتيني منحول وإحدى روايات الراقدين السبعة في أفسس (كان قد سبق ونشرها نولبرك عام 1851). نلقى هذا القسم عند شابو (المجلد 1، ص 159).

ثالثاً: السنوات 313 – 485 ومصدرها المؤرّخ سقراط ما خلا رواية الراقدين السبعة (أهل الكهف) ورواية يوحنا روفس (طبعها نو في الباترولوجيا الشرقية 8) وغيرها. نلقى هذا القسم عند شابو (المجلد 1، ص 159 – 234).



رابعاً: السنوات 497 – 6/ 507 وكأنه قسم مستقل موجه إلى الأنبا سرجيوس (سركيس) فإن الكاتب يكتب في الرُّها بعد سنة 507 تحت عنوان (تاريخ الأزمنة والنكبة الحالة بالرُّها وآمد وكل بلاد ما بين النهرين). ولكننا نجد كاتباً آخر، اسمه اليشا من زوقنين يكمل ورقة مفقودة (بداية الورقة 66) ويشكر الله والكاهن إيشوع العمودي من دير مار زوقنين كاتب التاريخ. فظن السمعاني أن ايشوع العمودي هو مؤلف هذا القسم بينما الأصح أن يقال إنه الناسخ أو كاتب المخطوطة. وقد طبع ها الكتاب أكثر من مرة.

خامساً: السنوات: 489 – 578 يعتمد المؤلف فيها على القسم الثاني من تاريخ يوحنا الأفسسي. ويضيف رسالة شمعون الأرشمي بشأن الشهداء الحميريين. ونلقى هذا النص، لدى شابور (المجلد 2، ص 2 – 145).

سادساً: السنوات 587 – 775 ويقول كاتبها أنها مكتوبة سنة 1086 ي / 775.. الأحداث الممتدة من سنة 587 وحتى 713 موجزة وتطول بعد سنة 775 حتى إنها تتضمن وصفاً للأوضاع الاقتصادية. كان شابو قد طبعها كقسم رابع لتاريخ ديونوسيوس التلمحري.

ولم يكن على علم آنذاك بمخطوطة لندن التي تكمل المخطوطة الفاتيكانية كما ذكرنا ونلقى هذا في طبعة شابو الكاملة (المجلد 2، ص 149 – 399).

لم تنجز بعد ترجمة كاملة لهذا التاريخ فإن شابو قد غطى الأقسام 2 – 4 بترجمة فرنسية ما خلا اوراق مخطوطة لندن ثم غطاها كاملة



بترجمة لاتينية في طبعة الجمهرة (لوفان) ولم يترجم بعد كاملاً القسم الخامس، بل هناك أقسام منه بالفرنسية والألمانية.

مجلة المجمع العلمي العراق
هيئة اللغة السريانية
المجلد السادس، بغداد
1982 – 1981
يوسف حبي، **التواريخ السريانية**
ص 76 – 78.

ملاحظات حول تاريخ الزوقنيني

1) المؤلف ذو معرفة تامة **بالكتاب المقدّس** وصاحب إلمام كامل بالنبوات حيث يحاول أن يفسّر نبوات العهد القديم أو يحققها في الأحداث التي عاصرته أو التي يكتب عنها ولذا نجده دوماً بين آونة وأخرى يورد نصوصاً قصيرة أو طويلة من نبوات أرميا وأشعيا وغيرهما وكأني به يريد القول إنها تحققت الآن في زمانه هو وهذا نابع من الروح الصوفية التي كان يتمتع بها وإنه قد أسلم كلّ مقاليد الأمور إلى الله. وإن الله مُسيِّر أكثر مما هو مخيِّر في صنع حركة التاريخ.

2) يعزو كلّ الأحداث المفجعة والمفزعة إلى أنها نتيجة لخطايا البشر وبمثابة عقاب الله على الإنسان محققاً قول الربّ لي النقمة وأنا أجازي. وهنا كان حركة التاريخ يصنعها الله في الإنسان وليس الإنسان في العالم، وهذه نظرة نسكية زهدية إلى العالم.

3) يورد طرفاً من أدوات التعذيب في عهد صدر الدولة العباسية وكيف كان الولاة والقضاة يتفننون في استنباطها والتعذيب بها ولاسيما الذين لا يملكون دفع الضرائب حتى يؤول بهم المصير أحياناً إلى الموت أو بيع النفس أو التأجير أو بيع الأولاد من بنين وبنات وتأجير



النساء للعمل لقاء الأموال لمدة معينة قد تطول وقد تقصر بحسب ما فرض عليهم. (النص السرياني، ص...).

4) يمتاز بأسلوب الإسهاب الممل واللف والدوران في الكلام عن الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية للسنوات 772 - 775 حتى إن القارئ ليكاد يقرأ الفكرة مرات عدة في صفحات متتابعة وكأني به يريد أن يرسخ ما يريد أن يقوله أو يريد أن ينقل مدى ألمه الداخلي وحسّه المرهف تجاه بني جلدته أو طائفته من الغبن والظلم ولذا نجده يكرر ذات المعاني وذات الأفكار تحت عناوين مترادفة كقوله: شهادة الزور، الدائن والمدين، حفر القبور وتذرية العظام وغيرها.

5) كما أنه يتحدث بإسهاب عن العلائم الطبيعية والمناخية من هزات الأرض والعلامات الفلكية والجوع والقحط ويجعلها كأنها كإحدى رموز غضب الربّ على الإنسان أو أنها تنبيهات له ينذر الربّ بها العالم للتوبة الصادقة والمحبة الخالصة وهو في ذلك كالمعلم الذي يعطي الدروس لسامعيه يحاول تفسيرها بأبسط الطرق وأسهلها.

قصة ترجمة النص

في أوائل عام 1970 ومن خلال الحوارات التي كنا نتبادلها مع الأب يوسف حبي طرح عليّ فكرة ترجمة القسم الأخير من كتاب ديونوسيوس التلمحري المنحول وتحقيقه ومن ثم العمل على نشره. فطابت لي الفكرة وراقت كذلك لوالدي المرحوم الشماس بطرس قاشا الذي بكل عزم وتصميم ورحابة صدر وغيرة سريانية تصفح الكتاب أولاً ثم شرع بترجمته بعد استعارته من نيافة المطران سويروس زكا عيواز بواسطة الأب يوسف حبي فترجمه خلال بضعة أشهر ترجمة أولى،



ثم رجع إليها ثانية حيث كنت أقرأ له النص المترجم ويقابله هو في الكتاب أو النص، السرياني وهكذا تمت الترجمة التي شرعت بتبييضها ثم أخبرت القس يوسف بذلك فطلب قراءته ومراجعته ومن ثم تحقيقه على المصادر الأجنبية. وبقيت المخطوطة لديه ما يقارب العام من دون أن يعمل فيها شيئاً فأرجعت المخطوطة ووضعتها في أحد أدراج مكتبتنا الخاصة وطواها الزمن حتى كانت وفاة الوالد الرحوم عام 1989. فعرفاناً بالجميل وإحياء لذكراه العطرة تناولت المخطوطة من جديد وشرعت في تحقيق ما أستطيع إليه سبيلاً في المصادر العربية والسريانية المترجمة من قبله أيضاً مثل تاريخ الرُّهاوي لمجهول وتاريخ ميخائيل الكبير وتاريخ ابن العبري السرياني المطول إلى أن ارتقت إلى الصورة التي هي عليها الآن. فرجعت إلى أمهات المصادر العربية مثل تاريخ الطبري والمسعودي ومعجم البلدان اليعقوبي والأزدي وغيرها.

ثم حاولت تعريف الأقاليم كافة والمدن والأديرة والقرى التي وردت في الكتاب إضافة إلى سائر الأعلام الذين ورد ذكرهم فيه كيما يكون واضحاً ودقيقاً أمام القارئ العربي والسرياني على حد سواء مع بعض التوضيحات والتعليقات الخاصة والعامة والمفيدة في جعله كتاباً يرجع اليه في كلّ الأحيان ولكافة المستويات العلمية الأكاديمية وغير الأكاديمية مع وضع مقدمة واضحة المنهج والأسلوب.

أتت الترجمة حرفية تقريباً لأن المترجم كان شديد الحرص في تعريب الكلمات والأسطر حيث لم يكن يكتف بالترجمة المعنوية أو الفكرية أو بمعنى أدق لم يكن يترجم الفكرة بعد قراءتها ليصوغها في قالب عربي وبتصرف إنما كان يهتم بتعريب النص، لفظة لفظة وسطراً سطراً إلّا في بعض الحالات التي كان يتصرف بها بحسب الفكرة



الخاصة بالمؤلف والسبب يعود للنص، كأن يكون مبهماً أو ركيكاً أو فيه خطأ إملائي أو لغوي عندئذ كان يحاول جهده لإعطاء المعنى الصرف ليس إلا.

ولهذا أتت الترجمة دقيقة التعبير كأنها بذات اللغة التي كتب بها المؤلف.

أيضاً إن المترجم لم يحاول أن يستعمل اللغة العربية الصعبة إنما أعطى جهده للكتابة باللغة السهلة السلسلة لتأتي الترجمة مطابقة للغة التي كتب بها التاريخ نفسها من دون التزويق والتنميق إنما الترقيق والتدقيق وهكذا أنجزها وهو في غاية السرور أنه جعل تاريخ الزوقنيني السرياني تاريخاً عربياً بلغته زوقنينياً بفكرته.

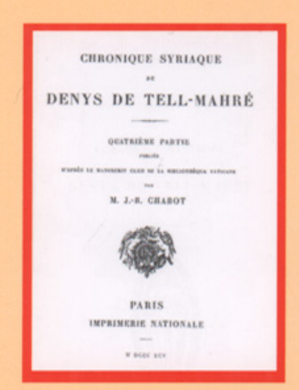


الفهرس




مكتبة
الفكر الجديد

الوقائع التاريخية السريانية من سنة 587-774م


CHRONIQUE SYRIAQUE

DE

DENYS DE TELL-MAHRÉ

QUATRIÈME PARTIE

PUBLIÉE

D'APRÈS LE MANUSCRIT UNIQUE DE LA BIBLIOTHÈQUE VATICANE

PAR

M. J.-B. CHABOT

PARIS

IMPRIMERIE NATIONALE

M DCCC XCV

- أصول المعرفة العلمية
- ثقافة علمية معاصرة
- فلسفة
- علوم إنسانية واجتماعية
- تقنيات وعلوم تطبيقية
- آداب وفنون
- لسانيات ومعاجم

تناول هذا الكتاب الوقائع التاريخية السريانية للفترة ما بين 587-774 ميلادية. وتكمن أهمية هذه الفترة التي تناولها المؤلف في أنها كانت تعج بالصراعات على السلطة ما بين رجال الدين في الأديان السماوية الثلاثة. كما ناقش الكتاب من وجهة نظر مؤلفه الأحداث والمعارك والصراعات في المناطق التي كان يتواجد فيها السريان، غير متناسٍ وضع سيرةٍ لكل الرجالات الذين لعبوا دوراً في كتابة التاريخ.

- **ديونوسيوس دي تلمحري**: كان يعمل بطريرك أنطاكيا ورئيس الكنيسة السريانية الأرثوذوكسية منذ عام 818م حتى نهاية 845 م. منح شهادة تقديرية من قبل جوزيف سايمون السامني لمؤلفه عن **تاريخ السريانية في القرن الثامن الميلادي**.

- **بطرس قاشا (1910-1989)**: شماس عراقي اهتم بتاريخ السريان ولغتهم وتراثهم، نقل إلى العربية عيون هذا التراث ولا سيما الكتب التاريخية. منها: **التاريخ الكنسي**، و**تاريخ الأزمنة** ومن ترجماته: **الثقافة السريانية** (المنظمة العربية للترجمة، 2014).





المنظمة العربية للترجمة



الثمن: 16 دولاراً
أو ما يعادلها